

فخرنا

في الوطن



رواية تتناول الحروب الدينية

د. غفار محمد

غرباء في الوطن ..

إهداء :

إلى أولئك الذين يُصغون للكلمات كما لو كانت نبوءات،

ويؤمنون أن في كل جملة مأوى، وفي كل قصة خلاص ..

إلى عشاق الأدب الذين يمنعون اللغة حياةً أخرى..

وإلى مشبعي الكُتاب الذين يرون في الحبر نورًا، لا حرفة

أكتب هذه الصفحات، لا لتُفهم... بل لتُحسَّ

أنتم النبض الذي يجعل للكلمة طنينًا أبعد من الورق،

وللحكاية عمراً أطول من راويها ..

غرباء في الوطن..

بين طيات هذه السطور، لا ينسج الخيالُ خيوطَه من العدم، بل يستنطقُ صمتاً طويلاً حَبسته جدرانُ القلاعِ ودفنته رمالُ المشرقِ و المغربِ لقرون. إن كلَّ نصلٍ يُستلّ، وكلَّ صرخةٍ تدوي في ساحاتِ الوغى، وكلَّ دمعةٍ تسقطُ في خلوةِ الرهينة، ليست إلا صدىً لأرواحٍ عبرت هذا الوجودَ حقيقةً لا مجازاً؛ إنها وقائعٌ نُبشت من بطون المخطوطاتِ العتيقة، حيث تختلطُ قداسةُ القصدِ بخطيئةِ الفعل، وتتشابكُ مصائرُ ملوكٍ وأباطرةٍ بمسارِ بشرِ عاكفين تخيروا وجهَ العالم. فما ستقرأه هنا هو ميثاقٌ غليظٌ مع الحقيقة؛ حكايةُ "فرسان الميكل" و "ملوك الأندلس" كما عاشوها هم، لا كما أرادَ خصومهم أن تُروى، حيث تتوارى الأساطيرُ خجلاً أمام جلالِ الواقعِ وصدقِ المأساة.

غريباء في الوطن..

محتوى الكتاب :

الجزء الأول : أندلسيات

الجزء الثاني : فرسان الهيكل

مقدمة :

لم تكن الغربية يوماً مسألة زمنٍ يُقاس بالسنين، بل شعورٌ يتسلل إلى الروح مهما طال المقام.

ففي الأندلس، حيث ازدهرت حضارة المسلمين قرونًا، ظلّ في الأعماق حنينٌ خفيّ إلى المشرق، كأن الأرض تُعانقهم ولا تنتمي إليهم تمامًا.

كانت القصور شامخة، والعلوم مزدهرة، غير أن القلب يعرف موطنه الأول ولو غمرته النعم.

وكذلك كان حال الصليبيين في بلاد الشام، إذ أقاموا دولًا وحصونًا، لكنهم ظلّوا غرباء في تفاصيل الأرض وروحها.

لم تستطع القرون أن تمحو الإحساس الخفي بأنهم عابرون، مهما حاولوا أن يرسخوا أقدامهم.

فالزمن، على امتداده، لا يبدّل جوهر الانتماء، ولا يُحوّل المنفى إلى وطنٍ حقيقي.

قد تُبنى المدن وتُزرع الحقول، لكن الأرواح تبقى معلّقة بما تعرفه وتأنس إليه.

وكلما طال البقاء، ازداد التناقض بين الظاهر المستقر والباطن القلق. فالوطن ليس ما نملكه، بل ما يسكننا ويُشبهنا في صمتنا وحنيننا.

وهكذا يبقى المنفى منفى، مهما امتد به الزمن وتزيّن بأوهام الاستقرار.

الجزء الأول

الندائيات

فصول الجزء :

- عصر الفتح الذهبي
- عصر الولاة
- عصر الدولة الأموية
- عصر ملوك الطوائف
- عصر المرابطين
- عصر الموحدين
- مملكة غرناطة
- السقوط النهائي

عصر

الفتح الذهبي

المغرب - سبتة ..

711 ميلادي

كان ليل "سبتة" مخملياً داكناً، يفوح برائحة اليود والملح وعفن الخشب الرطب الذي شبع من رذاذ المتوسط. السفن الأربع، التي استعارها طارق بن زياد من "يُليان"، كانت تبدو في العتمة كوحوشٍ أسطورية جريحة، تتأرجح ببطء على وجه ماء يلمع كجلد أفعى سوداء تحت ضوء قمرٍ شاحب. كان الهواء ثقيلًا، مشحوناً بوشوشات الجند وتوجس الخيل التي كانت تضرب بحوافرها أرضية السفن الخشبية، فيصدر عنها طنينٌ مكتوم يتردد في صدور الرجال كدقات طبول لحرب بعيدة.



وقف طارق بن زياد على حافة الرصيف الصخري؛ جسده نحيل كرمحٍ صقيل، ملفع ببردة أمازيغية خشنة الملمس تفوح منها رائحة الزعتر البري الممزوج بشموخ القمم. بجانبه وقف يُليان، حاكم سبتة، بملابسه القوطية المترفة التي يطوقها الديباج الثقيل، وعيون تلمع فيها مرارة الخيبة وشهوة الانتقام.

خرج صوت يُليان كحفيف الأفاعي من بين طيات حريره الغالي، وهو يرمق السفن بنظرة يملؤها الشك : "أيها القائد، انظر إلى تلك السفن الهرمة؛ إنها تحمل رجالاً لم يروا في حياتهم أبعد من سراب الصحراء، فكيف تأمن بهم في هذا اللج الذي ابتلع أساطيل القياصرة؟ إنك تقامر بدمائهم في مقامرة لا يربح فيها إلا الموت الزؤام."

ثبّت طارق نظره في عين الأفق، وانساب صوته كنهْر هادئ في مجراه الصخري، بينما كانت يده تعبث بمقبض سيفه كأنها تستمد منه الثبات : "أيها الكونت، إن الفرق بيننا وبينك هو في تعريف 'الأمان'. أنت ترى الأمان في جدران قصرِك وفي متانة خشب سفنك، ونحن نرى الأمان في نية خالصة جعلت أرواحنا تسبق أجسادنا إلى تلك الضفة. الإنسان يا يُليان لا يغرق لأنه في الماء، بل يغرق حين يسكن الماء قلبه ويتحول الخوف فيه إلى حقيقة. هؤلاء الرجال ليسوا رعاةً ضلوا طريقهم، بل هم حملة 'رسالة' ترى في الموت عبوراً، وفي الحياة اختباراً. أتظن أن من ترك خلفه أهلاً ووطناً يبتغي غنيمة عابرة؟ نحن نعبر لنعيد صياغة العدل في أرضٍ أفسدها الطغاة."

أمال يُليان رأسه في سخريةٍ مريرة، وأطبق شفثيه في ابتسامة باهتة: "العدل كلمة جميلة، لكن قائد القوط 'الذريق' يملك سيوفاً من حديد لا تفهم لغة الكلمات. فكيف ستقابل الذهب بالفولاذ؟"

التفت طارق بوشاحه الذي تتلاعب به ريح الصباح، وأجاب بنبرةٍ يملؤها يقينٌ صوفي عميق : "الذهبُ يثقل صاحبه، والحديدُ يصدأ، أما 'الحق' فهو النصل الذي لا ينكسر. غداً حين تلتقي الخيول، ستدرك أن القوة ليست في لمعان التيجان، بل في اليقين الذي يسكن تحت العمام البيضاء."

مع تباشير الفجر الأولى، حين بدأ سواد الليل ينسحب تاركاً مكانه

للون رمادي كئيب، أُعطيت إشارة الإبحار. انسابت السفن فوق صفحة الماء بوقارٍ مريب، وتمزق صمت البحر بصرير المجاذيف التي كانت تغوص في العباب فتخلف وراءها دوائر من الزبد اللامع.

و في قلب "المضيق"، حيث تختلط رياح الأطلس العاتية بسكون المتوسط، وقف الشاب تيم، أحد رماة القبائل، يقبض على حبل السفينة بقوة جعلت مفاصل يده تبدو بيضاء كالعاج. كان يرقب الموج المتلاطم الذي كاد يلامس حواف السفينة المتهالكة.

تحدث لقائده بهمسٍ يكاد يذوب في جلبة الموج، وعيناه مبهورتان تعكسان رهبة الفناء : "يا سيدي.. الأرض خلفنا تلاشت، والبحر من تحتنا يزمجر كأنه يرفضنا. أشعر أننا صرنا معلقين بين السماء والعدم، بلا جذور ولا مأوى."

اقترب طارق بوقاره المهيب، ومسح بكفه الخشنة على خشب السفينة كأنه يهدئ روع كائنٍ حي، وخرج صوته عميقاً كأنه آتٍ من قرار بئرٍ سحيقة : "يا بني، أتظن أن الجذور هي ما يربط الإنسان بالتراب فقط؟ إن الجذور الحقيقية هي التي تنمو في السماء، في المبدأ الذي تدافع عنه. انظر إلى هذا الموج؛ إنه لا يغرق إلا من يصارعه خوفاً، أما من يفهم سننه فإنه يمتطيه وصولاً. نحن اليوم في 'برزخ' التاريخ؛ خلفنا عالمٌ قديم كنا فيه مجرد عابرين، وأمامنا عالمٌ جديد سنكون فيه نحن التاريخ. لا تخشَ الغربة، فالأرض كلها لله، وأينما حلَّ العدل فنمَّ الوطن."

رفع تيم بصره نحو النجوم، وبدأت ملامحه تستعير شيئاً من صرامة القائد وهو يتساءل : "لكننا قليلٌ يا سيدي، والمجهول عظيم."

ابتسم طارق بابتسامةٍ رقيقة لا تكاد تبين خلف لحيته الكثة، وأجاب بنبرة هادئة تخرق صخب العاصفة : "القليلُ الذي يحمل نوراً يغلب الظلام مهما اتسع. أرأيت شمساً واحدة كيف تطرد ليل العالم؟ هكذا هي 'الفكرة' الصادقة. غداً حين تطأ قدماك الرمل، ستشعر أن كل

ذرة تراب ترحب بك، لأنك لم تأت لتغصبها، بل جئت لتزرع فيها روحاً كانت تفتقد لها."

بعد ساعاتٍ من مكابدة الموج، و حين استحال لون الأفق إلى أرجواني رقيق، ارتطم مقدم السفينة الأولى برمال الشاطئ الأندلسي الندية. كان الضباب يلف قاعدة الجبل العظيم كأنه غيمة سقطت من السماء لتستقبل الفاتحين. نزل طارق، وغاصت قدماه في الرمل البارد، فالتقط حفنة منه وشمها؛ كانت تفوح برائحة المطر المكبوت والشوق الأزلي.

ولكي يقطع دابر التردد، ويغلق أبواب الشك في قلوب من أثقلهم الحنين، أمر بإضرام النار في السفن حتى تصاعد منها دخانٌ أسود كثيف تصارع مع الضباب الصباحي، و شرعت ألسنة اللهب تلتهم الخشب الذي كان صلتهم الوحيدة بالماضي. وقف الرجال في ذهول تام، و عيونهم تعكس وهج النار التي كانت تأكل طريق عودتهم.

صرخ أحد القادة والدهشة تلجم لسانه، و عيناه تعكسان وهج اللهب في رعبٍ صامت: "أبا زياد! ماذا فعلت؟ لقد وأدت المهرب، وجعلت الموت مصيرنا المحتوم إذا ما غلبنا!"

وقف طارق في مواجهة اللهب، وظله يمتد طويلاً فوق الرمل كأنه عملاقٌ يخط حدود التاريخ، وجلجل صوته كصاعقةٍ تمزق سكون الفجر: "أيها الناس.. لم آخذ منكم مهرباً، بل منحتكم 'حياة' لا تقبل التراجع. العودة في قاموسنا اليوم هي انتحارٌ للروح قبل الجسد. لقد أحرقتُ الخشب لكي تدركوا أنكم لا تملكون إلا خياراً واحداً: أن تكونوا أسياد هذه الأرض أو جزءاً من ترابها. السفينة التي حملتكم كانت 'قيداً' يربطكم بالضفة الأخرى، والآن صرتم أحراراً في فضاء الله الواسع. انظروا إلى هذا الرماد؛ إنه نهاية 'اللاجئ' وبداية 'الفتاح'. من كان يقاتل ليعود إلى بيته، فقد ضاع بيته، ومن كان يقاتل ليرضي ربه، فبيته اليوم حيث يغرس رايته."

ثم استل سيفه، وغرزه في الرمل بعمق، ونظر إلى قمة الجبل الصامته وقال بنبرة هزت أركان المكان:

"يا أرض 'إبيريا'.. لم نأت لنطأك غزاةً يشتهون الذهب، بل جننا لنوقظ فيك كرامة الإنسان التي سحقها الجبابرة. اليوم ينكسر قيد المرافئ، ويبدأ عناق الحضارات الذي لن ينساه الزمن."

كانت الضفةُ المقابلة لنهر "برباط" غارقةً في ضبابٍ كثيفٍ يزحف كأنفاس الموتى فوق العشب الطويل، ولم يكن خريير الماء يشي بأي طمأنينة؛ بل كان صوتاً رتيباً يحكي قصة الانحدار الأزلي نحو الهاوية. في تلك البقعة المنسية من "وادي لكّة"، استحال السكونُ خناقاً يطبق على الأنفاس؛ حيث وقف الفاتحون بملابسهم التي صبغتها رمالُ الفيافي، يرمقون غابةً من الفولاذ كانت تتشكل في الأفق الشمالي كأنها جبالٌ من نارٍ وجليد.

برز قائد القوطيين "الذريق" فوق سريره الذهبي المحمول على أعناق البغال البيضاء، كان وجهه لوحةً ممعنة في الغطرسة، مسكوناً بملامح ملكٍ يظن أن الشمس لا تغرب إلا بإشارةٍ من صولجانه. و كانت خوذته الذهبية تعكس الضوء بوقاحة، ودروعه الثقيلة المزخرفة بالصلبان ونقوش القوط القديمة تُصدر صوتاً معدنياً يشبه نعيق الغربان التي بدأت تحوم في السماء، وكأنها أدركت أن الوليمة الكبرى قد اقتربت.

تقدم الفارس المسلم مغيث الرومي من طارق بن زياد، وكان وجهه قد غدا شاحباً تحت وقع الهيبة، وعيناه تائهتان في بحر الدروع الذي لا ينتهي، فقال بصوتٍ متهدج يغلبه الوجل :

"أبا زياد، انظر إلى تلك الجبال المتحركة! إنهم لا يلبسون الحديد فحسب، بل يبدو كأنهم قطعٌ منه. كيف لهذه الأجساد النحيلة التي

أضناها المسير أن تصدّ هذا الطوفان؟ إننا نقابل جيشاً يملك من العتاد ما يجعله يبدو كأنه قدرٌ لا يُرد، ونحن لا نملك إلا سيوفاً رقيقة وجوعاً قديماً للعدل."

أرخی طارق لجام جواده الأدغم، ومسح بنظرته الثاقبة ساحة الميدان، ثم أمال رأسه نحو مغيث وتحدث بنبرة صلبة، تخرج من أعماقه كأنها زئيرٌ بعيد يسكن مغارة صخرية :

"يا مغيث، إنك تنظر بعين الجسد التي تخدعها الأرقام، وتغفل عن عين البصيرة التي تدرك الحقائق. هذا الحديد الذي تراه عظماً، هو في الحقيقة سجنٌ يكبل الروح؛ فالمحارب الذي يثق في درعه، ينسى أن النصر يُصنع في القلب أولاً. هم يلبسون الدنيا ليحتموا من الموت، ونحن نلبس اليقين لنعانق الخلود. رأيت سيفاً انكسر لأنه قابل درعاً؟ لا يا رفيقي، بل ينكسر الدرع حين تضربه يدٌ لا تخشى الفقد. إن القوة التي يملكونها هي قوة 'الامتلاك'، والقوة التي نملكها هي قوة 'الاستغناء'؛ ومن استغنى بالله، تهاوت تحت قدميه عروش الجبابرة وإن كانت من الفولاذ المصفى."

في تلك اللحظة، ارتفع ضجيج معسكر القوط، واختلطت أصوات الأبواق بصياح الجند، فبدت الأرض كأنها تميد تحت وقع سطوتهم. تنهد مغيث تنهيدة عميقة، وشعر ببرودة المعدن في يده، ثم تساءل بلسانٍ يفتش عن بقايا طمأنينة :

"لكن ألا يخشى المرء أن تبتلعه هذه الكثرة؟ إنهم يحيطون بنا كإحاطة السوار بالمعصم، فكيف لقلّة أن تخرق جداراً من البشر لا ثغرة فيه؟"

ابتسم طارق ابتسامة رقيقة، لم تكن تعبيراً عن فرح بل كانت صفاءً فكرياً يتجلى في ساعة الشدة، وأجاب بصوتٍ يملؤه الهدوء الذي يسبق الإعصار :

"يا مغيث، إن الكثرة بلا روح هي مجرد تراكمٍ للعدم. انظر إلى غابة القصب؛ هي كثيرةٌ جداً، لكنها تنحني لذليل الريح لأن قلوبها جوفاء. وانظر إلى النخلة الوحيدة في الصحراء؛ هي فردة، لكنها تضرب بجذورها في أعماق الأرض وتناطح بهامتها السحاب، فلا تكسرهما عواصف السنين. نحن اليوم تلك النخلة، وهم ذلك القصب. إن الذي يميزنا عنهم ليس طول السيوف، بل عمق "المعنى" الذي نقاتل من أجله. هم يقاتلون ليبقى ملكهم الزائل، ونحن نقاتل ليشرق فجرٌ جديد على أمةٍ طال ليلها. وحين يواجه "الهدف" العظيم "المطمع" الحقير، فإن الكفة لا تميل إلا لصاحب الرؤيا."

اشتد وقع طبول الحرب، وبدأ الزحف. استل طارق سيفه، فلمع النصل تحت أشعة الشمس الباهتة كأنه شهابٌ انسل من كبد السماء. وقف أمام جنده، وجلجل صوته كصاعقةٍ تمزق الصمت الجنائزي الذي خيم على الوادي :

"أيها الناس، لقد انفتحت أبواب السماء قبل أبواب الأرض! انظروا إلى هذا الوادي؛ إنه اليوم لا يسجل أسماءكم، بل يسجل مآثركم. لا تنظروا إلى بريق تيجانهم، بل انظروا إلى صداً أرواحهم. اليوم نمحو خطايا الصمت بصراخ الحق، ونثبت للزمان أن القلوب المؤمنة هي التي تصنع التاريخ، لا الذهب المسبوك ولا الحديد المرقوم."

انفجر الميدانُ بصيحات "الله أكبر"، واصطدم الجيشان كارتطام بحرين من نارٍ وبرد. كان صليل السيوف يكتب على صفحة الهواء قصائد الانكسار والانتصار، بينما كان ماء "وادي لكة" يتغير لونه ببطء ليحمل دماء عالمٍ قديمٍ يحتضر. ومع غروب شمس اليوم الثامن، انقشع الغبار عن مشهدٍ هزّ أركان الوجود؛ حيث فرّت بقايا القوط كالخريف أمام ريح الصباية، واختفى "الذريق" ولم يُعثر له إلا على فرسه البيضاء الغارقة في الطين وجدته المرصعة بالياقوت.

كان النصر حليف الإيمان الذي لم يهزه الفولاذ، وأعلن "وادي لكة" سقوط مملكة القوط للأبد وزوال ليل ظلم كبير جثم طويلاً على صدر إيبيريا. لم يكن هذا النصر مجرد كسبٍ عسكري، بل كان زلزالاً حضارياً أعاد رسم خارطة العالم؛ فقد فُتحت الأبواب لثمانية قرون من الضياء .

بعد انقشاع غبار "وادي لكة"، لم تكن الدروبُ الممتدة نحو العمق الأندلسي مجرد طرقاتٍ ترابية، بل كانت خيوطاً من حريرٍ تقود الفاتحين نحو مدنٍ تنام في حضان التاريخ كأميراتٍ غافيات. كانت الشمسُ تميل نحو المغارب حين لاحت مآذن الكنائس العالية وقصور الرخام البارد، فبدت الأرضُ للفاتحين، الذين ألفوا قسوة الفياقي، وكأنها حلمٌ متمرّدٌ على اليقظة.

وصلت الطلائعُ إلى أسوار قرطبة؛ تلك المدينة التي يلفها نهر "الوادي الكبير" كوشاحٍ من فضةٍ ذائبة. وقف القائد مغيث الرومي أمام أسوارها العظيمة، يرقب انكسار الضوء على أحجارها العتيقة، بينما كانت تفوح من خلف الأسوار رائحةُ زهر الليمون الممزوجة بوقار القرون.

ترجل مغيث عن جواده، واقترب من أحد رفاقه، مالك، المعروف بفلسفته العميقة، كان يسمح غبار المعارك عن درعه، وعيناه غارقتان في تفاصيل الأعمدة الرخامية التي تطل من خلف الشرفات، قال مغيث بنبرةٍ يملؤها الدهول :

"يا مالك، انظر إلى هذا البنيان! كأن الحجارة هنا تنطق بلغةٍ لا نفهمها. كيف ليد البشر أن تروض القسوة في الرخام لتجعل منه ستائر من نور؟ أشعر أننا لا نفتح مدينة، بل نفتح خزانةً للأسرار. هل جننا لنغير وجه هذه الأرض، أم أن هذه الأرض هي التي ستغير

أرواحنا بسحرها؟"

تأمل مالك انعكاس القصور في مياه النهر، وأجاب بصوتٍ يملؤه
النضج الفلسفي :

"يا مغيث، الجمالُ ليس عدواً للحق، بل هو أثره في الوجود. نحن
لم نأت لنهدم هذا الرخام، بل جئنا لنسكن فيه "الروح" التي تفتقد لها
أحجاره. انظر إلى هذه القصور؛ هي جسدٌ جميل لكنه كان يسكنه
الظلم، ورسالتنا هي أن نجعل هذا الجمال خادماً للعدل. إن الفتح
الحقيقي ليس في سقوط الأسوار، بل في أن تفتح قلبك لهذا الجمال
دون أن تضيع فيه، وأن تدرك أن الذي خلق هذا الإبداع في الحجر،
ينتظر منك إبداعاً أعظم في بناء الإنسان."

سقطت قرطبة صلحاً، فدخلها المسلمون بوقار العبادة لا بصلف
الغزاة. ومنها، انطلقت الخيول نحو الشمال، نحو طليطلة؛ عاصمة
القوط المنيعية التي تجلس فوق صخرة شاهقة كعقاب يرقب العالم.
كانت المدينة تعتصب بالغموض، وتتدثر بالهوية القديمة، وحين
فُتحت أبوابها لطارق بن زياد، وجد فيها "مائدة سليمان" المرصعة
بالياقوت والذهب، فحبست المشاهد الأنفاس.

وقف طارق في بهو القصر الملكي بطليطلة، يحيط به قاداته وسط
ركامٍ من الكنوز والكتب والمخطوطات، فالتفت إلى أحد الحكماء
المرافقين له، أبا حصين، وتساءل بنبرة يغلفها الزهد رغم بريق
الذهب من حوله :

"يا أبا حصين، انظر إلى كل هذا الذهب.. تيجان ملوكٍ غبروا،
وموائد كانت تضج بالترف والغرور، أين أصحابها اليوم؟ لقد تركوا
الجمال ورحلوا، وبقيت هذه الأشياء يتيمةً تبحث عن معنى."

أجاب أبو حصين وهو يمرر يده فوق غلاف مخطوطٍ قديم، وبصوتٍ
يقطر حكمةً :

"يا أبا زياد، هذه الكنوز ليست إلا "أصناماً" من مادة، إذا لم تُحياها شعلة الفكر. هؤلاء الملوك عبدوا "المُلك" فذهبوا وبقي الأثر شاهداً على فنائهم. أما نحن، فقيمتنا في أننا لا نرى في هذا الذهب إلا وسيلة، وفي هذه الكتب إلا غاية. إن طليطلة اليوم لا تمنحك ذهبها، بل تمنحك "ذاكرتها"؛ فاستلم منها العلم، واترك لها الغرور. الفاتح العظيم هو من يخرج من المدن المترفة وهو أكثر زهداً مما دخلها، لأنه أدرك أن جوهر الفتح هو امتلاك النفس، لا امتلاك القصور."

هزّ طارق رأسه موافقاً، ونظر من نافذة القصر نحو الوديان السحيقة المحيطة بطليطلة، وقال بيقينٍ هزّ جنبات القاعة :

"صدقت.. غداً ستمضي خيولنا، وستبقى هذه المدن شواهد على عبورنا. لن نجعل من هذه القصور سجناً لطموحنا، بل سنجعل منها مناراتٍ للعلم والتوحيد. إننا لم نفتح طليطلة لننام على حريرها، بل لنوقظ العالم من نومه العميق."

كان سقوط العاصمتين، قرطبة وطليطلة، إيذاناً بانتقال السيادة من السيف إلى الفكر، ومن الاضطراب إلى الاستقرار. وبسقوطهما، انهار الهيكل السياسي للقوط تماماً، وأصبحت الأندلس حقيقة واقعة على خارطة التاريخ؛ حيث بدأ المسلمون في غرس بذور حضارة فريدة، تمزج بين إيمان الصحراء وعلوم الرومان وفلسفة اليونان، لتبدأ من هنا رحلة "قرطبة" لتصبح منارة العالم ومحجّ العلماء لقرون طوال.

في ربيع عام **712** ميلادي ، لم يكن البحر الأبيض المتوسط بين الضفتين (المغرب و اسبانيا) مجرد ممرٍ مائي، بل كان جسراً يعبر فوقه "القرار" ليلحق بـ "الفعل". فبينما كان طارق بن زياد يتغلغل بخيوله في أحشاء الأندلس، كان الشيخ الحكيم موسى بن نصير

يراقب الأفق من القيروان بعينين أضناهما السهر وطول النظر في مآلات الأمور. لم يكن موسى يطمح للحاق بالغانمين، بل كان يخشى على "البناء" أن يرتفع دون أساسٍ مكين.

أبحر موسى في جيشٍ يضم كبار التابعين ووجوه العرب، وحين لامست سفينته الشاطئ الأندلسي عند "الجزيرة الخضراء"، لم يسجد شكراً فحسب، بل وقف يطيل النظر في تراب الأرض، كأنه يقرأ في ذراتها مستقبل أمة.

تحرك موسى نحو الشمال، فاتحاً ما استعصى من حصون مثل "قرمونة"، حتى التقى بطارق بن زياد في "طليطلة". كان اللقاء مهيباً؛ حيث اجتمع تحت سماء الأندلس قطبان: طارق بفرط بأسه وحماسته وفتوحاته الخاطفة، وموسى بوقاره التاريخي و حكمته التي اكتسبها من صراع السنين.

ترجل طارق عن جواده إجلالاً لأستاذه، فاستقبله موسى بملامح يمتزج فيها عتاب الأب بفخر القائد، واصطحبه في جولةٍ على ضفاف نهر "تاجه" الذي يطوق طليطلة كخاتمٍ من مرمر. التفت موسى إلى طارق، وكان صوته رزيناً كوقع الجلود من علٍ، ينضح حكمة عقودٍ من التجارب:

"يا طارق، لقد أبعدت النجعة، وأوغلت في بلادٍ لا تعرف غدر شعابها ولا مكر جبالها. أتظن أن الفتح هو أن تسبق خيلك الريح وتتساقط تحت حوافرها الحصون؟ إن الفتح يا بني كالغرس؛ إذا لم تُسكن الجذور في عمق الأرض قبل أن تطلب الثمر، فإن أول ريح عاصفة ستجتث كل ما بنيت. لقد فتحت المدن، لكن هل فتحت لها سُبلاً للعيش؟ هل أمنت لها ظهوراً تحميها؟ إن القائد العظيم ليس من يعرف كيف يفتح الباب، بل من يعرف كيف يسكن الدار ويجعل أهلها يأمنون جانبه."

أطرق طارق رأسه حياءً وتأدباً، ثم رفعه بنظرةٍ تلمع فيها روح

المغامرة الممزوجة بالإيمان، وأجاب بصوتٍ رقيقٍ مفعم بالصدق :
"يا أبا عبد الرحمن، والله ما دفعني للإيغال إلا شوقٌ لرؤية نور
الله يلامس أقاصي هذه الأرض، وخوفٌ من أن تدركني المنية قبل
أن أبلغ نهاية المسير. كنت أرى القلاع تتهافت كأنها ورقُ الخريف،
فشعرت أن الله يفتح لنا الأبواب، فهل كان لي أن أوصد باباً فتحه
الله؟ إنني لم أبحث عن مُلك، بل بحثت عن "أفق" لا يحده إلا العجز."
ابتسم موسى ابتسامةً أبويةً فيها كثير من الحنان و قليل من التحذير،
ثم وضع يده على كتف طارق قائلاً :

"شوقك نبيل، لكن "الدولة" لا تُبنى بالشوق وحده. الدولة هندسةٌ
وعقل، ميزانٌ وعدل. إنك بفعلك هذا جعلت المسلمين كجزيرةٍ وسط
بحرٍ من الأعداء، وواجبي اليوم هو أن أحول هذه الجزيرة إلى قارةٍ
راسخة. الفتح العسكري هو "الشهقة الأولى" في صدر الأمة، والفتح
الإداري والسياسي هو "النفس الطويل" الذي يجعلها تعيش لقرون.
جئتُ لأضع لغرسك سياجاً، ولفتحك نظاماً، ولكي نعلم هؤلاء القوم
أننا لم نأت لنرحل، بل جئنا لنستقر، ونبني، ونورث الأرض لأحفادٍ
يحملون الكتاب والسيف معاً."

تأمل طارق كلمات أستاذه، فأدرك عقبا يقيناً أن "الاندفاع" يحتاج
إلى "رسوخ"، وأن "البطولة" لا تكتمل إلا بـ "الحكمة".

"الآن فهمت يا سيدي.. لقد كنتُ أنا "البرق" الذي كشف الطريق،
لكنك أنت "المطر" الذي سيحيي الموات. فامض لما أراك الله، فإننا
جندٌ في ركاب حكمتك، كما كنا جنداً في ركاب قدرنا."

كان قدوم موسى بن نصير هو اللحظة التي تحول فيها الفتح من
"حملة عسكرية" إلى "مشروع حضاري". بفضلها، استقرت الإدارة،
وُبدئت الدواوين، ووُضعت أسس التعايش مع أهل البلاد. لم يعد
المسلمون مجرد عابرين، بل أصبحوا أصحاب الدار. وبتحاد حكمة

موسى وحماسة طارق، اكتمل الجناحان اللذان طار بهما طائر الأندلس ليحلق في سماء العظمة ثمانية قرون، مؤسساً لدولة لم تكن الأقوى عسكرياً فحسب، بل كانت الأنبل فكراً والأجمل عمرانياً.

بعد أن استقر المقام بموسى وطارق في طليطلة، كان لزاماً على الفاتحين الالتفات نحو الغرب، حيث المدن التي لم تسلم قيادها بسهولة. كانت إشبيلية ترقد على ضفاف الوادي الكبير كعروسٍ من مرمر، تتدثر بأسوارها الرومانية العظيمة، بينما كانت مريدة تمثل التحدي الأكبر؛ فهي المدينة التي بُنيت لتكون عصية على الزمن، بأسوارها الشاهقة التي كأنها نُحتت من جبال الأبدية.

توجه موسى بن نصير نحو مريدة، وحين وقف أمام أسوارها، وجد مدينة لم يرَ مثلها في حياته؛ حصونٌ تتحدى السحاب، ومسارحٌ من حجر، وقنواتٌ مياهٍ معلقة كأنها من صنع العماليق. وقف بجانب ابنه عبد العزيز، الشاب الذي كان يرقب المدينة بعينين يملؤهما التعجب، فقال عبد العزيز بصوتٍ خافت :

"يا أبتِ، أتظن أن من بنى هذه الأسوار كان يخشى البشر؟ إن هذه الحجارة تبدو كأنها صُمت لتبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها. كيف لنا أن نخرق هذا الصمت الصخري بسيوفنا الرقيقة؟"

تأمل موسى الأسوار طويلاً، ثم التفت إلى ابنه بوقار الحكيم الذي يقرأ ما وراء المادة، وأجاب بنبرة هادئة تطغى على صخب المعسكر:

"يا بني، لا تنظر إلى قوة الحجر، بل انظر إلى ضعف الروح التي تختبئ خلفه. كل جدارٍ، مهما علا، له ثغرةٌ لا تراها الأعين، وهي "اليأس" الذي يتسلل إلى المحاصرين مع مرور الأيام. نحن لا نقاتل هذه الحجارة، بل نقاتل "الزمن". الحجرُ يصمد، لكن الإنسان يملّ،

ويخاف، ويجوع. الصبرُ يا عبد العزيز هو السلم الذي نتسلق به هذه الأسوار العالية. إن الذي علّم القوم بناء هذه الحصون، قد نسيهم في جوفها بلا 'رؤية' أو 'إيمان'، ونحن نملك الإيمان الذي يفتت الصخر بمرور الليالي."

استمر الحصار أشهراً، وكان موسى يدير المعركة بـ "فلسفة الأناة"؛ فلا يتعجل الصدام، بل يضيق الخناق برفق. وفي إحدى الليالي، بينما كان القمرُ بدرًا يضيء مسارح مريدة العتيقة، اقترب منه عبد العزيز وتساءل :

"ألا يخشى القائد أن ينفد صبر الجند وهم يراقبون هذه الأسوار الصامتة ليل نهار؟"

ابتسم موسى بحنوّ الأب :

"الجندي الذي ينفد صبره يا بنيّ هو الذي يقاتل من أجل 'النهاية'، أما الجندي الذي يقاتل من أجل 'الواجب' فلا يعرف الملل. نحن هنا لنختبر أنفسنا قبل أن نختبر عدونا. مريدة اليوم هي مدرسة لنا؛ نتعلم أن النصر ليس دائماً خاطفاً كالبرق، بل هو أحياناً بطيءٌ كمنمو الشجر. إن كل يومٍ نقضيه هنا، هو يومٌ ينقص من شموخ كبريائهم ويزيد من رسوخ عزيمتنا. الفتحُ يا بني ليس اقتحاماً، بل هو 'استحقاق'؛ وحين يرى الله منا صدق الصبر، سيفتح لنا الأبواب من حيث لا نحسب."

وبالفعل، لم يمض وقتٌ طويل حتى تآكلت روح المقاومة خلف تلك الحجارة العظيمة، وخرج أهل مريدة يطلبون الصلح، بعد أن أدركوا أن الذين بالخارج يملكون زمناً أطول من جدرانهم. سقطت مريدة، ومن بعدها إشبيلية التي دخلها عبد العزيز بن نصير، ليعلن للعالم أن "الصبر" هو المفتاح السري لكل الأبواب الموصدة.

كان فتح هاتين المدينتين العظيمتين درساً بليغاً في فلسفة الاستيعاب

؛ فلم تُهدم الحصون، ولم تُخرب المسارح، بل سكن المسلمون فيها، وحولوها من معازل للخوف إلى حواضر للعلم والجمال. غرس موسى في إشبيلية بذور الإدارة الرشيدة، وفي مريدة بذور الوفاء بالعهود، لتصبح هذه المدن لاحقاً قلاعاً للحضارة الأندلسية، وشواهد حية على أن "أناة الفاتح" هي التي تضمن بقاء "الفتح".

بعد أن استكانت قلاع الغرب والجنوب لهيبة الفاتحين، اتجهت أنظار موسى وطارق نحو الشمال الشرقي، حيث تتربع سرقسطة كحارسٍ أزلي على ضفاف نهر "إيبرو". كانت الرحلة إلى هناك صعوداً في معارج الجمال والقسوة معاً؛ فكلما أوغلوا شمالاً، ازداد الهواء برودة، وارتدت الأرض حلةً من الغابات الخضراء الكثيفة التي تخبئ خلف ضبابها أسراراً لم يألّفها أبناء الصحراء.

وصل الجيش إلى مشارف سرقسطة، تلك المدينة التي كانت تُسمى "المدينة البيضاء" لبياض رخامها وجدرانها. كانت تبدو تحت شمس الشمال الباهتة كأنها لؤلؤةٌ منثورة وسط بساطٍ من الزمرد. وقف طارق بن زياد على تلةٍ مرتفعة يرقب أسوارها المنيعة، وبجانبه رفيقه الدائم منذ الإبحار تيم، الذي غدا الآن فارساً صهرته التجارب، فنظر إلى الأفق الممتد خلف المدينة حيث تلوح جبال "البرانس" الشاهقة، وقال بصوتٍ يملؤه الارتياح:

"يا سيدي.. انظر إلى تلك الجبال البعيدة، إنها تبدو كأنها تلمس السماء. لقد ابتعدنا عن بيوتنا حتى ضاعت منا ملامح الطريق. هل لشهوة الفتح نهاية؟ أم أننا سنظل نلاحق الأفق حتى يبتلعنا الغيب؟ أشعر أن سرقسطة ليست مجرد مدينة، بل هي بوابة لعالمٍ لا نعرف لغته ولا نأمن مكره.".

أدار طارق وجهه نحو الأفق، تاركاً للريح أن تعبت بلحيته التي

غزاها الشيب، وأجاب بصوتٍ ينساب كموج اليم :

"يا تيم، الفتح ليس شهوةً لامتلاك الأرض، بل هو نداءٌ لاستنطاق المجهول. نحن لا نلاحق الأفق لنصل إلى نهايته، بل لنكتشف أن الله لا يحده مكان. سرقسطةُ اليوم هي اختبارٌ لمدى اتساع أرواحنا؛ فهل تضيق بنا الأرض لأننا ابتعدنا عن رمالنا؟ إن المؤمن كالريح، لا يستقر في وادٍ إلا ليمر بغيره، ورسالتنا هي أن نزرع 'كلمة الله' في كل تربة تمنحنا جذورها. هذه الجبال التي ترهب سكونك، هي في الحقيقة شواهدٌ عظيمةٌ تدعونا لتتجاوز حدودنا البشرية الضيقة."

اقترب موسى بن نصير بجلال شيبته، وسمع طرفاً من حوارهما، فتدخل بصوته الرزين الذي يحمل ثقل السنين وحكمة القادة :

"صدقت يا طارق، ولكن تذكر يا بني أن كل اندفاع يحتاج إلى 'ثغر' يأوي إليه. سرقسطةٌ لن تكون مجرد مدينةٍ نفتحها ونمضي، بل ستكون 'الثغر الأعلى'؛ الحصن الذي يحمي ظهر الأندلس. إن قيمة هذه المدينة ليست في رخامها الأبيض، بل في موقعها الذي يصافح ريح الشمال. هنا سنعلم القوم أن إسلامنا ليس حبيس الجغرافيا، بل هو فكرٌ ينمو تحت كل سماء. إن فتح سرقسطة هو إعلانٌ بأننا لم نعد عابرين، بل صرنا جزءاً من تضاريس هذا العالم الجديد."

تساءل تيم بلهجةٍ تفتش عن المعنى الفلسفي لهذا الامتداد :

"وماذا لو قست علينا هذه الأرض ببردها وجبالها؟"

أجاب موسى وهو يغرس رمحه في التربة الخصبة :

"الأرضُ يا بني تطيع من يحبها. إذا غرسنا فيها العدل، أطعمتنا من ثمرها ودفأتنا بحب أهلها. نحن لا نفتح سرقسطة بالسيوف وحدها ، بل بتقديم نموذجٍ للحياة يجعل هؤلاء القوم يفتحون لنا قلوبهم قبل أبوابهم. انظر إلى نهر 'إيبرو'؛ إنه يجري منذ الأزل، لا يسأل عن

لون من يشرب منه، بل يمنح حياته للجميع. هكذا يجب أن يكون عدلكم في هذه البلاد النائية."

سرعان ما سقطت سرقسطة و لحقت بأخواتها . دخلها الفاتحون، فاستحالت كنيستها الكبرى مسجداً يرفع فيه الأذان لأول مرة في تلك البقاع القاصية. وافتحها، صار للمسلمين موطناً قدم راسخ في الشمال الشرقي، وأصبحت المدينة قاعدةً عسكرية وثقافية انطلقت منها لاحقاً طلائع العلم نحو أوروبا. لم يكن سقوط سرقسطة مجرد انتصارٍ عسكري، بل كانت "نقطة تحول" فلسفية؛ حيث أدرك المسلمون أنهم صاروا جيران النجوم في تلك المرتفعات، وأن رسالتهم باتت تطل على قارة أوروبا بأكملها من شرفات "المدينة البيضاء".

لم تكن جبال "البرانس" (البيرينيه) مجرد حواجز صخرية ترتفع في وجه المسلمين، بل كانت "جداراً من الهيبة" يفصل بين عالمين وزمانين. حين بلغت خيول موسى وطارق تلك المرتفعات الشاهقة، استحال العالم تحت أقدامهم إلى لوحةٍ من الغمام والضباب، وصار الهواء نضلاً بارداً يجرح الرئة ويوقظ في النفس رهبة الوقوف على مشارف المجهول.

وقف طارق بن زياد فوق قمة صخرية تطل على الوديان السحيقة لفرنسا (بلاد الغال)، وكان يلف برودة حول جسده النحيل ليتقي ريحاً عاتية تصفر بين الشقوق. اقترب منه الفارس مغيث الرومي، وهو يلهث من أثر الصعود، ونظر إلى المنحدرات التي تضيق في غياهب الغابات الكثيفة وراء الجبال، وقال بنبرةٍ يمتزج فيها الانبهار بالخوف :

"أيها القائد .. أين نحن من الأرض؟ لقد سعدنا حتى ظننتُ أننا

سنصافح النجوم، ونظرنا خلفنا فإذا بالأندلس كلها قد توارت خلف هذا الضباب الكثيف. هل هذه هي نهاية الدنيا التي وعدنا بها الخيال؟ أم أن خلف هذه القمم غولاً ينتظر أن يبتلع خيولنا؟ أشعر أننا صرنا أغراباً حتى عن أنفسنا، فما وراء هذه الجبال لا يشبه شيئاً مما عرفناه في مكة أو القيروان."

أطال طارق النظر نحو الشمال، وكأن عينيه تخترقان حجب الغيب، ثم أجاب بصوتٍ هادئٍ كسر حدة الريح :

"يا مغيث، نحن لا نقف على نهاية الدنيا، بل نقاف على حافة 'الرؤيا'. هذه الجبال ليست عائقاً وضعه الله ليردنا، بل هي مرآة لنرى فيها حجم طموحنا. إن الغربة يا رفيقي ليست في البعد عن الديار، بل في ضيق النفس عن احتمال المعاني الكبرى. نحن هنا لنثبت أن 'الكلمة' التي انطلقت من بطحاء مكة، قادرة على أن تتنفس فوق هذه القمم الثلجية. إن خلف هذه الجبال شعوباً لم تسمع قط عن عدل السماء، فهل تظن أن الله قادنا إلى هنا لنقف و نصافح الغيم ، أم لنخبر أولئك عن عدل الإله و رحمته؟"

في تلك اللحظة، وصل الشيخ موسى بن نصير يمتطي جواده بهمة تتحدى وعورة الدرب، ووقف بينهما ينظر إلى الأفق المفتوح :

"يا طارق، طموحك يناطح السحاب، ولكن تذكر أن لكل بناءٍ 'سقفاً' ولكل بحرٍ 'شاطئاً'. إن الوقوف هنا هو درسٌ في 'فلسفة الحدود'. نحن فتحنا الأرض، ولكن الأهم هو أن نثبت فيها. القائد الحكيم هو من يعرف متى يسرع، والأهم من ذلك، من يعرف متى يقف. إن الاندفاع وراء هذه الجبال قد يكون انتحاراً إذا لم تكن ظهورنا محمية وقلوب أهل الأندلس معنا. إننا لا نريد أن نكون عاصفة تمر وتترك خلفها الخراب، بل نريد أن نكون شمساً تشرق ببطء لتدفي هذه البلاد الباردة."

تساءل مغيث وهو يشير إلى الوديان الفرنسية :

"أيعني هذا أننا سنكتفي بهذا القدر ونعود؟ ألا تشتاق لفتح روما والقسطنطينية من هذا الطريق؟"

أجابه موسى بنظرة فلسفية ثاقبة :

"الشوق لا يبني دولاً يا مغيث، بل البصيرة هي التي تبنيها. إن جبال البرانس اليوم هي "الحد الفاصل" بين الفتح العسكري والاستقرار الحضاري. إذا تجاوزنا هذه الجبال دون أن نمكن لديننا في قرطبة وإشبيلية، فسنكون كمن يبني قصراً على شاطئ من الرمال لتهدمه أصغر موجة. الفتح الحقيقي هو أن نجعل من هذه الجبال حارساً للأندلس، لا منفذاً لضياعنا. علينا أن نعود لنبني الإنسان، ونعلم الجاهل، ونقيم العدل، حتى إذا ما نظر أهل الغال إلينا من وراء هذه القمم، تمنوا لو كنا بينهم عدلاً ورحمة."

أوما طارق برأسه، بالفعل أن عظمة القائد تكمن في قدرته على لجم شهوة الانتصار لصالح بقاء الفكرة :

"صدقت يا أبا عبد الرحمن .. إن الوقوف على حافة الغيمة علمني أن السماء واسعة، ولكن الأرض تحتاج إلى جذور. سنعود لنغرس الجذور، ولتظل هذه الجبال شاهداً على أننا بلغنا قمة العالم، ولم يغونا بريق العلو عن واجب البناء."

كان الوقوف على جبال البرانس هو "الحظة التنوير" الكبرى في عصر الفتح؛ حيث تلاقت طاقة الاندفاع بحكمة التوقف. وبدلاً من المغامرة في مجهولٍ قد يبتلع الدولة الناشئة، قرر القادة العودة لتمكين البناء الداخلي. كانت هذه الجبال هي "النقطة" التي وُضعت في نهاية جملة الفتح الأولى، لتبدأ بعدها جملة "الحضارة" التي جعلت من الأندلس معجزة الزمان

بينما كانت رايات النصر تخفق فوق مآذن قرطبة وطليلة، وبينما كان الرخام يزهو بنقوش الضياء في الجنوب، كان هناك ثقبٌ أسود صغير يتشكل في أقاصي الشمال الغربي، حيث جبال "أستورياس" الوعرة التي لا تصافح إلا الغيم ولا تمنح سرها إلا للوعول. هناك، في مغارةٍ سحيقة تُدعى "كوفادونجا" أو "مغارة السيدة"، انزوت حفنةٌ من الهاربين القوط بقيادة رجلٍ يُدعى "بلايو". لم يكونوا جيشاً، بل كانوا بقايا انكسار، ثلاثين رجلاً ينهشهم الجوع والبرد، لكن يغذيهم حقدٌ قديم وعنادٌ يضاهي صلابة الصخر الذي يأوون إليه.

وصلت أخبار هذه "العصابة" إلى أسماع القادة المسلمين في سرقسطة، فاستهانوا بها استهانة من يرى ذبابةً تحوم حول جبل. أرسلت حملةٌ صغيرة بقيادة القائد علقمة، ومعه يُليان (الذي صار عيناً للمسلمين)، ليحسموا أمر هؤلاء "العلوج" كما كانوا يصفونهم.

وقف علقمة عند مدخل الوادي الضيق المؤدي إلى المغارة، حيث تتراكم الصخور كأنها أسنانٌ عملاقٍ غاضب. وهنا اقترب منه يُليان، وقد رسمت السنون على وجهه أخاديد من الريبة، انطلقت نبرة صوته تحمل تحذيراً خفياً، بينما كانت عيناه تلاحقان حركة الأغصان المريبة فوق المرتفعات :

"أيها القائد، لا تنظر إلى قلة عددهم، بل انظر إلى ضيق هذا المكان وقسوة هذه الجبال. هؤلاء الرجال لا يملكون أرضاً ليهربوا إليها، ولا ملكاً ليخسروه؛ لقد صاروا جزءاً من هذا الصخر. إن الجريح إذا حُشر في زاوية، صارت أنيابه أمضى من السيوف. أنا أعرف 'بلايو'.. إنه ليس محارباً عادياً، إنه 'فكرة' بدأت تتجسد في صورة رجل، والفكرة لا تموت بالنبال."

أطلق علقمة ضحكةً ساخرة مزقت سكون الوادي، وأشار بسيفه نحو الفتحة المظلمة للمغارة وهو يردد بكبرياءٍ مفرط :

"يا يُليان، أراك قد خدّرتك قصص العجائز! ثلاثون علجاً يأكلون

عسل النحل البري وينامون في الطين، أتهمهم فكرة؟ إنهم مجرد بقايا حطام خلفته العاصفة، وسنكنسهم اليوم كما نكنس الغبار عن عتبات بيوتنا. ما عسى أن يفعل هؤلاء أمام جيشٍ دانت له القارة؟ إننا هنا لنغلق صفحةً تافهة في كتاب الفتح، وليس لنخوض حرباً." هزَّ يُليان رأسه بأسى، وغرس نظراته في سواد المغارة وهو يتمتم بصوتٍ خفيض يملؤه الحذر:

"الريحُ العظيمة تبدأ بهبة نسيمٍ لا تبالي بها الأشجار، والحريقُ الهائل تنضجه شرارةٌ يستصغرها الرعاة. إن بقاء هؤلاء أحياءً في هذه المغارة يعني أن "الأندلس" ستظل تملك عدواً يتربص بها من فوق. السيادةُ يا علقمة لا تكتمل وفي الثوب خرقٌ واحد، وإن صغر."

بدأ الهجوم، فانهمرت الصخور والنبال من فوهة المغارة كأن الجبل نفسه هو من يقاتل. كان المكان ضيقاً لا يتسع لكرٍّ ولا فرٍّ، واستحال الوادي إلى فخٍ من حجر. قتل الكثير من الجند المسلمين، وانسحب الباقون تاركين "بلايو" في معقله.

في تلك الليلة، فوق رابيةٍ تطل على مسار المعركة، وقف الشيخ الحكيم أبا بصير، أحد زهاد الفاتحين الذين كانوا يقرأون التاريخ بعين القلب. تطلع بأسى إلى قمم أستورياس الباردة، وتحدث إلى جندي شاب كان يسخر من "العلوج" الثلاثين، فجاءت كلماته تقطر حزناً وفلسفة:

"يا بني، لا تضحك.. فإن التاريخ لا يغفر الغرور. هؤلاء الثلاثون الذين استصغرتموهم اليوم، هم "البذرة المنسية" التي سُقيت بدم الإهمال. إن كل عظمةٍ تُبنى على الاستهانة بالصغير، تحمل في طياتها بذور فنائها. هل تدري ماذا تعني كوفادونجا؟ إنها تعني أننا تركنا لخصمنا "مكاناً" ليحلم فيه، ومن يملك مكاناً للحلم ويأساً من

الحياة، يملك مستقبلاً لا تقدرّون عليه."

رفع الجندي الشاب حاجبيه باستغراب، ونظر إلى القائد المنسحب ثم إلى الشيخ متسائلاً بلهجة تفتش عن المنطق :

"يا شيخنا، إنهم ثلاثون رجلاً فقط! كيف لثلاثين أن يغلّبوا أمةً تملك المشرق والمغرب؟"

ابتسم أبا بصير ابتسامةً مريرة، وأشار إلى بذرةٍ صغيرة بين أصابعه، ثم أجاب بيقينٍ هزّ وجدان الشاب :

"انظر إلى هذه البذرة.. إنها أصغر من ظفرك، لكنها إذا وجدت شقاً في صخرةٍ وأهملتها، نبتت وشقت الصخر نصفين بمرور السنين. هؤلاء الثلاثون سيتناسلون في ظلام الكهوف، وسيورثون أبناءهم "نشيد الثأر". اليوم أهملتموهم لأنكم انشغلتم بذهب قرطبة وحرير إشبيلية، وغداً.. نعم غداً، سيخرج أحفاد هؤلاء من هذه المغارة ليعيدوا الأرض شبراً بشبر، لأننا نمنا حين كان يجب أن نسهر، واستكبرنا حين كان يجب أن نتواضع. كوفادونجا ليست معركة خسرتها، بل هي "جرح" لم نضمده، وسينزف منا صديداً لثمانية قرون."

كانت كلمات أبا بصير نبوءةً فلسفية جارحة. فمن تلك المغارة الصغيرة، ومن أولئك الرجال الثلاثين الذين استصغروهم المسلمون، ولدت "مملكة أستورياس"، التي كانت النواة الأولى لما عُرف بـ "حركة الاسترداد". كانت كوفادونجا هي "النقطة السوداء" في ثوب الأندلس الأبيض، تذكر العالم بأن العظمة لا تسقط بالضربات القاضية، بل تتآكل بالإهمال والاستهانة بالخصم "الصغير".

لم تكن شمسُ الأندلس في ذلك الصباح دافئةً كعادتها، بل بدت باهتةً خلف غلالةٍ من الغبار الذي أثارته سنايك الخيل المتأهبة للرحيل. جاء الأمر من دمشق، من قلب الخلافة الأموية، يحمل خاتم الخليفة الوليد بن عبد الملك : "أقبلا إلينا". كلماتٌ قليلة، لكنها كانت كافية لتَهز أركان اللحم الذي بناه موسى بن نصير وطارق بن زياد. لم يكن رحيلاً عادياً، بل كان "اقتلاعاً" للجذور قبل أن تشتد في التربة.

وقف موسى بن نصير في باحة القصر بطليطلة، يحيط به قاداته الذين صهرتهم المعارك، وكان يمسك برسالة الخليفة بيدٍ مرتجفة ليس من الكبر، بل من إدراك ما ينتظر هذا "الوطن اليتيم" بعد غيابهما. اقترب منه طارق بن زياد، وكان وجهه يفيض بحزنٍ صامت، ونظراته معلقةً على جدران المدينة التي افتتحها بصبره.

تحدث موسى بنبرةٍ رخيمة يغلفها وقارٌ من أدرك أن دوره في مسرح هذا التاريخ قد أوشك على الانتهاء، وهو يطوي الرسالة ببطء:

"يا طارق، لقد دُعينا إلى المركز بعد أن ذبنا في الأطراف. الخليفة يخشى عظمة ما صنعنا، ولا يدرك أن العظمة الحقيقية هي أن نترك هذا الغرس لينمو بعيداً عن أيدينا. نحن نرحل اليوم يا بني، ونترك خلفنا قلوباً تعلقت بنا، وأرضاً لا تزال تتعلم كيف تنطق بحروفنا. هل تخشى ما ينتظرنا في دمشق؟"

أشاح طارق بوجهه نحو الشمال، حيث جبال البرانس التي لم تنزل ذكراها عالقة في مخيلته، وأجاب بصوتٍ هادئ ينساب كالنبع الحزين:

"يا أبا عبد الرحمن، لا أخشى على نفسي من حساب البشر، فقد بعثت نفسي لله منذ وضعت قدمي على الصخرة. لكني أخشى على هذه الأندلس؛ إنها طفلةٌ جميلة تركناها في مهب الريح قبل أن نتعلم المشي. الرحيل الآن ليس مجرد سفر، إنه 'يُتَم' حضاري. إن القائد الذي يبني مدينة ثم يُنتزع منها قبل أن يرى ثمار عدله، كمن يكتب

قصيدةً ويموت قبل أن يقرأها للناس. هل سيحفظ من سيأتي بعدنا هذا العهد؟ أم سيعاملون هذه الأرض كغنيمةٍ لا كرسالة؟"

تنهد موسى تنهيدةً طويلة، ومسح بيده على مقبض سيفه الذي رافقه من أفريقيا إلى مشارف فرنسا، ثم قال بلهجةٍ فلسفية تفيض بالحكمة المرة:

"يا طارق، التاريخ لا يملكه الأشخاص، بل تملكه 'الفكرة'. نحن قمنا بدورنا، و زرنا البذور، وعلى غيرنا أن يقطف الثمر. إن بقاءنا قد يتحول بمرور الوقت إلى فتنة، والغياب أحياناً يكون أعظم أثراً من الحضور. نحن نرحل لنكون 'أسطورة'، والأسطورة أقوى من القائد الحي؛ فهي تلهم الأجيال ولا تشيخ. اترك للأندلسيين ذكرانا، ودعهم يبنون دولتهم بدمائهم، فما بُني بجهد القادة وحده يزول بذهابهم، وما بُني بوعي الشعوب يبقى للأبد."

ساد الصمتُ بينهما، وكان صوتُ الريح التي تصفّر في ممرات القصر تبدو وكأنها نعيٌّ مبكر لجيل الفاتحين العظام. اقترب منهما مغيث الرومي، كان يغالب دموعه، وتساءل بمرارة :

"سيدي.. هل هي النهاية؟ هل ستضيع كل هذه التضحيات في دهاليز السياسة والمحاسبة؟"

التفت إليه موسى بنظرةٍ تشع بالسكينة المطلقة، وأجاب بصوتٍ رزين يخترق جدار الحزن:

"يا مغيث، لا توجد نهاية في منطق الإيمان، بل هي 'محطات'. نحن فتحنا الأبواب، ومهمتكم هي ألا تسمحوا لأحدٍ بإغلاقها. دمشقُ تنادينا لنتراح في ظلها، أو لنواجه قدرنا في أروقتها، أما الأندلس.. فقد صارت في ذمة التاريخ. لا تندبوا رحيلنا، بل خافوا من رحيل 'العدل' من قلوبكم. إذا بقي العدل، فكأننا ما رحلنا قط."

امتطى القائدان صهوتي جواديهما، وانطلقت القافلة الطويلة تحمل كنوز الأندلس وتيجان ملوكها، لكنها كانت تحمل أيضاً "غصة" لا تداويها الانتصارات. غادر موسى وطارق الأندلس، ولم يعودا إليها أبداً. انتهت رحلتها في دهاليز الخلافة، بين عتابٍ وعقاب، وماتا في صمتٍ بعيداً عن الأرض التي وهباها حياتهما.

كان رحيل القادة هو "الخاتمة الحزينة" لعصر الفتح الذهبي؛ حيث تعلمت الأندلس في ذلك اليوم معنى "الغربة". وبغياهما، انتهت أسطورة الفرد، وبدأ كفاح الأمة لتصنع مصيرها بعيداً عن هيبة الرواد. رحل الصقور، لكنهم تركوا وراءهم سماءً شاسعة، وأرضاً لن تنسى أبداً أن أول من سقاها بماء اليقين كانوا رجالاً لم تكن الدنيا في أعينهم إلا "قنطرة" عبور نحو الخلود.

عصر الولاية

.. الأندلس

716 ميلادي

بعد أن غادر الصقور (موسى وطارق) سماء الأندلس، بقيت البلاد كجسدٍ يبحث عن قلبٍ ينبض بالاستقرار. كانت "طليطلة" شامخةً لكنها مثقلةٌ بإرث القوط وغبار المعارك، فبرزت قرطبة كنجمة هادئة على ضفاف "الوادي الكبير"، تفتح ذراعيها لتكون المستقر والمستودع. لم يكن قرار اتخاذها عاصمةً مجرد انتقالٍ إداري، بل كان فلسفةً لبناء "الوطن" بدلاً من "المعسكر".

في صباحٍ شتويٍّ رقيق، وقف الوالي الحر بن عبد الرحمن الثقفي على ضفة النهر، يرقب انسياب الماء الذي يداعب أحجار الجسر الروماني العتيق. كان يحمل في يده خريطةً لقرطبة، وفي عينيه بريقٌ من يبصر مدينةً ستعلم العالم لاحقاً كيف يقرأ ويكتب. اقترب منه القاضي إسماعيل، وكان شيخاً وقوراً خبير طباع الناس، فدار بينهما حوارٌ استشرى مستقبل هذه الأرض.

تحدث الحر بن عبد الرحمن بنبرةٍ يملؤها الهدوء الرزين، وهو يشير بيده نحو أحياء قرطبة التي بدأت تنبض بالحياة :

"يا أبا إسحاق، لقد اخترت قرطبة لتكون نبض الأندلس. طليطلة جبلٌ من صخر، وإشبيلية غابةٌ من أشجار، أما قرطبة.. فهي انسيابٌ كالماء. إن الدولة التي تبتغي البقاء تحتاج إلى 'سكينة' العواصم لا إلى 'صخب' الحصون. هنا سنبنى الدواوين، ونقيم موازين العدل، ونحول هؤلاء الفرسان من غزاةٍ يطاردون الأفق إلى مواطنين يغرسون الجمال في التربة. هل ترى أن هذا النهر سيحمل أحلامنا يوماً ما إلى ما وراء البحار؟"

تأمل القاضي إسماعيل جريان نهر الوادي الكبير، ومسح لحيته البيضاء وهو يجيب بصوتٍ يقطر حكمةً وفلسفةً :

"يا أيها الوالي، إن العاصمة ليست قصوراً تُبنى، بل هي "أمان" يُبذل. إذا استقرت الإدارة في قرطبة، استقر اليقين في قلوب الرعية. لكن احذر.. فالعواصم المترفة قد تقتل في الجند روح الوثوب التي حملتهم إلى هنا. إن التحدي الحقيقي ليس في اتخاذ قرطبة عاصمة، بل في جعلها منارةً لا تطفئها ريح الفتن. الجندي الذي يسكن الدور الرخامية قد ينسى ملمس السرج، والوالي الذي ينشغل بجمع الخراج قد ينسى إقامة الحق. فاجعل من قرطبة قلباً للعدل، لا مخزناً للذهب."

ابتسم الحر بن عبد الرحمن ابتسامةً رقيقة تشوبها مسحةٌ من التأمل، وردّ قائلاً :

"لقد أصبت كبد الحقيقة. لذا، لن أجعل قرطبة مجرد مركزٍ للجباية، بل سأجعلها مركزاً للبداية. هنا ستمتزج دماء العرب بالأمازيغ بأهل البلاد الأصليين، وفي هذا المزيج ستقوم حضارةٌ لا تشبه غيرها. إن استقرار الإدارة هنا هو إعلانٌ للعالم بأننا لم نعد عابرين؛ نحن هنا لنبقى، ولنجعل من هذا الوادي نهراً للحضارة يروي عطش التاريخ."

كان اتخاذ قرطبة عاصمةً للأندلس عام **716** هو "الوتد الأول" الذي دُق في خيمة الاستقرار الأندلسي. بفضل هذا القرار، بدأت الأندلس تتحول من ولايةٍ عسكرية قلقة إلى كيانٍ سياسي له ملامح وصوت. لم تعد قرطبة مجرد مدينة، بل صارت "فلسفة بناء"، حيث بدأ المسلمون يعلمون الناس أن الفتح الحقيقي يبدأ حين يضع المحارب سيفه ليحمل المحراث أو القلم، وحين تصبح العاصمة مكاناً لا يجتمع فيه الجند فحسب، بل يجتمع فيه العقل والتدبير.

وقف الحر بن عبد الرحمن الثقفي في بهو قصره بقرطبة، يرقبُ القادم الجديد بنظرةٍ يمتزج فيها الارتياح بالتوجس. كان الحرُّ هو من اختار "قرطبة" ليرسخ فيها أركان الإدارة، لكنه كان يشعر أن دوره قد انتهى عند "بناء الدار"، وأن الأرض تحتاج الآن لمن "يفتح الأبواب".

استقبل الحرُّ السمح بن مالك الخولاني، ودار بينهما حوارٌ في ليلةٍ مقمرة على ضفاف نهر الوادي الكبير، يمثل "التسليم والاستلام" لروح الأندلس:

"يا أبا مالك، لقد استلمتُ هذه البلاد وهي غابةٌ من الفوضى، وأسلمك إياها اليوم وهي 'دولة' لها عاصمةٌ ودواوين. لقد حفرتُ الجذور في قرطبة لتأمن أنت في زحفك نحو الشمال. إنني كنتُ 'المؤسس' الذي يخشى على البناء من السقوط، وأنت اليوم 'المكمل' الذي سيطير بهذا البناء إلى آفاقٍ لم أدركها. اذهب بجندك، فقرطبة خلفك حصنٌ حصين، لا يقلقك فيها جوعٌ ولا فتنة."

تأمل السمح بن مالك وجه الحر الذي حفرت فيه سنوات الإدارة أخاديد من الهم، وأجاب بنبرةٍ تفيض بالتقدير الرفيع:

"يا أبا عبد الرحمن، لا يدرك قيمة 'الجذور' إلا من يطلب 'الثمار'. لولا استقرارك في قرطبة، ولولا عدلك الذي سكنت به النفوس، لما استطعتُ أنا اليوم أن أنظر إلى جبال البرانس بقلبٍ مطمئن. أنت الذي جعلت للأندلس 'ظهراً' يحميها، وأنا سأكون 'يدها' التي تمتد لتعيد صياغة أحلام طارق وموسى. إن التاريخ قد يذكر الفاتحين أكثر من الإداريين، لكن العارفين يدركون أن سيفي لا يضرب إلا بفضل قلمك الذي نظم هذه الدار."

أغمض الحر عينيه مستسلماً لسكينة الرحيل، وردّ بكلمة فلسفية بليغة:

"يا سمح، نحن في الأندلس كبناء الجدار؛ كلُّ منا يضع حجراً ويمضي. أنا وضعتُ 'حجر الأساس' في قرطبة، وأنت ستضع 'حجر

القمة" في تولوز. لا يهم من يُذكر اسمه، المهم أن يرتفع البناء ولا يميل."

كانت العلاقة بينهما هي "فلسفة التكامل الحضاري"؛ فالجندي (السمح) لم يكن ليمضي قدماً لولا أمان الإداري (الحر). وبانصراف الحر إلى المشرق وتقدم السمع إلى الغال في ذات العام، دخلت الأندلس مرحلة الانتقال من "تثبيت الوجود" إلى "التوسع الوجودي"، لتكتمل الدورة التي بدأت بالفتح وانتهت بالدولة.

ففي عام **719** ميلادية، لم تكن جبال "البرانس" في عين السمع بن مالك الخولاني مجرد عائقٍ صخري أصم، بل كانت حجاباً رقيقاً يفصل بين زمنين. كانت القممُ تتشح بوشاحٍ من الضباب الأزرق الداكن، كأنها حراسٌ من مرمرٍ يرقبون زحف التاريخ بصمتٍ مهيب. كانت خيول المسلمين تطأ عشباً مخملي الخضرة، يندى بطلٌ بارد لم يألفه أبناء الهجير، بينما كانت غابات الشمال تلتف حول الدروب كأذرعٍ خضراء تحاول حبس الأنفاس في صدور الفاتحين.

كان السمع بن مالك فارساً يفيض وجهه بوقارٍ موروث، ملامحه كانت تشبه الحجر الصوان في صلابتها، وعيناه تشعان بنورٍ هادئٍ كقنديلٍ وسط عاصفة. كان يرتدي لامته التي صقلتها رمال القيروان، ويحمل فوق كتفه بردةً يمانية تطايرت أطرافها مع ريح الشمال الباردة. وبجانبه، كان يمشي رفيق دروب القتال خالد، الذي غاصت قدماه في الطين الرطب، فبدا وجهه متعباً، يعلوه غبارٌ مسافاتٍ لم تنته.

توقف السمع عند منحدرٍ يطل على الوديان الفرنسية الشاسعة، وتنفس بعمقٍ كأنه يستنشق عبقاً تركه طارق بن زياد في الهواء قبل

سنوات، ثم تحدث بنبرةٍ يملؤها الشجن والوفاء:

"يا خالد، هل تشعر بروح طارق وموسى تحوم فوق هذه القمم؟ لقد وقفنا هنا قبل أعوام، وكانت خيولهم تنهياً لقرع أبواب "روما"، لولا

أن نداء القدر أعادهم إلى دمشق ليتركوا القصيدة بلا قافية. أنا اليوم لا أقود جيشاً للغزو، بل أحمل "أمانة" تركها أولئك العظماء معلقة في ذمة التاريخ. إن فتح بلاد الغال ليس رغبة في التوسع، بل هو استكمالاً للحلم الموهود؛ نحن اليد التي ستمتد لتصل ما انقطع من حبل النور."

مسح خالد قطرات الندى عن لحيته الكثيفة، ثم التفت نحو الوالي بنظرة فلسفية قلقة، وهو يشير إلى الغابات الكثيفة التي تكتنف طريقهم بصمتٍ مخيف:

"يا أبا مالك، إن هذه البلاد تبتلع الضوء والخيول معاً. انظر إلى هذه الأشجار الشاهقة؛ كأنها جدرانٌ تحاصرنا قبل أن نصل إلى الأسوار. نحن نتوغل في 'رحم المجهول'، والمسافة بيننا وبين دفء قرطبة تزداد ثقلاً. أتخشى أن نكون قد أوغلنا في الحلم حتى فقدنا ملامح الحقيقة؟ إن الفتح يا سيدي يحتاج إلى أرضٍ صلبة، وهذه الأرضُ من تحتنا تميد بالطين، ومن فوقنا تميد بالشك."

ابتسم السمح ابتسامةً رقيقة، لم تكن سوى إشراقة روحٍ استعذبت العناء في سبيل الغاية، وأجاب بنبرةٍ تخرق صخب الرياح:

"يا خالد، إن الذي يخشى البلل لن يعبر النهر، والذي يخشى الضباب لن يبصر الشمس. نحن اليوم "بذرة" ألقاها اليقين في هذا الشمال البارد، فإن نبتت، صار للعالم وجهٌ آخر، وإن فنيت، كانت دماً يروي طريق من سيأتي بعدنا. إنني لا أرى في "تولوز" أسواراً من حجر، بل أراها المحطة التي كان طارق يحلم بالوقوف عليها. الوفاء يا رفيقي هو أن نتمّ ما بدأه الأوائل، حتى لو كان الثمن أن ندفن تحت هذا الثلج؛ فالمهم أن تمضي الفكرة، ولو تعثرت الأجساد."

امتطى السمح جواده الأشهب، وهزّ رمحه في وجه الأفق الرمادي، فانطلقت الخيول تمزق صمت الغابات، وكأن صهيلها كان الرعد

الذي يعلن بعث الطموح من جديد. كانت تلك اللحظة هي "الشهقة الثانية" في صدر الأندلس؛ حيث تعانقت حكمة السماح مع أطياف القادة الأوائل، ليعلن للزمان أن الفتح رسالة لا تقبل التوقف عند حدود الجبال.

للأسف لم تهب رياح المعركة كما تشتهي سفن المسلمين ، فقد سقط السمحُ بن مالك الخولاني عن جواده، ليرتطم جسده بطين مدينة "تولوز" الفرنسية الباردة، فكان سقوطه كوقع صاعقةٍ خرَّت لها جبالُ البرانس. لم يكن الدّمُ القرمزيّ الذي سال من صدره مجردَ نضوبِ حياة، بل كان استنزافاً لحلمٍ عظيم كاد أن يغير وجه القارة. وبمجرد أن ترجّل الموتُ فوق جسد الوالي، انفرط عقدُ الجيش كعقدٍ من لؤلؤٍ انقطع خيطُه في ظلام ليلٍ عاصف.

تولى القائد **عبد الرحمن الغافقي** جمعَ شتات الجند المذعورين تحت جناح ليلٍ بهيم، حيث كانت أدخنة المعركة تمتزج بضباب الأودية الفرنسية لتصنع مشهداً جنائزياً مهيباً. انسحب المسلمون بوقارِ الحزين، تاركين خلفهم أسوار "تولوز" التي استعصت عليهم، وجثة واليهم التي غدت منارةً صامتة في قلب بلاد الغال.

كانت نتائجُ هذه المعركة في عام **721** بمثابة "الزلازل الصامتة"؛ فمن الناحية العسكرية، كانت أولَ هزيمةٍ كبرى تكسُر أسطورة "الجيش الذي لا يُقهر"، وأوقفت الزحفَ الإسلاميَّ الصاعدَ نحو الشمال لمدةٍ عقدٍ كامل. أما من الناحية الفلسفية، فقد كانت "تولوز" الدرسَ القاسي الذي أخبر المسلمين بأنّ جبال البرانس ليست مجردَ جغرافيا، بل هي حدودٌ لإمكانيات البشر إذا ما تمددت أكثر مما تحتملُ خطوطُ الإمداد.

وقف الغافقي على قمةٍ جبلية تطل على الأندلس، ونظر إلى جراحات جنده التي تضمّدها ريحُ الشمال، وتمتم بكلماتٍ حفرها التاريخ:

"لقد دفعنا اليوم ثمنَ الوفاء لحلم طارق وموسى، لكننا كسبنا درساً من دم. تولوز لم تكن نهاية الطريق، بل هي "الوقفة" التي نحتاجها لنراجع نياتنا وصبرنا. لقد رحل السمحُ وبقيت لنا الراية، واليوم نعودُ لنبني من الرمادِ عزماً جديداً، فالموجُ الذي انكسر على الصخر اليوم، سيعودُ يوماً ليغسل وجه القارة، طالما أن في القلوب شوقاً للأفق."

عادت فلولُ الجيش إلى قرطبة، لتبدأ الأندلسُ مرحلةً من المراجعة العميقة، حيث أدرك الجميع أن "الفتح" لا ينتهي بفتح المدن، بل بالقدرة على الصمود في وجه التحولات. وبقي قبرُ السمح بن مالك في "تولوز" يمثل الثغرَ الأبعد، والذكرى التي ستظلُّ تطاردُ خيال القادة حتى يحينَ موعدُ اللقاءِ الكبير في معركة أكبر و في ذات المكان و الميدان .

في عام **730** ميلادية، كانت الأندلسُ تشبهُ بحراً هائجاً خذلته شواطئه؛ فالفتنُ القبليةُ قد نخرت عظامَ الولاية، والسيوفُ التي كانت تُشرعُ لفتحِ الحصون، انثنت لتصفي حساباتٍ عتيقة بين "مضر" و"يمن". في هذا المشهدِ الضبابي، انبثق عبد الرحمن الغافقي كشهابٍ يمزق ليل الشتات؛ رجلٌ يفوح منه عبقُ التابعين، ويسكن في عينيه وقارُ الصحابة. كان الغافقي مربوع القامة، مشدودَ العصب كقوسٍ يمانية، بوجهٍ لفحته شمسُ المعارك حتى غدا كلون النحاس العتيق، ولحيةٍ بدأ شبيهاً يغزو سوادها كأنها الفجرُ يطرد فلول الليل.

لم يكن الغافقي في نظر الجند مجرد والٍ، بل كان "بقيةً" من ذلك الرعيل الذي لا يرى في الدنيا إلا "قنطرة" إلى حياة الخلود الآخرة. وقف في باحة القصر بقرطبة، يراقبُ الجند وهم يتفاخرون بأنسابهم تحت وهج الشمس الصيفية التي جعلت الرخام يلعب كالمرايا، وبجانبه

مساعده سعد، الذي كان يلحظ الضيق الكامن خلف صمت الوالي المهيب.

تحدث الغافقي بنبرة عميقة تشبه حفيف الريح في الوديان الصخرية، وهو يشير بيده نحو الرايات الملونة التي تمثل العصابات القبائلية :

"يا سعد، انظر إلى هذه الرايات؛ إنها تتعدّد لتخفي تحت ألوانها وحدة القلوب التي أضعناها. لقد غرس طارق وموسى شجرة عظيمة، فجننا نحن لنقتل على ثمارها وننسى جذورها. إن الأندلس اليوم ليست في حاجة إلى فاتح جديد، بل إلى 'جامع' يدرك أن قوة السيف في وحدة المقبض. كيف لنا أن نعبّر الجبال مرة أخرى نحو الشمال ونحن نحمل في صدورنا أثقال الجاهلية التي جاء الإسلام ليمحوها؟"

مسح سعد عرق الجبين، ونظر إلى الوالي بتقديرٍ يمتزج بالرهبة، متأملاً ملامح الغافقي التي كانت تنطق بالزهد والصرامة في آن واحد، ثم قال:

"يا أبا سعيد، لقد أصاب الناس داءٌ 'الاستقرار' المسموم؛ سكنوا الدور، وعشقوا الظلال، ونسوا أننا هنا لنكون 'نوراً' يمشي على الأرض. إنك تحاول أن تصهر الحديد البارد بكلماتك، فهل ستطيعك هذه القلوب التي أفسدها الترف والمال؟"

أجاب الغافقي بابتسامة هادئة، فيها من الشجن ما يفوق الكلمات، وهو يمرر يده على غلاف مصحفه المعلق بخصره :

"يا سعد، الحديدُ يلينُ بنار الغاية العظمى. سأخرج بهم إلى أرض المعركة في الشمال، ليس طلباً للملك، بل طاعةً لذلك النداء القديم الذي أطلقه السمح قبل عشر سنوات. هناك، في برد الشمال، ستذوب العصابات أمام حرارة الجهاد، وسيدرك اليماني والقيسي أن التراب الذي سيواريهم واحد، وأن الإله الذي يستنصرونه واحد.

إنني أعدّهم ليومٍ لا ينفع فيه إلا الصدق، فإن نجحنا في فتح أنفسنا هنا، فتح الله لنا أبواب "الفرنجة" هناك."

تحرك الغافقي في أرجاء الأندلس، لا يهدأ له بال؛ يطوف بالثغور، يصلح بين المتخاصمين، ويهدم جدران الحقد بكلماتٍ تقطر حكمةً وتواضعاً. كان في مجلسه كأحدهم، يفتش الأرض، ويأكل من طعام الجند، فاستعادوا به ذكرى "الخلفاء الراشدين"، وصاروا يرون فيه "الروح" التي افتقدوها منذ رحيل الأوائل.

كان عبد الرحمن الغافقي يُعيد صياغة الأندلس من "شظايا" إلى "كتلة"، ومن "معسكرات" متنافرة إلى "أمة" تنهياً لعناق القدر. وفي عينيه، لم يكن الطريق إلى فرنسا مرسوماً بالخيول والجند فقط، بل كان مرسوماً بـ "النوايا" التي عكف على تطهيرها بصبر الأنبياء وعزم الفاتحين. وهكذا، استعدت الأندلس تحت قيادته لليوم الذي سيهزّ وجه العالم، اليوم الذي ستلتقي فيه أرواح الشهداء في "بلاط" لم يُبنَ من حجر، بل من أجسادٍ باعت أنفسها لله.

في تشرين الأول من عام **732** ميلادية، كان السهل الممتد بين مدينتي "تور" و"بواتيه" يبدو كساحةٍ أعدّها القدر لتصفية حسابات القرون. كانت الأرض هناك مخملية، غارقة في رطوبة الخريف الفرنسي الشرس، تفوح منها رائحة الأعشاب البرية الممزوجة برداً مطرٍ خفيف لا ينقطع. في الشمال، كانت غابات السنديان الكثيفة تلتفّ كحراسٍ من الأساطير، يخفي ضبابها الكثيف جيش "شارل مارتيل"؛ ذلك الطود البشري الصامت الذي وقف كجدارٍ من الفولاذ لا يعرف التراجع.

وقف عبد الرحمن الغافقي فوق تلةٍ جرداء، يراقب الميدان بعينين قلقهما يفوق يقينهما. كان يرتدي لامته النحاسية التي عكست ضوءاً

شمسٍ شاحبة، وبردته اليمينية مبللة بالندى، وجواده الأدهم ينفثُ بخاراً أبيضَ من منخريه كأنه بركانٌ يتأهبُ للانفجار. وبجانبه، كان القائد عقبة يمسحُ نصلَ سيفه الذي لم يذقَ طعمَ الغمد منذ أيام، وعيناه مسمرتان على "الكتلة" الفرنجية الصامته في الأفق.

تحدث الغافقي وصوته يخرجُ مخنوقاً بزفرةٍ فلسفية عميقة، وهو يرقبُ الغنائم الهائلة التي كانت تثقلُ مؤخرة جيشه وتثيرُ في نفوسِ الجندِ التوجس:

"يا عقبة، انظر إلى هذا البلاطِ العظيم؛ إنه اليوم ليس مجردَ ميدانٍ للحرب، بل هو ميزانٌ للنوايا. أرى في وجوه الفرنجة صمتاً كصمتِ الصخور، وأرى في جيشي همساً كهمسِ الريح حول الغنائم. هل جننا لنجعل من هذا الثلجِ وطناً، أم أن بريقَ الذهبِ في المؤخرة صار أعلى علينا من بياضِ الفجرِ في المقدمة؟ إنني أخشى من تلك الأثقالِ التي نحملها؛ فالمحاربُ الذي يلتفتُ خلفه ليطمئن على غنيمته، يسرقُ الميدانُ من تحت قدميه."

تأمل عقبة الحشودَ الفرنجية التي كانت تصطفُ في تشكيلاتٍ مربعةٍ متراسة، تشبهُ حصوناً بشريةً من الدروع الخشبية والمناجل الحادة، وأجاب بنبرةٍ يملؤها الحذر:

"يا أبا سعيد، إن الميدانَ هنا لا يسمحُ لخيولنا بالوثوب. الأرضُ لزجةٌ كالعجين، والغابةُ تحمي ظهورهم. إننا نواجهُ بشراً كأنهم نبتوا من هذا الطين؛ غلاظَ الأجسام، طوالَ القامات، لا يعرفون المناورة بل الصمودَ كأشجارِ السنديان. والأسوأ من ذلك يا سيدي، أن الجندَ - كما قلت - بدأوا يتوجسون من الالتفافِ على "أرزاقهم" التي تركوها في الخيام. إن القلبَ إذا انقسمَ بين السيفِ والذهب، انكسر السيفُ وذهب الذهب."

أطبق الغافقي جفنيه لحظة، وكأنه يستحضرُ أرواحَ السمح وطارق، ثم فتحهما على بريقِ نصلِ استلّه وهو يقول:

"إذاً، ليكن الموتُ اليوم هو المهرَ الذي ندفعه للخلود. اليوم لا نسب إلا للثبات، ولا غنيمة إلا الشهادة. انظر إلى هذا السهل؛ سيُسمى للأبد 'بلاط الشهداء'، لأن دماءنا ستبسط الطريق لمن سيأتي بعدنا، ليدركوا أن الاندفاع بلا روح هو جسد بلا حياة."

اندلعت المعركة كزلزالٍ حطمَ سكونَ القارة. كان صدامُ الخيل بصدور المشاة الفرنجة كارتطامِ الموج بالصخر الصوان. السيوف العربية الرقيقة كانت تتكسر فوق الدروع الغليظة، وصيحاتُ "الله أكبر" كانت تصارعُ زئيرَ الفرنجة الغاضب. استمر القتال أياماً، والدمُ القرمزيُّ يصبغُ طينَ الميدان، حتى كانت اللحظة الفاصلة؛ حين سرت إشاعةٌ في صفوف المسلمين أن الغنائم في الخلف قد هُجم عليها.

اهتزت الصفوفُ، والتفتت القلوبُ للخلف، فتمزقَ عقدُ الوحدة. انطلق الغافقي بجواده وسط المعمعة، يضربُ يميناً وشمالاً بصيحاتٍ تمزقُ نياطَ القلوب، محاولاً لَمَ الشتات، حتى أصابه سهمٌ غادرٌ سكن في حنجرته، فسقط عن جواده، ليرتطمَ رأسه ببلاط الأرض البارد.

بسقوطِ الغافقي، انطفأ السراجُ الأخير. تراجع المسلمون تحت جناح الليل، تاركين وراءهم جسد واليهم العظيم وخيامهم بما فيها من ترفٍ صار حسرة. وقف عقبة على مشارف الجبال، ينظر إلى الميدان الذي غطته جثثُ الأبرار وهو يتمتمُ بمرارة :

"رحلت يا أبا سعيد، ورحل معك حلمُ الوثبة الكبرى. اليوم سجدت الأندلسُ باكياً، لأنها علمت أن الطريقَ إلى 'روما' قد سدّه الغرورُ وحبُّ الفناء. لقد تركنا في هذا البلاط خيرةَ رجالنا، وتركنا معهم مفاتيحَ القارة التي كانت ترتجفُ بين أيدينا."

كانت "بلاط الشهداء" هي النقطة التي توقف عندها المدُّ الإسلاميُّ في أوروبا للأبد. لم تكن مجرد هزيمة عسكرية، بل كانت "صفعة"

فلسفيةً أيقظت المسلمين على حقيقة أن الإيمان لا يُنصرُ بالسيوفِ إذا فسدتِ النوايا. وبانتهاءِ هذا اليوم، عادت الأندلسُ خلفَ جبال "البرانس" لتتكفى على جراحها، وتترك لـ "شارل مارتيل" أن يلقب بـ "المطرقة" التي حطمت أحلامَ الشرق في السيطرة على الغرب.

في عام **740** ميلادية، لم تكن الرياح القادمة من جبال "الأطلس" في المغرب تحمل برداً عادياً، بل كانت تحمل زفراتِ غضبٍ مكتوم انطلقت كالحمم لتصبّ في أودية الأندلس. كانت الجبالُ الشاهقة، بقممها التي تشبه تيجان العماليق، تكتسي بلونٍ أرجواني عند الغسق، وكأن الصخر نفسه يستعد للنزيف. في هذه القفار الوعرة، حيث تسكن الرياحُ الشقوق، استيقظ "البربر" (الأمازيغ) على شعورٍ مر بالدونية؛ فهم مادة الفتح، وسنابك خيولهم هي التي وطأت الصخر بادئ ذي بدء مع طارق بن زياد الأمازيغي، لكنهم وجدوا أنفسهم في تقسيم الغنائم والأرض كأنهم "غرباء" في دارِ بنوها بدمائهم.

اندلعت الثورة في المغرب أولاً، ثم عبرت البحر لتشتعل في شمال الأندلس وشرقها. تحول الأمازيغ من حراسٍ للتغور إلى براكين ثائرة، يقودهم ميسرة المدغري الذي نُصب خليفةً في المغرب، بينما في الأندلس، كانت الوجوه التي ألفها الجند في خنادق القتال قد استحالت إلى وجوهٍ غريبة يملؤها النار.

وقف القائد العربي كلثوم بن عياض، الذي أرسلته دمشق لإخماد الحريق، على مشارف معركة "نهر سبي" بالمغرب، وكان ينظر إلى جموع البربر بنظرةٍ يملؤها الاستعلاء الأموي المفرط. كان كلثوم شيخاً نجدياً، تلبس ملامحه جلف الصحراء، وتفوح من ثيابه رائحة الخيلاء التي لم تدرك أن الزمن قد تغير. وبجانبه، كان ابن أخيه بلج بن بشر، الشاب الذي كان يفتل شاربيه بزهوٍ وهو يرقب الحشود

البربرية المتجمعة في الأفق كأنها قطع من صخر الجبل.

تحدث كلثوم بصوتٍ يملؤه الاحتقار، وهو يشير بيده نحو خيام البربر البسيطة :

"يا بلج، انظر إلى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أندادٌ لفرسان الشام! لقد أطمعهم حلمنا، وظنوا أن مشاركتهم في الفتح تعطيهم حقاً في السيادة. إن الأرض لمن غلب، ونحن أسيادُ العرب والمشرق، فما عسى أن تفعل هذه الرعاع أمام سيوفنا الصقيلة؟"

رد بلج بن بشر بضحكةٍ خالية من الحكمة، وعيناه تلمعان ببريق الحديد :

"يا عماه، هؤلاء ليسوا إلا عبيداً تمردوا، وسنعيدهم إلى حظيرة الطاعة بسيطانا قبل سيوفنا. الأرضُ للأمرء، والتبعية للعوام، ومن ظن غير ذلك فقد ضل سعيه."

لكن في الضفة الأخرى، وسط خيام البربر التي تفوح منها رائحة الصوف والزعتر، كان القائد البربري خالد بن حميد يقف حافي القدمين على الصخر، وجسده النحيل يبدو كأنه قطعة من تضاريس الجبل. وجهه كان كتاباً من المعاناة، وعيناه تتقدان بنارٍ لا تطفئها إلا المساواة. التفت إلى رجاله وقال بصوتٍ هادئٍ كصمت ما قبل العاصفة :

"أيها الأحرار.. نحن لم نعبر البحر لنكون خدماً لقصور قرطبة أو دمشق. نحن الذين فتحنا الأندلس بصدورنا، والآن يُريدون سلبنا حتى كرامتنا. إن الذي جعلنا متساوين في الصلاة، أرادنا متساوين في الحياة. اليوم، سيشهد نهر 'سبي' أن الجبال لا تتحني للريح، وأن الحق لا يُهزم بجاهلية الأنساب."

انفجر الميدانُ بصيحاتٍ بربرية زلزلت الأودية. كان صداماً عرقياً دمويّاً، تلاشت فيه لغة الدين أمام لغة الدم. هُزم جيش دمشق، وقُتل

كلثوم بن عياض، وفرّ بلج بن بشر بفلوله نحو الأندلس ليحتمي بأسوارها، حاملاً معه فتيل حربٍ أهلية ستحرق الأخضر واليابس.

كانت نتائج ثورة البربر كارثية؛ فقد انفرط عقد السلم الاجتماعي، وخلت الثغور الشمالية من حراسها الذين انشغلوا بالقتال الداخلي، مما سمح لممالك الشمال النصرانية أن تتنفس الصعداء وتتوسع في الأراضي المتروكة. كانت الثورة "صرخةً فلسفية" موجهة؛ أخبرت الأندلس أن الدولة التي لا تقوم على العدل بين مكوناتها، ستأكل نفسها من الداخل قبل أن يأكلها العدو.

تراجع الأمان، وسادت شريعة الغاب بين "العرب" و"البربر"، وتحولت المزارع إلى ساحات للثأر، لتبدأ الأندلس أظلم عصورها؛ عصر الشقاق الذي لم ينته إلا بقدم رجلٍ غريب، سيعبر البحر وحيداً ليصهر هذه الشظايا في بوتقةٍ واحدة.

في عام **741** ميلادية، بدت شواطئ الأندلس كأنها تستعدُّ لاستقبال قضاءٍ جديد؛ فالموج الذي كان يحملُ الفاتحين يوماً، صار يحملُ اليومَ فلولاً مكسورةً من جيشٍ دمشق خسرت معركتها ضد الأمازيغ. وصل بلج بن بشر مع بضعة آلافٍ من "الجند الشامي" إلى ميناء "سبتة"، وقد أكل منهم الجوعُ والذلُّ كلَّ مأكَل، فبدت وجوههم كأنها قد نُحنت من صخورٍ "قاسيون" القاسية، وعيونهم تلمعُ ببريقٍ غريب، يمزجُ بين الانكسارِ والشهوةِ المكبوتةِ لاستعادةِ المجدِ المفقود.

كانت ثيابهم الحريريةُ الممزقة، وأسلحتهم الدمشقيةُ التي علاها الصدا، تحكي قصةَ جيشٍ سقطَ من علياءِ السيادةِ إلى قاعِ الحاجة. حين سمح لهم والي الأندلسُ بالعبورِ لصدِّ ثورة البربر فيها بعد فشلهم في صدها في المغرب، لم يكن يدركُ أنه يفتحُ البابَ لـ "عاصفةٍ" لن ترحل. دخل الشاميون الأندلسَ بخيولهم النحيلة، لكن بخيلاءٍ من يرى في نفسه "صاحبَ الدارِ الأصلي" لا الضيفَ الطارئ.

وقف بلج بن بشر في وسط المعسكر، وهو يفتلُ شاربِيهِ اللذين اشتعل فيهما الشيبُ قبل الأوان، وكان ينظرُ إلى مزارعِ قرطبةِ الخضراءِ نظرةً من يرى حقاً مغتصباً. وبجانبه، كان أبو الخطار، وهو أحدُ قادة "الأندلسيين" (العرب الذين استقروا قديماً)، ينظرُ

بوجلٍ إلى هؤلاء القادمين الذين لا يحملون في قلوبهم حنيناً للأرض، بل حنيناً للسلطة.

تحدث بلج وصوته يخرجُ خشناً كوقعِ الحوافرِ على الصخر، وهو يشيرُ إلى قصورِ قرطبةِ :

"يا أبا الخطار، انظر إلى هذا النعيم الذي غرق فيه أصحابكم! لقد ورثتم هذه الأرض بفضلِ سيوفِ بني أمية، ثم نسيتمونا في المشرقِ نواجهُ المنون. نحن الجندُ الذين فتحنا الآفاق، واليوم جئنا لنأخذُ نصيبنا من هذا الثمر الذي لم نذقه. الأندلسُ اليوم تحتاجُ إلى 'قبضةٍ شاميةٍ' تعيدُ الأمورَ إلى نصابها، فما عاد للينِ والمهادنةِ مكانٌ بيننا."

تأمل أبو الخطار ملامحَ بلج التي غزاها الجفاءُ الدمشقي، وأجاب بنبرةٍ يملؤها القلقُ الوجودي :

"يا بلج، نحن لم نرث هذه الأرض لنستبدَّ بها، بل لنعمرها بالعدل. لقد غرسنا جذورنا هنا وصار لنا أبناءٌ وزرع، وهؤلاء الناسُ الذين تسميهم 'أتباعاً' هم إخواننا في الفتح. إنكم جئتم بـ 'عقليةِ الغزو' إلى أرضٍ استقرت، وبـ 'رائحةِ الدم' إلى دارٍ سكنتها السكينة. أخشى أنكم لن تبنوا دولةً، بل ستبنون 'ثكنةً' كبيرة، وسينقلبُ الأخُ على أخيه حين يتزاحمون على رقعةِ الأرض."

ردَّ بلج بابتسامةٍ باردة، وهو يضع يده على مقبضِ سيفه :

"العدلُ يا أبا الخطار يصنعه السيف، والسكينةُ لا تكون إلا تحت ظلالِ السيوف. نحن الشاميينُ مادةُ الخلافة، والأرضُ لمن يحميها

لا لمن يحرثها. غداً، حين تخذُ ثورة البربر بسيوفنا، سيعلم الجميع أن دمشق قد انتقلت إلى هنا، بجيشها وقسوتها وكبريائها."

وبالفعل، لم يمضِ وقتٌ طويل حتى سحق الجندُ الشاميُّ ثورة البربر في الأندلس بقسوةٍ متناهية، لكنهم بدلاً من العودة إلى ثكناتهم، انقلبوا على والي الأندلس وقتلوه، واستولى بلج بن بشر على الحكم. تحولت الأندلسُ إلى "إقطاعاتٍ عسكرية"؛ فاستقر جندُ دمشق في "البيرة"، وجندُ حمص في "إشبيلية"، وجندُ الأردن في "ريّة".

كان وصولُ الجندِ الشاميِّ هو "الزلزال الديموغرافي" الذي غير وجه الأندلس؛ فقد انتقلت معهم عداواتُ القبائل الشامية القديمة، وصار لكلِّ قبيلةٍ "وطنٌ" صغير داخل الوطن الكبير. كانت هذه المرحلة هي "فلسفةُ الغربية في الوطن"؛ حيث صار الأندلسيُّ القديم يرى في الشاميِّ غازياً، والشاميُّ يرى في الأندلسيِّ عاجزاً، لتغرق البلادُ في صراع دمويٍّ بين "القديم" و"الجديد"، صراعٍ لم يترك للعدل مكاناً، ولا للأمان سبيلاً.

في عام **745** ميلادية، كانت الأندلسُ تشبهُ ثوباً قشيباً مزقته أيدٍ طائشة؛ فلم يعد العدوُّ خلفَ الجبال هو مصدر الخطر، بل صار الأُخُ يتربصُ بأخيه عند مطلع كل فجر. انتقلت "عدوى الصحراء" القديمة إلى مروج قرطبة الخضراء، واستيقظت فتنة "قيسٍ ويمن" من مرقدها، لتصنف الناس ليس بفضلهم، بل بماء عروقهم. كانت القرى والمدنُ تنقسمُ بحدّةٍ كالسكين؛ فهنا "يمانيُّ" يفتخر بملك أجداده في حمير، وهناك "قيسيُّ" يزهو بفروسية نجد وعز دمشق.

وسط هذا الحريق، برز الصراعُ بين الصميل بن حاتم، زعيم القيسية وداهيتها الذي كان يملك وجهاً كالصخر المنحوت وعينين يخرج منهما بريقُ المكر والشدة، وبين أبي الخطار الحسام بن ضرار، والي

الأندلس اليماني الذي كان يحاول أن يمسك بزمام أمةٍ تنفلت من بين أصابعه.

وقف الصميل في معسكره بقرطبة، يحيط به فرسان "قيس" الذين غطت وجوههم لثام القسوة، وكان يقلبُ جمرًا على الأرض بصله الطويل، ونظراته تخرق الدخان المتصاعد. اقترب منه أحد القادة، وهو يرى حشود اليمانية تتجمع على الضفة الأخرى من النهر، فقال بنبرة يملؤها الحذر:

"يا أبا الجوشن، الأرضُ لا تحتملُ هذا الشقاق؛ إننا نأكل أنفسنا والعدوُّ يرقبنا من الشمال. هل تستحقُ السيادةُ أن نحرقَ من أجلها الفردوس الذي فتحناه بدمائنا؟"

التفت الصميل ببطء، وحرك الجمر بنصل سيفه حتى انبعث منه شرارٌ أحمر، ثم أجاب بصوتٍ جاف كريح الصموم:

"يا هذا، السيادةُ لا تُقتسم؛ إما لنا وإما لهم. الأندلسُ اليوم صارت ضيقةً لا تتسعُ لرايتين. اليمانيةُ يظنون أن سبقهم للفتح يعطيهم حق الوصاية علينا، ونحن جننا بحديد دمشق لنعلمهم أن الأرض لمن غلب. الفلسفةُ في هذا الميدان لا تُكتب بالحبر، بل بدمٍ من يركع أولاً. إننا لا نقاتل من أجل بقعة أرض، بل من أجل "الأنا" التي لن تنحني لغيرها. إذا انكسرت قيسُ اليوم، فُقدت العزة من هذا الشمال للأبد."

وعلى الجانب الآخر، كان أبو الخطار يجلس في فسطاطه، والهَمْ يكسو ملامحه الوقورة. التفت إلى حكيمة ابن عمار، وتساءل بمرارة تفيض بالفلسفة والشجن:

"يا ابن عمار، انظر إلى هؤلاء الرجال؛ بالأمس كانوا يقرأون القرآن في خندقٍ واحد تحت أسوار 'ظليظة'، واليوم يتساءلون عن أنساب الجدود ليقتل بعضهم بعضاً. هل الفتحُ كان لعنةً علينا؟ هل أغرتنا الدنيا حتى نسينا أننا غرباء في هذه الأرض؟"

أجاب ابن عمار وهو يتأمل ذبول شمعة في ركن الخيمة، بصوتٍ
يقطر حكمةً حزينة :

"يا أيها الأمير، إننا لم ننهزم أمام الخصم، بل انهزمنا أمام "الذاكرة".
لقد جئنا بالأندلس إلى الإسلام، لكننا لم نخرج "الجاهلية" من
صدورنا. السيوف التي في أيديهم هي سيوف الفتح، لكن القلوب
التي تحركها هي قلوب يوم "ذي قار" و"داحس والغبراء". المصيبةُ
يا سيدي أننا بنينا المدن ونخرب الأنفس؛ فالعدل الذي بشرنا به
أهل هذه البلاد، صرنا نحن أول من يحرم أنفسنا منه. غداً، حين
تسيل الدماء في "شقنذة"، لن ينتصر قيسي ولا يمانيّ، بل سينتصر
"الضياع" الذي سيفتح ثغرةً في جدراننا لن تُسد لقرون."

اشتبكت الخيولُ في "موقعة شقنذة" الشهيرة عام **747**، وسالت
الدماء في أزقة قرطبة وضواحيها. كانت المعركة "انتحاراً جماعياً"؛
حيث تساقط الفرسان الذين كان يُرجى منهم فتح روما، تحت سيوف
إخوانهم من أجل "كلمة" أو "نسب". انتهى اليوم والأندلسُ جثةً
هامدة، والفتنةُ تشتعل كالنار في الهشيم، والناسُ يترقبون من يخلصهم
من هذا التيه الذي لم يترك داراً إلا ودخلها الحزن.

كان الصراعُ القيسي واليمني هو "الخريف المر" لعصر الولاة؛ حيث
سقطت أوراق الوحدة، وتعرت أغصان الدولة. بمرور الأيام، أدرك
العقلاء أن السفينة تغرق، وأن النجاة لا تكون إلا بـ "غريب" يقطع
البحر، لا يحمل نسباً لقبيلة، بل يحمل هبة الخلافة وروح البناء.

في عام **750** ميلادية، هبت من أقصى المشرق ريحٌ سوداءٌ لا تُبقي ولا تذر؛ فقد تهاوت أعمدة البيت الأموي في دمشق تحت ضربات العباسيين، واصطبغ نهر "الزاب" بدماء بني مروان. كانت الأندلس، تلك الابنة البعيدة التي تتدثر بضباب أوربا، ترقب الخبرَ بذهولٍ يشبهُ ذهولَ اليتيم الذي أُخبر بموت أبيه وهو في بلادِ الغربية. لم تكن دمشق مجردَ عاصمةٍ تجبى إليها الأموال، بل كانت "القبلة السياسية" والروح التي تمنح الأندلسَ شرعيةَ الوجود.

في قرطبة، حيث كانت القصورُ الأموية الصغيرة تحاولُ محاكاةَ عظمة الشام، وقف الوالي يوسف الفهري، وبجانبه داهية العرب الصميل بن حاتم. كان الخبرُ قد وصل لتوه مع سفينةٍ مجهولة، فخيم الصمتُ على الردهات حتى سُمع أنينُ الريح في الممرات الرخامية.

تحدث يوسف الفهري بنبرةٍ يملؤها الارتباكُ الوجودي، وهو ينظرُ إلى خاتم الولاية الذي يحمل اسم الخليفة المقتول:

"يا أبا الجوشن، لقد سقطتِ الدارُ الكبرى، وذبح بنو أمية في ملاعب صباهم. دمشقُ التي كانت تمدنا بالنور، صارت اليوم مائماً، والعباسيون يطاردون كل من يمتُّ لهذا البيت بصلة. لمن نتبع اليوم؟ ومن يمنحنا الحق في حكم هذه الأرض والبيت الذي ننتسب إليه قد تقوضت أركانه؟ أشعر أن الأندلس قد صارت سفينةً في عرض البحر، انقطع شراعها وغاب عنها قبطانها."

أشاح الصميل بوجهه نحو الأفق، وكانت ملامحة القاسية تبدو في تلك اللحظة كأنها نُحتت من حجرٍ لا يلين، وأجاب بصوتٍ جافٍ يقطرُ براغماتيةً وفلسفةً مريرة:

"يا مولاي، التاريخ لا يعرفُ البكاء على الأطلال. سقطت دمشق لأنها شاخت، والعباسيون أخذوا بالسيوف ما تركه بنو أمية بالتهاون. الأندلسُ اليوم لم تعد 'ولاية'، بل صارت 'تركة'. انقطاعُ الحبل بالخلافة يعني أننا صرنا أحراراً في قدرنا، وعبيداً لسيوفنا.

لا تنتظر من بغداد أن تلتفت إليك، فهم مشغولون بدم من ذبحوا.
اليوم، الأندلسُ لمن غلب، والشرعيةُ هي نصلُ السيف الذي تحمله
في يدك. لقد صرنا جزيرةً معزولة، فإما أن نبني فيها مُلكاً
يخصنا، وإما أن تأكلنا الذئبُ التي تتربص بنا من الداخل."

تهد يوسف الفهري، ونظر إلى السماء الرمادية التي كانت تنهياً
للمطر متسائلاً بحزن:

"ولكن كيف نعيش بلا جذور؟ الأندلسُ قامت على فكرة 'الوصل'
بالمشرق، فكيف نكون اليوم 'قطعاً' منسية؟ أخشى أن يتجرأ علينا
الصغيرُ والكبير حين يعلمون أن لا ظهير لنا خلف البحر."

ردَّ الصميل وهو يغرسُ خنجره في الطاولة الخشبية أمامهم بقوة:

"الجذورُ يا يوسف نصنعها بدمائنا هنا. إذا أردت أن يحترمك العالم،
فاجعل من قرطبة دمشقاً جديدة. نحن اليوم في 'عصر الاستقلال
القسري'؛ فلم يعد لنا ملجأ إلا أنفسنا. الفتنُ التي كانت تأتينا من
صراعات المركز قد توقفت بموته، فلنصنع من هذا اليتيم قوة.
الأرضُ لمن وطأها بصدق، والأندلسُ عروسٌ بلا عريس، فمن كان
أصلبَ عوداً، كانت له."

كان سقوط الدولة الأموية في المشرق هو "الفصل الختامي" لعصر
الولاية؛ فبزوال المركز، تحولت الأندلسُ إلى ساحةٍ للفوضى المطلقة
حيث لا شرعية لأحد. صار يوسف الفهري والصيلم يحكمان كأنهما
ملكان بلا تاج، والقبائلُ تتطاحنُ على ما تبقى من فضلات السلطة.

لكن خلف هذا الظلام، وبينما كان العباسيون يفتشون عن آخر أبناء
أمية ليقتلوهم، كان هناك شابٌ في العشرين من عمره، يختبئ في
أحراش الفرات، عيناه تلمعانُ بذكاءٍ يفوق الوصف، وقلبه ينبضُ
بطموحٍ سيعبر به القفار والبحار، ليصل إلى هذه الجزيرة اليتيمة

ويعيد لها هيبتها الضائعة.

عصر

الدولة الأموية

في عام **750** ميلادية، كانت شواطئ نهر الفرات ترتعد تحت وطأة السواد العباسي، وكان النهر العظيم يجري كخيوط من عقيق كدر، يغسل جراح بني أمية الذين تفرقوا في الآفاق كأوراق الخريف. في تلك البراري الموحشة، حيث يختلط حفيف القصب بزفير الخوف، كان هناك شاب في العشرين من ربيعته، نحيل الجسد كرمح دمشقي، ملامحه مسبوكة من إباء أموي قديم؛ عيناه صقريتان تلمعان بذكاء يسبق سنواته، وشعره ينسدل فوق منكبيه كشلال ليلٍ ثائر. هو عبد الرحمن بن معاوية، الفتى الذي فرّ من القصور ليحتضن الفقار، حاملاً في قلبه "فكرة" لا تقبلُ الفناء.

كان عبد الرحمن يختبئ مع أخيه الصغير "يحيى" في قرية نائية، حين ارتفع غبارُ خيول العباسيين في الأفق كأنه سحبُ جرادٍ أسود. فرّ الأخوان نحو النهر، والقلبُ يرجفُ لا من الخوف بل من جلالِ القدر. وقف عبد الرحمن على ضفة الفرات، يرقب الماء الهائج، وبجانبه أخوه الذي كان يرتعدُ كعصفورٍ بلله المطر.

تحدث عبد الرحمن بنبرة يملؤها الحزنُ الممزوجُ بالعزم الصخري، وهو يشدُّ على يد أخيه :

"يا يحيى، انظر إلى هذا النهر؛ إنه اليوم صراطنا نحو الحياة أو معبرنا نحو الخلود. لا تنظر إلى السواد خلفك، بل انظر إلى الأفق أمامك. نحن أبناء الملوك، والملوك لا يموتون في مخادعهم إذا ما دهمهم القدر، بل يموتون وهم يطلبون العلاء. اسبح معي، ولا تلتفت لوعودهم الكاذبة بالأمان، فالغدرُ ثوبهم، والدمُ شرابهم."

ارتدى الأخوان في لجة الماء البارد. كانت الأمواج تتلاطم حول جسد عبد الرحمن النحيل، وكأن النهر يختبرُ صلابة هذا الصقر الشاب. وحين بلغ منتصف النهر، سمع نداء العباسيين من الضفة التي غادرها، يعدونهم بالأمان إن هم عادوا. ضعف "يحيى" تحت وطأة التعب والخوف، فالتفت راجعاً رغم صرخات أخيه. وقف عبد

الرحمن على الضفة الأخرى، يقطر ماءً ودماءً، وشاهد السيف الأسود يطيحُ برأس أخيه الوحيد.

هناك، في تلك اللحظة المأساوية، ولدت شخصية "الداخل". وقف وحيداً، يلفه الضبابُ والوحشة، ونظر نحو الغرب حيث تغرب الشمس، وقال بصوتٍ هزَّ سكونَ القفار:

"يا نهرَ الفرات، لقد أخذتَ مني أهلي وداري، لكنك لم تأخذ مني قدري. اليوم أموتُ كأمرٍ مطارد، وغداً سأولدُ كملكٍ يُخضعُ الدنيا. لن تدركني خيولكم، لأنني أحملُ في صدري سرَّ بني أمية الذي لا يموت. طريقي طويل، لكنَّ نهايته تيجانٌ تنتظرنِي خلف البحار."

بدأت رحلةُ التيه الكبرى؛ قطع عبد الرحمن فيافي أفريقيا وحيداً، يقاتُ من نباتِ الأرض، وينامُ في الكهوف، وعيناهُ مسمرتان دائماً نحو الأندلس. كان يبدو كطيفٍ أسطوريٍّ؛ ثيابهُ مخرقة، وجلدهُ لوحتهُ شمسُ الصحراء، لكنَّ كبرياءهُ كان يزدادُ مع كل ميلٍ يقطعه. التقى في تونس بخادمه الوفي بدر، الذي كان يرقبُ سيده بذهولٍ يمزجه التقديس.

سأله بدر يوماً وهو يراه يخطُّ على رمالِ الصحراءِ خارطةً للأندلس:

"يا سيدي.. نحن غريبان، مطارَدان، لا نملكُ إلا سيوفنا وثيابنا. كيف تحلمُ بملكٍ يفصلنا عنه بحرٌ وأعداءٌ يملؤون الأرض؟ أليس الأمانُ في التخفي والنسيان أجمل من هذا العناء؟"

أجاب عبد الرحمن بابتسامةٍ باردة، فيها من بريقِ الصقورِ ما يجعلُ الروحَ ترتجف:

"يا بدر، الأمانُ للضعفاء، والنسيانُ للأموات. أنا لا أبحثُ عن بقعةٍ أعيشُ فيها، بل أبحثُ عن 'منصةٍ' أرفعُ فوقها مجدَ أجدادي. الأندلسُ اليوم هي الدارُ اليتيمة التي تحتاجُ إلى وارثٍ شرعي، وأنا ذلك الوارث. الغربيةُ يا بدر ليست في البعد عن الشام، بل في أن

يعيش المرءُ عالَةً على فتاتِ التاريخِ. غداً، حين نعبُرُ البحرَ، ستدركُ
أنَّ العظمةَ تُولدُ من رحمِ العدمِ، وأنَّ الصقرَ لا يسقطُ إلا ليحلقَ
أعلى."

وصل عبد الرحمن إلى سواحلِ الأندلس في عام **755** ميلادية،
ونزل في "المنكب". لم يكن يحملُ ذهباً ولا جيشاً، بل كان يحملُ
"اسماً" يهتزُّ له الوجدانُ، وطموحاً يسعُ القارةَ بأكملها. وبمجردِ أن
وطأت قدماه الرملَ الأندلسي، أحسَّ الناسُ أنَّ الهواءَ قد تغيرَ؛ فقد
جاء الرجلُ الذي سيصهرُ القيسيةَ واليمانيةَ في بوتقةِ الدولة، والرجلُ
الذي سيجعلُ من قرطبةَ دمشقَ الثانيةَ، ليكتبَ في تاريخِ العالمِ أنَّ
الصقرَ الذي فرَّ من الموتِ في المشرقِ، قد وجدَ الخلودَ في المغربِ.



في الرابع عشر من مايو لعام **756** ميلادية، كانت سهول "المصاراة" الممتدة على ضفاف نهر الوادي الكبير بقرطبة، تتأهب لاستقبال فجرٍ لم تشهد الأندلس مثله منذ أيام الفتح الذهبي الأول. كان الهواء رطباً، مُحملاً برائحة التراب المبلل والورد الجوري الذي كان يتفتح على استحياءٍ وسط توتر الجيوش. في جهة الشمال، وقف يوسف الفهري وداهيتة الصميل بن حاتم في جيش جرارٍ يمثل بقايا عصر الولاة، وفي الجنوب، وقف الشاب الأموي عبد الرحمن بن معاوية، يحيط به اليمانية الذين رأوا فيه المنقذ، وبجانبه خادمه الوفي بدر.

كان عبد الرحمن يبدو في ذلك الصباح كأنه تمثالٌ من مرمرٍ ونار؛ يرتدي قميصاً أبيض ككفن الأبطال، وعمامة لا تزال تحمل غبار الرحلة الطويلة من دمشق. كانت ملامحه هادئة هدوءاً مخيفاً، وعيناه الصقرتان ترقبان صفوف العدو وكأنهما تقرأن صفحات الغيب.

اقترب منه بدر، وهو يرى قلق بعض اليمانية من جواد عبد الرحمن "الأدهم" السريع، خشية أن يفر عليه إذا دارت الدوائر، فدار بينهما حوارٌ هو جوهر التضحية والسيادة:

"يا سيدي.. إن القوم يتهامسون. يقولون إن جوادك هذا سابق لا يلحق، وإنك أعددت له للنجاة لا للثبات. إن قلوب الرجال معلقة بفعلك، والشك أول الهزيمة."

التفت عبد الرحمن نحو بدر، وابتسامة باردة تمر على شفثيه، وفي صوته رنين المعدن الذي لا ينتهي:

"يا بدر، الملوك لا يفرون من قدرهم، ومن عبر البحر وحيداً لا يخشى الموت فوق اليابسة. إن كانوا يخشون فراري، فليأخذوا هذا الجواد وليأتوني بغيره. اليوم، الأرض هي داري، أو هي قبري."

طلب عبد الرحمن من أتباعه بغلةً شهباءً بطيئة، وامتطأها أمام الجند، ليعلن لهم أنه قد قطع على نفسه طريق الرجعة. وقف فوق هضبة

صغيرة، وجلجلَ صوتهُ الذي كان يختزنُ قهرَ السنينِ وعزةَ الملوكِ:
"يا أهلَ الأندلسِ.. أنا عبد الرحمن بن معاوية، بقيةُ البيتِ الذي
أعزكمُ اللهُ بهِ. لم آتِ إليكم طالباً للمال، بل جئتُ طالباً للمجدِ الذي
أضعتموهُ في شقاقكم. انظروا إلى تلكِ الرايات؛ إنها تتفتت، ورايتي
اليوم هي التي ستجمعكم. من أرادَ دمشقَ في قرطبة، فليتبني،
ومن أرادَ الفتنة، فبيني وبينه هذا النهر."

اندلعت المعركة، وكان زحفُ عبد الرحمن كزحفِ القدر؛ هادئاً،
ثقيلاً، ومحكماً. الصميلُ بن حاتم، الذي كان يظنُّ الفتى لقمةً سائغةً،
وجد نفسه أمام "عبريةٍ عسكرية" نبتت من رحمِ الألم. كانت السيوفُ
اليمانيةُ تضربُ بوفاءٍ لم يشهد الميدانُ مثله، وعبد الرحمن يتوسطُ
المعركةَ فوق بغلته، شامخاً لا تلينُ له قناة، حتى انكسر جيشُ الفهري
وتشتتت جموعه.

دخل عبد الرحمن قرطبةَ فاتحاً في يومِ عيدِ الأضحى، ولم يدخلها
كغازٍ ينتقم، بل دخلها كصاحبِ بيتٍ طال غيابه. وقف في مسجدها،
ونظر إلى الناس الذين احتشدوا لرؤية "الصقر" الذي أحيا الموات،
وتحدث بنبرةٍ فلسفيةٍ عميقة:

"أيها الناس.. لقد انتهى عصرُ "الولاية" وبدأ عصرُ "الدولة". اليوم
نضعُ السيفَ جانباً لنمسكُ بالمحراثِ والقلم. الأندلسُ لن تكون بعد
اليوم قطعةً منسية، بل ستكون منارةً تنافسُ بغدادَ وتفوقُ دمشق.
لقد عبرتُ البحرَ وحيداً، والآن نحنُ جميعاً في سفينةٍ واحدة؛ فإما
أن نبني وطناً يسعنا، وإما أن نمزقه فيأكلنا الغرباء."

كانت موقعة المصارة عام **756** هي "حجر الأساس" للدولة الأموية
في الأندلس. بانتصار عبد الرحمن، ولدت "الإمارة المستقلة"،
وانفصلت الأندلسُ سياسياً عن الخلافةِ العباسية، ليبدأ عصرٌ جديدٌ
من النهضةِ والقوة. وبقي "الداخل" يلقب بـ "صقر قریش"؛ لأنه طار

بجناحي الطموح من ضفافِ الفرات ليحطُّ فوق أسوارِ قرطبة، مغيراً
بذلك وجه التاريخ للأبد.

بعد أن انقشع غبار "المصارة"، لم يجد عبد الرحمن الداخل نفسه
فوق سريرٍ من الحرير، بل وجد نفسه فوق فوهة بركان. كانت
الأندلسُ تشبهُ جواداً برياً لم يألف اللجام؛ فالثوراتُ تشتعل في كل
زاوية، والعباسيون في المشرق يرسلون خيرة القادة لقتله، والداخلُ
وحيثُ يصارعُ الزمن والشركاء. كان عبد الرحمن في تلك السنوات
يتحرك كالمغزل؛ يطفئ حريقاً في "طليطلة" ليجد آخر في
"سرقسطة"، ملامحة التي كانت توحى بالشباب قد غدت الآن منحوتةً
من صخرٍ صلد، ولحيته بدأت تكتسي بوقار الشيب الذي ينم عن سهر
الليالي الطوال.

في إحدى الليالي، وقف عبد الرحمن في شرفة قصره بقرطبة، يرقبُ
بناء "الجامع الكبير" الذي بدأ يرتفع كأنه حلمٌ يُنتزع من جوف
الأرض. كانت الأعمدة الرخامية تلمع تحت ضوء القمر كأنها حراسٌ
أوفياء، ورائحة الجص والمنجور تختلط بنسيم الوادي الكبير.
وبجانبه، كان كاتبه الحكيم أبو حفص، يرقبُ سيده الذي لم يعرف
طعم النوم منذ أيام.

تحدث عبد الرحمن الداخل بصوتٍ يملؤه شجنٌ فلسفيٌّ عميق، وهو
ينظر نحو نخلةٍ وحيدة غرسها في حديقة قصره "الرصافة":

"يا أبا حفص، انظر إلى تلك النخلة؛ إنها غريبةٌ مثلي، تحنُّ إلى
رمال "الرصافة" في الشام، لكنها تضرب جذورها في هذا الثرى
الأندلسي لتعيش. هكذا هي دولتنا؛ إنها نبتةٌ دمشقية في أرضٍ
أعجمية، وإن لم نحمها بأسوارٍ من العدل وسيوفٍ من نار، اجتنبتها
رياحُ الفتن. لقد قضيتُ عمري أروضُ البشر، واليوم أريد أن

أروض الحجر؛ أريد لهذا الجامع أن يكون ذاكرةً لا تموت، مكاناً يدرك فيه الناس أننا لم نأت لنبني ملكاً زائلاً، بل لنبني معبداً للنور." مسح أبو حفص دمعاً خفية، ونظر إلى الأعمدة التي كانت تشبه في ترتيبها صفوف الجند، وقال بنبرةٍ يملؤها الإجلال:

"يا مولاي، إنك تنحتُ من شتات القبائل أمة، ومن تشتت القلوب دولة. إن الناس يرهبون سيفك، لكنهم اليوم يحبون بناءك. هذا الجامع سيكون الصرخة التي تخبر بغداد أن بني أمية لم يبيدوا، وأن شمسهم التي غابت في المشرق قد أشرقت هنا في أبهى حللها. ولكن، ألا يرهقك هذا الصراع الذي لا ينتهي مع الثوار؟"

ابتسم عبد الرحمن ابتسامةً فيها من دهاء الصقور وقسوة القدر الكثير، وردّ بصرامة:

"يا أبا حفص، الحكم ليس نزهةً في البساتين، بل هو وقوف دائم على حافة النصل. الثوارُ يختبرون صلابتي، وأنا أختبرُ صبرهم. إنني لا أقطع الرؤوس حياً في الدم، بل حياً في "النظام"؛ فالدولة بلا هيبة هي غابةٌ يأكلُ فيها القوي الضعيف. لقد جعلتُ من يوسف الفهري والصميل عبرة، لا لأنني أكرههم، بل لأن الأندلس لا تتسع إلا لقائد عادل واحد، أما الطغاة و الظلام فلا مكان لهم فيها. إن سكون قرطبة اليوم هو ثمن تلك الدماء التي سُفكت بالأمس."

استمر الداخل في بناء دولته "بيدِ تمسك المعول وأخرى تمسك السيف". أسس الدواوين، وبنى الأساطيل، وغرس في الأندلس نظاماً إدارياً لم تعرفه من قبل. وحين أرسل الداخل للخليفة العباسي "أبو جعفر المنصور" رأساً لأحد قادته الذين حاولوا غزو الأندلس و اغتياله، قال المنصور جملة الشهيرة التي خلدها التاريخ: "الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحراً".

توفي عبد الرحمن الداخل عام **788** ميلادية، تاركاً خلفه "إمارة"

راسخة الجذور، وجامعاً عظيماً يحملُ روحه، وجيشاً يحمي حدودها. لم يمت الداخلُ حتى اطمأن أن "الصقر" قد بنى عشه في أعلى قمة بالأرض، وأن الحلم الذي بدأ بفتى يسبحُ في الفرات وحيداً، قد انتهى بدولةٍ ستحملُ مشعل الحضارة للعالم أجمع لقرون قادمة.

في عام **912** ميلادية، تسلم الشاب عبد الرحمن الثالث (الذي لقب بالناصر لدين الله) حكماً كانت الفتن قد عادت تنهش أطرافه. لكن هذا الفتى، لم يكن يملك سيف جده الداخل فحسب، بل كان يملك "خيالاً" يسع الكون. في عهده، تحولت الأندلس من "إمارة" تكابد البقاء إلى "خلافة" تقود العالم. كان الناصر مربع القامة، أبيض البشرة مع حُمْرة تشي بحيوية الشباب، وعينين زرقاوين كأنهما اقتطعتا من سماء قرطبة الصافية.

في صباح ربيعيٍّ مذهل، وقف الناصر في ساحة "مدينة الزهراء" التي بناها لتكون أسطورةً تمشي على الأرض. كانت المدينة تتدرج فوق سفح الجبل كأنها درجاتٌ نحو السماء؛ رخامٌ يلعب كالثلج، وبركٌ من الزئبق تعكس ضياء الشمس بحركاتٍ سحرية، وحدائقٌ معلقة تفوح برائحة الياسمين والورد الجوري. وبجانبه، كان ابنه البكر المخلص الحكم، يرقب انبهار الوفود الأوروبية القادمة لطلب ودّ الخليفة.

تحدث الناصر ونبرة صوته تفيض بعزةٍ لا صلف فيها، وهو يشير إلى القاعة الذهبية بـ "الزهراء":

"يا حكم، انظر إلى هؤلاء الملوك القادمين من أصقاع الشمال؛ يمشون على السجاد الأندلسي بوجل، وتتيه أبصارهم في نقوش سقوفنا. نحن اليوم لا نرهبهم بالسيوف وحدها، بل نرهبهم بـ "الجمال". إن القوة التي لا يحرسها الفن هي قوةٌ غاشمة تزول

بذهاب أصحابها، أما الدولة التي تُبنى على العلم والعمارة، فهي دولةٌ تسكن خيال التاريخ. لقد أعلنت الخلافة ليس منافسةً لبغداد المهتزة، بل استحقاقاً لقرطبة التي غدت اليوم عاصمة الفكر في العالم."

تأمل الحكم (الذي سيصبح لاحقاً الحكم المستنصر، عاشق الكتب) انعكاس الشمس في برك الزئبق، وأجاب بصوتٍ يملؤه الفخر و التقدير:

"يا أبتاه، لقد جعلت من الأندلس 'فردوساً' يشتهيها القريب والبعيد. مدينة الزهراء ليست مجرد قصور، بل هي رسالةٌ تقول للزمن إن العقل العربي إذا استقر أبدع. الناس في أوروبا يظنون أننا سحرة، لأنهم لا يدركون أن سحرنا هو 'النظام' والبحث عن أسرار النجوم والطب والفلسفة. لقد ربطت مجدك بالورق والحجر، وهما أطول عمراً من عمر البشر."

ابتسم الناصر ابتسامةً رقيقة، فيها من هيبة الملوك وصفاء الزهاد الكثير، وردّ قائلاً:

"لقد قضيتُ من عمري خمسين عاماً في الحكم، يا حكم، ولم أجد فيها إلا أربعة عشر يوماً من السعادة الصافية. هل تدري لماذا؟ لأن الملك مسؤوليةٌ تزن الجبال. لقد بنيتُ هذه المدن ليأمن فيها الخائف، ويتعلم فيها الجاهل. إذا رحلتُ يوماً، فلا تذكروا عدد القلاع التي فتحتها، بل اذكروا عدد المصابيح التي أضأتها في طرقات قرطبة، وعدد الكتب التي جمعتها لتروي ظمأ العقول."

بلغت الأندلس في حكم الناصر الذي تجاوز الخمسين عاماً قمة المجد العالمي؛ حيث غدت قرطبة "جوهرة العالم"، تضاء شوارعها ليلاً، وتُبنى فيها المستشفيات والمكتبات، ويومها الطلاب من كل فج. كانت الخلافة الأموية في الأندلس هي "المركز" الذي تدور حوله سياسات

القارة العجوز، وكان الناصر هو "المايسترو" الذي أدار سيمفونية من القوة العسكرية، والرخاء الاقتصادي، والسمو الفكري.

في عام **939** ميلادية، لم يكن الصدام في "خندق لنت" (سيمانقة) وليد صدفة عابرة، بل كان انفجاراً لمرارات تراكتت في صدور ممالك الشمال. بدأت الحكاية حين رأى "راميرو الثاني"، ملك ليون الفرنسية، أن إعلان عبد الرحمن الناصر للخلافة وتوحيده للأندلس هو "حبل مشنقة" يلتف حول مملكته. لم ينتظر راميرو وقوع الواقعة، بل هو من بدأ بقرع طبول الحرب؛ مستغلاً تمرد "أبي يحيى" صاحب سرقسطة، ليعقد معه حلفاً غادراً يطعن خاصرة قرطبة. أراد راميرو أن يكسر هيبة الخلافة في مهدها، فجمع حشوداً لم تشهدها أوروبا من قبل، قوامها القوط والفرنجة والبشكنس، وزحف بها نحو الجنوب كإعصار أسود يريد ابتلاع الضياء.

وقف عبد الرحمن الناصر في قلب جيشه الذي ملأ السهل كبحر من الزمرد والفولاذ، كان يرتدي خوذة مرصعة بالياقوت تعكس ضياءً يمانياً، ووجهه يفيض بصرامة لا تلين أمام الريح الباردة القادمة من جبال "ليون". كان يدرك أن راميرو قد اختار "سيمانقة" بعناية؛ فهي أرض وعرة تخدم المتحصن، وقد حفر فيها خندقاً عظيماً ليكون فخاً لخيول المسلمين.

أمام المسلمين، كان راميرو يطل من وراء خندقه بزهو من يملك الأرض، وبدأت الأرض تميد تحت وقع خيول النصارى الثقيلة. اقترب القائد نجدة الصقلي من الناصر، وكان يلحظ ضيقاً في تضاريس الأرض قد يعيق وثبة الخيل، فقال بنبرة يملؤها الحذر:

"يا مولاي، إن راميرو هو من استدرجنا إلى هذا الضيق، وقد جعل من الخندق جداراً والمكان فخاً. إن خيولنا تحب الفضاء، وهذا

الحصارُ المكاني قد يسرق منا سرعة الكرّ. ألا ترى أن ننسحب قليلاً
لنخرجهم من جحورهم التي بدأوا منها العدوان؟"

ثبّت الناصر قدميه في الركاب، ونظر إلى السماء التي بدأت تتلبد
بغيوم أرجوانية، وأجاب بصوتٍ يجلجل كصاعقةٍ هادئة:

"يا نجدة، إن من بدأ بالبغي، كان حقاً على الله أن يصرعه. راميرو
ظنّ أن خندقه سيحبس أقدارنا، ولم يدرك أن المؤمن لا يرى في
الضيّق إلا قرب الفرج. هذا الخندق الذي حفره ليكون مقبرةً لنا،
سيكون اليوم هو الباب الذي نعبر منه إلى خلودنا. نحن لا نقاتل
ببراعة الخيل وحده، بل نقاتل بيقين أننا حماة هذا الثغر الأخير.
اليوم سيعلم "راميرو" أن صدور رجالي أمنع من خنادقه، وأن
الحديد ينحني أمام الإرادة التي لا تلتفت للخلف."

دارت رحي المعركة بضراوةٍ أذهلت الصخر؛ حيث اختلطت
صيحات التكبير بزئير النصارى، وتساقط الفرسان في جوف الخندق
حتى امتلأ بالأجساد. قاد الناصر الهجوم بنفسه، وكان سيفه يخطُّ في
الهواء سطوراً من لهب. ورغم مرارة الصدام الأول، كان الانتصارُ
في النهاية لثبات القلب؛ فاندحر النصارى خلف جبالهم، وأدركت
ممالك الشمال أن قرطبة تملك يداً من حديد لا يفلّها خندق، وأنّ البادئ
بالظلم هو من سيُدفن في الخندق الذي حفرته يداه.

توفي الخليفة الناصر بعد عقود ملهمة من الحكم تاركاً خلفه دولةً لم
يأتِ الزمان بمثلهما، ومدينةً (الزهراء) التي كانت حديث الركبان.
وبموته، لم تنتهِ الخلافة، بل سلمها لابنه الحكم المستنصر، لتبدأ
مرحلةً أخرى من "الفتح الثقافي"، حيث سيغدو الكتابُ هو السيف
الأندلسي الأحدث.

حين تسلم الحكم المستنصر بالله زمام الخلافة عام **967** خلفاً لأبيه العظيم الناصر، لم يتغير وجه الأندلس العسكري، بل ازداد ثباتاً ورسوخاً، لكن ملامح الحكم اكتست بوقارٍ فلسفيٍّ لم يشهده العصر من قبل. كان الحكمُ رجالاً نبيلاً، مربوع القامة، بلامح يملؤها الصفاء الفكري، وعينين غائرتين من كثرة السهر بين المخطوطات. كانت سنوات حكمه الخمس عشرة هي "واحة الهدوء" العظيم في تاريخ الأندلس؛ حيث أقام في الثغور الشمالية أسواراً من حديد ليردع الأعداء، وبنى في قلب قرطبة صوامع من ورق ليضيء الدنيا.

في قلب قصر "الزهراء"، حيث تفوح رائحة المسك الممتزجة برائحة الحبر والزعفران والورق القديم، أسس الحكمُ "المكتبة العظمى"، التي ضمت أكثر من أربعمئة ألف مجلد، جُمعت من بغداد والقاهرة والقسطنطينية بأغلى الأثمان. لم يكن الحكمُ يجمع الكتب ليزين بها الرفوف، بل كان يقرؤها، ويعلق على حواشيها، ويصحح أنساب مؤلفيها، حتى غدا "أعلم ملوك الأندلس" قاطبة.

وقف الحكم يوماً وسط القاعة الكبرى للمكتبة، يحيط به النساخ والمجلدون والمترجمون الذين استقطبهم من كل فجٍّ، وبجانبه الفيلسوف والحكيم ابن مسرة، الذي كان يتأمل رفوفاً تكاد تنطق بالعظمة.

تحدث الحكم بصوتٍ رقيقٍ مفعم بالقداسة، وهو يمرر أنامله المرتجفة على غلاف كتابٍ نادر وصله للتو من بغداد:

"يا ابن مسرة، إن أبي الناصر قد أورثني دولةً تحرسها السيوف، وأنا أردتُ أن أجعل لها عقلاً يحرسها من الفناء. انظر إلى هؤلاء العظماء الصامتين على الرفوف؛ إنهم لا يطالبوننا بشيء سوى أن نقرأهم. لقد فتح أبي البلاد بالحديد، وأنا أفتح العصور بالأقلام. إن الدولة التي لا تقرأ، هي دولةٌ تسير في الظلام ولو أضاءت شوارعها بالقناديل. أريد لقرطبة أن تكون محجاً للباحثين عن

النور، حتى ينسى الناس أننا محاربون، ويتذكروا أننا معلمون." تأمل ابن مسرة فترة حكم الحكم التي تميزت بالرخاء والعدل والارتقاء بالعلماء، وأجاب بنبرة يملؤها الإجلال:

"يا أمير المؤمنين، لقد صنعت في سنوات حكمك معجزةً تفوق بناء القصور. القصور تنهارُ تنهارُ بالزمن، أما "الفكرة" المكتوبة فهي الروح التي لا تمسها النار. إن مكتبتك هذه، وسياستك التي جعلت العلم شرطاً للسيادة، هما اللذان سيجعلان من اسمك نعمةً ترددها شفاه العلماء في كل قرن. لقد جعلت من الحبر دماً يجري في عروق الأمة، فمن يجرؤ بعد اليوم على وصفنا بالغرباء في هذه الأرض؟" ابتسم الحكم بابتسامة يملؤها زهدُ العارفين، وهو ينظر إلى الفهارس الضخمة التي صنفاها بنفسه، وردّ بيقين:

"يا ابن مسرة، السيادة الحقيقية هي سيادة العقل. غداً سيذهب الذهب، ويبقى هذا الورق يحكي قصة أمةٍ أحببت ربها فأحبت خلقه، وتعلمت سر النجوم لتعمر الأرض. إن سنوات حكمي ليست إلا خدمةً لهذا العلم؛ فليقل التاريخ إنني كنتُ خازناً لعلوم الأرض قبل أن أكون خليفةً عليها."

كانت فترة حكم الحكم المستنصر هي "العصر الذهبي للثقافة"؛ حيث وصل التعليم في قرطبة إلى حدٍّ لم يبلغه العالم، فكان الفقراء يقرأون كما يقرأ الأغنياء، وغدت المكتبة هي "القلب" الذي يضخ المعرفة في عروق أوروبا المظلمة. وبوفاته عام **976**، لم تُغلق المكتبة، لكنَّ الأندلس بدأت تفقد "عقلها الراجح"، لتبدأ مرحلةً أخرى تتصارع فيها العظمة العسكرية مع الترف، قبل أن يطلَّ عصر ملوك الطوائف.

في عام **976** ميلادية، وبينما كانت أروقة "الزهراء" تضحُّ بهمهمات القلق بعد وفاة الحكم المستنصر وتولي ابنه الطفل "هشام المؤيد"، برز من بين غلالات النسيان رجلٌ لم يكن يملك غير ذكاءٍ كالنصل، وطموح يبتلع الآفاق. هو **محمد بن أبي عامر**، الفتى الذي بدأ حياته "عراًضاً" (كاتباً للرسائل) على باب القصر، وانتهى سيداً للأندلس قاطبة. فقد، استطاع المنصور ببراعةٍ نادرة أن يعزل الخليفة الصغير في قصره، ويحيطه بأسوارٍ من الخدم والحجاب، ويحرمه من أي اتصالٍ بالخارج، حتى نُسي هشامٌ في غمرة انتصارات المنصور. صار المنصور هو من يوقع الكتب، ويقود الجيوش، ويضرب السكة باسمه. لم يكن انقلاباً عسكرياً دمويّاً، بل كان "اختطافاً ناعماً" لروح السلطة؛ حيث بقي التاج فوق رأس هشام، وبقي الصولجان في يد المنصور، لتبدأ الدولة العامرية التي جعلت من "الحاجب" ملكاً غير متوج، ومن "الخليفة" طيفاً يسكن القصور.

كان المنصور رجلاً مهيباً، مديد القامة، ذو وجهٍ صلبٍ كأنه فُذٌّ من صخر جبال أطلس، وعينين تشتعلان بنار "الإرادة" التي لا تنطفئ حتى في أحلك الظروف. لم يكتفِ بالسيطرة على شؤون الدولة، بل نقل مركز الثقل من "الزهراء" إلى مدينته الجديدة "الزاهرة"، وأعاد للأندلس سهيل الخيل الذي لم ينقطع طيلة عهده. وقف المنصور في باحة قصره بالزاهرة، وقد تهيأ لغزوته الخمسين نحو الشمال الصليبي، وكان يرتدي لامته الحربية التي لم تكن تفارق جسده إلا ليصلي. وبجانبه، كان حاجبه الوفي **جعفر**، يرقب في سيده تلك السكينة التي تسبق العاصفة.

تحدث المنصور بن أبي عامر بصوتٍ رزين يشبه قرع الطبول البعيدة، وهو يرقب الرايات التي تملأ السهل:

"يا جعفر، يقولون إنني اغتصبتُ الأمر من بني أمية، ولا يدركون أنني حميتُ عرشهم بسيوفي. إن الملك لا يُنال بالوراثةٍ وحدها، بل بـ "الاستحقاق". لقد وجدتُ الأندلس وقد بدأت تطمعُ فيها ذئاب

الشمال، فجعلتُ من حدودنا ناراً تحرق كل من يقترب. إنني لا أقاتل من أجل اسمي، بل من أجل هيبة هذا الدين؛ أريد لاسم "قرطبة" أن يُزلزل قلوب الأباطرة في باريس وروما، كما زلزلها طارق من قبل."

تأمل جعفر ملامح المنصور التي علتها غيرةٌ مقدسة، وأجاب بنبرة يملؤها الإعجاب المشوب بالحدر:

"يا سيدي، لقد بلغت في الفتح ما لم يبلغه أحد؛ لم تُهزم لك راية، ولم تنكسر لك قناة. لكن الناس يخشون من هذا "المجد الفردي"؛ فالدولة التي تقوم على كتف رجل واحد، قد تميل بميله. لقد محوت ذكر بني أمية بفعلك، فمن سيحمل إرثك إذا ترجلت عن صهوة الحياة؟"

ابتسم المنصور ابتسامةً غامضة، فيها من الثقة المطلقة ما يخرس الألسنة، وردّ قائلاً:

"لقد نقشتُ اسمي في قلب كل شبرٍ افتتحته، وجمعتُ غبار معاركي في قارورةٍ لأُدفن بها، لتشهد لي عند ربي أنني لم أدق طعم الراحة في سبيل إعلاء كلمته. أما ما بعدي، فالتاريخ يُغربل الرجال؛ من كان له مثل عزمي ساد، ومن ركن إلى الحرير باد. أنا لستُ ملكاً، أنا "إعصار" جاء ليظهر الأندلس من الضعف، وحين يهدأ الإعصار، سيعرف الناس قيمته من حجم البناء الذي تركه وراءه."

لقد قاد المنصور (57) غزوةً في قلب الممالك النصرانية، ووصل إلى "سانت ياقو" (سانتياغو دي كومبوستيلا) في أقصى الشمال الغربي، وحمل أبواب كنيستها على أكتاف الأسرى ليجعلها سقفاً لتوسعة جامع قرطبة. في عهده، عاشت الأندلس أزهى عصور القوة العسكرية المطلقة؛ فكان النصارى يدفعون الجزية وهم صاغرون، وكانت هيبة الأندلس تملأ البر والبحر.

توفي المنصور بن أبي عامر في طريق عودته من إحدى غزواته،
ودُفن بمدينة "سالم"، ولم يُهزم في معركة خاضها قط. وبموته،
انقرط عقد الدولة العامرية سريعاً .

في عام **1009** ميلادية، وبينما كان رذاذ المطر يغسل رُخام قرطبة
البارد، كانت الأندلسُ تنهياً لليلة لا فجر لها. رحل المنصورُ بن أبي
عامر، ورحل بعده ابنه "المظفر"، فتركا خلفهما فراغاً لم يستطع
طموحُ ابنهما الآخر "عبد الرحمن شنجول" أن يملأه بغير الحماقة.
انكسرَ جدارُ الهيبة، وانفجرَ البركانُ الذي كان يغلي تحت السطح؛
فانقضتِ الأطماعُ على قصرِ "الخليفة" المحجوب، وخرجَ الخليفةُ
المنسيُّ "هشام المؤيد" من خلف أسواره ليجدَ عالماً لا يعرفه، ورعيةً
قد أفسدتها الفتن.

كانت الفتنةُ كإعصارٍ أعمى؛ حيث تصارعُ الأمويون فيما بينهم على
التاج، وانقسمتِ العاصمةُ قرطبةُ إلى معسكراتٍ يملؤها الحقد. نُهبت
"الزاهرة" حتى غدت قاعاً صاففاً، واصطبغت شوارعُ قرطبة بدم
أبنائها، وتحولتِ "الزهراء" الأسطوريةُ إلى مأتمٍ يسكنه الغربانُ
والبوم، بعد أن كانت قبلة الملوكِ ومستقرَّ الجمال.

وقف ابن حزم الأندلسي، الفتى الذي كان يرقبُ انهيارَ العالمِ الذي
نبتَ فيه، وسط أطلالِ "الزهراء" المهدامة. كانت الرياحُ تننُّ بين
الأعمدةِ المكسورة، وكان ينظرُ إلى بقايا رُخامٍ منقوشٍ قد داسته
سناياكُ الخيل، وبجانبه صديقه الحكيم محسد، الذي كان يغالبُ دموعه
وهو يرى الفوضى تبتلعُ التاريخ.

تحدث ابن حزم ونبرةُ صوته تفيضُ بمرارةٍ فلسفيةٍ جارحة، وهو
يمسحُ الغبارَ عن قطعةٍ من فخارِ أندلسيٍّ مكسور:

"يا محسد، انظر إلى هذا الهوان؛ إننا لا نهدمُ جدراناً، بل نهدمُ

أنفسنا. الخلافة التي كانت تُرعدُ لها أوروبا، صارت اليوم العوبةً في أيدي الغوغاء. لقد بنينا بالحق والعدل، ونهدمُ اليوم بالحمق والشهوة. هل تدري لماذا سقطت هذه العظمة؟ لأننا نسينا أن "الملك" أمانة في عنق الرجال، وليست مآدبةً للنهب. لقد ضاعت "الزهراء"، وضاعت معها روحُ الأندلس، ولن يعودَ الزمنُ القهقري ليمنحنا فرصةً أخرى."

تأمل محسّد تصاعدَ الدخانِ من أحياءِ قرطبةَ البعيدة، وأجاب بصوتٍ يملؤه اليأسُ الوجودي:

"يا عليّ، إنها لعنةُ "الترف" ونسيانُ "الجنور". حين استبدَّ المنصورُ بالأمر، قتلَ فينا روحَ الولاءِ لبیت الخلافة، وحين ذهب المنصور، وجدنا أنفسنا بلا رأسٍ يجمعنا، ولا قلبٍ يحنُّ علينا. اليوم يتقاتلُ الأمراءُ على "عرشٍ" من رمال، والعدوُّ في الشمال يرقبُ مآتمنا بابتسامةِ المنتصر. أخشى أن التاريخ سيكتبُ عنا أننا كنا أعظمَ أمةٍ عرفت كيف تنتحرُ في لحظةٍ زهوها."

ابتسم ابن حزم بابتسامةٍ حزينة، وهو ينظرُ إلى السماءِ التي تلبدت بسوادِ الحريق، وردَّ بيقينٍ مؤلم:

"لقد انفرطَ العقدُ يا صديقي، وحبأت اللؤلؤُ تتناثرُ اليوم في الوحل. غداً، ستستيقظُ الأندلسُ لتجدَ نفسها عشرين دولةً بدلاً من واحدة. سيصيرُ لكلِّ زاويةٍ "ملكٌ" يلبسُ تاجاً أكبرَ من رأسه، وسينوحُ الناسُ على أيامِ الناصرِ والمنصور، حين كان الصمتُ هيبَةً، والوحدةُ قوةً. نحن الآن ندخلُ "نفقَ الطوائف"، حيث سيقتلُ الجارُ جاره من أجل لقبِ زائف، وسنبيعُ كرامتنا لنشتري بقاءنا تحت أقدامِ الطغاة."

كانت الفتنةُ الكبرى هي "الزلال" الذي أنهى وجودَ الخلافةِ الأموية في الأندلس للأبد. سقطت قرطبةُ من عليائها، وانطفأت مصابيحها، وتوزعت مدنها بين القادة والوزراء الطامعين. وبإعلان سقوطِ الخلافةِ الأموية رسمياً عام **1031** ميلادية، انتهى الفصلُ الأجلُّ

من كتابِ القوة، لتبدأ المرحلةُ الأكثرُ شجناً وتناقضاً؛ عصرُ "ملوك الطوائف"، حيث سيلتقي جمالُ الأدبِ بمرارةِ الضعف السياسي.

عصر

ملوك الطوائف

في خريف عام **1031** ميلادية، استيقظت الأندلس على صمتٍ جنائزيٍّ مهيب؛ فقد غاب صدى التكبير الموحد في قرطبة، وحلَّ محله ضجيجُ الصراعاتِ الصغيرة. لم يعد هناك "خليفة" يجمع الشمل، بل "ملوك" نبتوا كالفطر في كل زاوية؛ فهنا "بنو عباد" في إشبيلية، وهناك "بنو هود" في سرقسطة، و"بنو ذي النون" في طليطلة. انقسمت الأرض إلى أكثر من اثنتين وعشرين قطعة، كلُّ قطعة تزعمُ أنها "دولة"، وكلُّ والٍ ألبسَ نفسه تاجاً أكبرَ من رأسه، ولقباً أضخمَ من حجم قلاعه.

وقف الشاعرُ والوزير ابن زيدون في شرفة قصره بقرطبة، يرقبُ المدينة التي كانت "سيدة الدنيا" وهي تتحولُ إلى ولايةٍ ثانوية، بينما تتوزعُ هيبثها بين المدنِ الطامحة. وبجانبه كان صديقه أبو بكر، الذي كان ينظرُ إلى خارطةِ الأندلسِ الممزقة بذهولٍ يملؤه الأسى.

تحدث ابن زيدون بنبرة يملؤها الشجنُ الأدبيُّ الفاخر، وهو يرقبُ الغسقَ الذي يلفُّ مآذنَ قرطبة:

"يا أبا بكر، انظر إلى هذه الأرض؛ لقد تحولت إلى رقعةٍ شطرنج، يلعبُ بها صبيانُ السياسة. بالأمس كان لنا قلبٌ واحدٌ ينبضُ في هذا القصر، واليوم صار لنا مئةُ قلبٍ تتصارعُ في صدورِ ضيقة. لقد استبدلنا "العزة" بـ "الألقاب"، و"الوحدة" بـ "القصاصد". أخشى أننا نبني قصوراً من رملٍ ستبتلعها أولُ عاصفةٍ قادمة من الشمال."

تأمل أبو بكر الراياتِ المتعددة التي بدأت ترفرفُ فوق الثغور، وأجاب بصوتٍ يقطرُ حكمةً مريرة:

"يا أبا الوليد، إننا في زمن "الأقزام العظماء". كلُّ واحدٍ منهم يظنُّ أنه "الناصر" أو "المنصور"، ولا يدركُ أنه مجردُ طيفٍ في حلمٍ ينتهي. لقد صار لكلِّ قريةٍ ملكٌ يضربُ السكةَ باسمه، ويجمعُ الضرائبَ ليطعمَ بها مادحيه، بينما الحدودُ تشتكي اليتيم. إن الدولة التي تقومُ على "الأنا" هي جنازةٌ تنتظرُ من يدفنها، وهؤلاء الملوكُ

يتنافسون على من يحملُ النعش.

ابتسم ابن زيدون بابتسامةٍ حزينة، وهو يمرُّ يده على ديوانِ شعره، وردّ بيقينٍ عميق:

"المصيبةُ يا صديقي أننا أمةٌ تعشقُ الجمال وتتسى القوة. سيزدهرُ الأدبُ في قصورهم، وسينثرون الذهبَ على الشعراء، وسيبنون الحماماتِ والمنتزهات، لكنهم سيبيعون الأرضَ ليشتروا بقاءهم فوق كراسيهم. نحن الآن ندخلُ "عصرَ الزينةِ الفانيةِ"؛ حيث الثوبُ فاخرٌ والجسدُ عليل. غداً، حين يقرعُ العدوُّ الأبواب، لن تنفعهم قوافيهم ولا تيجانهم المرصعة بالوهم."

كان ظهور الدويلات هو "الخطيئة الكبرى" في تاريخ الأندلس؛ حيث ضاعت المسؤولية الجماعية في زحامِ المنافع الفردية. تحولت الأندلسُ من "إمبراطوريةٍ مهيبة" إلى "سوقٍ للمزايدات"؛ حيث يستتصرُ الملكُ المسلمُ بالعدوِّ النصرانيِّ على أخيه المسلم، ويدفعُ له من كرامةِ أُمته ثمناً لبقائه يوماً إضافياً فوق عرشه المتزعزع.

في منتصف القرن الحادي عشر، وتحديداً مع صعود "ألفونسو السادس" ملك قشتالة، تحولت الأندلسُ إلى مشهدٍ تراجيديٍّ يثيرُ الرثاء؛ فبينما كانت القصورُ في إشبيلية وطليطلة تزدانُ بالفسيفساء والحريير، كانت سيادةُ ملوكها تتآكلُ كخشبِ نخره السوس. لم تعد السيوفُ هي التي تحمي العروش، بل صار "الذهب" هو الوسيلة الوحيدة لتأجيل السقوط المحتوم. فُرض نظام "الجزية" (أو الإتاوات)، حيث صار الملوكُ المسلمون يدفعون مبالغ طائلة سنوياً لألفونسو السادس، لا مقابل السلام، بل مقابل ألا يحرق زروعهم أو يهدم أسوارهم.

كان مشهدُ الوفود القشتالية وهي تدخل مدن الأندلس لتحصيل الجزية

يقطرُ ذلاً؛ فرسانٌ من الشمال بوجوهٍ غليظةٍ ودروعٍ صدئةٍ، يمشون بصلفٍ وسط الأسواق، بينما يغضُّ الناسُ أبصارهم انكساراً. وقف المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية الشاعر، في ردهات قصره "المبارك"، يرقبُ صناديق الذهب وهي تُحمل إلى وفد ألفونسو، وبجانبه وزيره وخلُّ وفائه ابن عمار.

تحدث المعتمد بصوتٍ يملؤه الشجنُ الوجودي، وهو ينظر إلى يديه اللتين لم تعدا تقبضان إلا على القلم والقدر:

"يا ابن عمار، انظر إلى هذا الذهب الذي يرحلُ إلى الشمال؛ إنه ليس مالاً فحسب، بل هو دمُ الرعية وكرامةُ الأجداد. ندفعُ لألفونسو ليحمينا من جيراننا وإخواننا، ونشتري بؤسنا بذهبنا. هل صرنا عجزاً إلى هذا الحد؟ هل غدت قصادنا أغلى علينا من قلاعنا؟ أرى في عيون رسل ألفونسو نظرةً تقول إنهم لا يريدون ذهبنا فحسب، بل يريدون اقتلاعنا من هذه الجنان."

تأمل ابن عمار الوفد القشتالي وهو يغادر القصر بتبختر، وأجاب بنبرة فلسفية قاسية، كأنها نصلٌ يُغرس في خاصرة الواقع:

"يا أيها الملك، إننا نشتري "الوقت" بالذهب، والوقتُ عدوٌّ لا يُهادن. ألفونسو لا يأخذ الجزية ليعيش، بل يأخذها ليميتنا؛ إنه يفرغ خزاننا ليملاً مخازنه بالحديد، ويضعفنا لنصير ثماراً ناضجة تسقط في حجره متى شاء. الذهبُ يا مولاي إذا لم يحمه سيفٌ صقيل، صار وبالاً على صاحبه. لقد جعلنا من الأندلس حديقةً بلا سياج، وصرنا ندفع للذئب لكي لا يعوي، والذئبُ إذا ذاق طعم الذهب، طلب اللحم بعدها."

أغمض المعتمد عينيه، كمن يحاول الهروب من حقيقة مرة، وردّ بمرارة:

"لقد تورطنا في لعبةٍ لا نعرف قواعدها. نخشى بعضنا بعضاً أكثر

مما نخشى عدونا، ونتسابق في إرضاء ألفونسو لنكسب يده ضد جيراننا. إنني أشعر بالخجل من تراب "المصارة" و"بلاط الشهداء" القادمة؛ فكيف سألقى الله وقد جعلتُ من مال المسلمين وقوداً لجيوش عدوهم؟"

أجاب ابن عمار بكلمةٍ زلزلت كيان المعتمد:

"الملك الذي يعيشُ بفضل "إذن" خصمه، هو ملكٌ ميتٌ ينتظرُ الجنازة. ألفونسو السادس لا يطلب المال يا سيدي، إنه يطلب "الانكسار النفسي"، وقد نال ما أراد. غداً سيطلب المدن، ولن تجد حينها ذهباً يشفع، ولا قصائد تمنع."

كان نظام الجزية هو "بداية النهاية"؛ حيث أُرهِق الملوك شعوبهم بالضرائب الثقيلة ليوفروا مطالب الشمال، مما أدى إلى غضبٍ شعبيٍّ عارم وفقدان الثقة في الحكام. تحول ملوك الطوائف إلى أشباح ملوك، يلبسون التيجان فوق رؤوسٍ محنية، ويحكمون شعوباً ترى فيهم سبباً للمذلة. كانت هذه المرحلة هي "فلسفة الانتحار البطيء"؛ حيث استنزف ألفونسو السادس طاقات الأندلس المادية والمعنوية، ممهداً الطريق لحدثٍ سيهز كيان الإسلام في الأندلس للأبد: سقوط طليطلة العظيمة.

في أيار من عام **1085** ميلادية، كانت طليطلة، المدينة التي تجلسُ كعقابٍ ملكيٍّ فوق صخرةٍ شاهقة يطوقها نهر "تاجه"، تشهدُ مشهدَ غروبٍ لم تره منذ أيام القوط. لم تكن الأسوارُ العظيمةُ هي التي انهارت تحت ضربات المنجنيق، بل كانت "الإرادة" هي التي تآكلت خلف الأبواب الموصدة. وقف القادر بن ذي النون، الحاكم الذي ورث ملكاً لم يكن له بأهل، يرقبُ من شرفات قصر "العز" حشود ألفونسو السادس وهي تحيط بالمدينة كقيدٍ من فولاذ. كان القادرُ رجلاً

ضامر العزم، تلمع في عينيه حيرة العاجز الذي قايض كرامة مدينته
بسلامة رأسه.

في ساحة القصر، كان الصمت ثقيلًا إلا من حفيف الريح التي تنوح
في ممرات طليطلة الضيقة. اقترب منه وزيره ابن فرج، وكان وجهه
مسوداً من أثر الحصار الطويل والهّم الجاثم على صدره، ونظر إلى
ألفونسو الذي كان يرتدي خوذته المذهبة تحت الأسوار بزهو
المنتصر.

تحدث القادر بنبرة مرتعشة يغلفها استسلام مهين، وهو يقلب مفاتيح
المدينة بين أصابعه الواهنة:

"يا ابن فرج، لقد ضاق الخناق حتى لم يعد في الصدر متسع لنفسي
واحد. ألفونسو وعدني بالأمان، وبمدينة أخرى (بنسبية) أحكمها
تحت ظله. طليطلة لم تعد تطيق الصمود، والناس يأكلون الحنظل
من الجوع. هل ترى أن تسليم المفاتيح اليوم سيحفظ ما تبقى من
ماء وجوهنا؟"

نظر ابن فرج إلى النهر الذي كان يجري في الأسفل بلامبالاة أزلية،
وأجاب بصوت يقطر مرارة وفلسفة جارحة:

"يا أيها الملك، أيّ وجه سيبقى لنا وقد نزعنا عنه برقع الحياء؟
طليطلة ليست مجرد مدينة تسلمها لتراتح، إنها 'ثغر الأندلس'
وقلبها النابض بالهبة. إذا سقطت هذه الصخرة، انفرط عقد المدن
جميعاً. ألفونسو لا يعطيك بنسبية حياً فيك، بل ليخرجك من هذا
الحصن الذي أعجز أجداده لقرون. إنك لا تسلم المفاتيح يا سيدي،
بل تسلم رقابنا جميعاً، وتضع التاريخ في مهب الريح من أجل سراب
ملك جديد تحت أقدام الطغاة."

أغمض القادر عينيه، وحاول أن يبرر عجزه بكلمات واهنة:

"القدر أقوى منا جميعاً.. وربما كان في هذا التسليم حقن للدماغ."

ردّ ابن فرج بكلمة زلزلت أركان القاعة:

"الدماءُ التي تُحقنُ بالذل، تسيلُ لاحقاً بالهوان. اليوم ستدخلُ صلبانُ ألفونسو من 'باب المردوم'، وستتحول المساجدُ إلى كنائس، ولن يذكركَ التاريخُ إلا بأنك الرجلُ الذي فتح الباب للذئب ليفترسَ القطيع. السيادةُ يا سيدي لا تُوهب، ومن لم يحمِ صخرة طليطلة، لن تحميه رمالُ بلنسية."

في صبيحة الخامس والعشرين من أيار، دخل ألفونسو السادس طليطلة فاتحاً، يمتطي جواداً مثقلاً بالغرور، والصلبانُ ترفعُ فوق مآذنها العريقة. كان مشهداً يخلعُ القلوب؛ المسلمون يخرجون في صمتٍ مريب، والناقوسُ يدقُّ لأول مرة في سماءِ المدينة منذ عام **711** ميلادية.

كان سقوط طليطلة هو "الجرحُ الغائر" الذي لم يندمل؛ فقد انكسر حاجزُ الدفاع الأول عن الأندلس، وصارت سفوحُ الشمال مكشوفةً تماماً. تزلزلت عروشُ ملوك الطوائف في إشبيلية وغرناطة، وأدرك الجميع أن "الجزيرة" التي كانوا يحلمون بها توشك أن تغرق. كانت فلسفةُ السقوط هنا تقول: "إنَّ المدينة التي يسكنها الوهنُ قبل العدو، تسقطُ صلحاً بالخيانة، وتُفتتحُ بالندم". وبسقوط طليطلة، بدأ العدُّ التنازلي لعصر الطوائف، وانطلقت الاستغاثاتُ نحو الضفة الأخرى من المضيق .. نحو شمال إفريقيا.

في عام **1085** ميلادية، وبينما كان غبارُ سقوطِ طليطلة لم يتبدد بعد، كانت إشبيلية تتلأأ كدرةٍ في تاج الأندلس الممزق. هناك، في قصر "المبارك" الذي تداعبُ أسواره أنسامُ الوادي الكبير، كان المعتمد بن عباد يتربعُ على عرشٍ هو الأكثرُ سطوعاً وألماً في آنٍ واحد. كان المعتمدُ رجلاً سُبكت ملامحه من وسامةِ العربِ وعزة

الملوك؛ وجهٌ صبيحٌ تملؤه الهيبة، وعينانٍ تقدحان شعراً وحرباً،
وكانَ القدرَ أراد له أن يكون "ابن امرئ القيس" في عصرِ الشتات؛
ملكاً في النهار، وشاعراً في الليل، ومطارداً بالهموم في كل حين.

لم تكن إشبيلية في عهده مجردَ مدينة، بل كانت "حلمَ الجمالِ الأخير"؛
حيث ازدهرت الفنون، وتنافس الشعراء في ردهات قصره،
وافترشت الأرضُ بالرياض والمنزهات. وقف المعتمدُ يوماً في شرفةِ
قصره المطلّة على النهر، يرقبُ انعكاسَ أضواءِ المدينة على صفحةِ
الماء، وبجانبه زوجتهُ ورفيقةُ دربه اعتماد الرميكية، التي كان يحبها
حباً يفوقُ مملكته.

تحدث المعتمد بنبرةٍ يملؤها الزهو المشوبُ بالمرارة، وهو ينظر إلى
الحشود التي تلهجُ بذكائه وشعره:

"يا اعتماد، انظري إلى إشبيلية.. إنها اليوم سيدهُ الزمان، وقبله
البيان. لقد جعلتُ من قصورنا مناراتٍ للعقول، ومن جيوشنا رداً
لعدوان الإخوة والأعداء. ولكن، ألا تشعرين ببرودةِ الريح القادمة
من الشمال؟ طليطلةٌ قد رحلت، وألفونسو يطالبني بما لا أطيق. إنني
أبسُّ تاجاً مرصعاً بالقصائد، بينما يطالبني الزمانُ بتاجٍ من فولاذٍ
لا يلين. هل يغفرُ التاريخُ لملكٍ جعل من بلاده حديقةً، ونسي أن
يحولها إلى ثكنة؟"

تأملت اعتماد وجه زوجها الذي بدأت خطوطُ القلق ترسمُ فيه ملامحَ
الانكسار القادم، وأجابت بصوتٍ يملؤه الوفاء:

"يا أبا القاسم، إنك ملكٌ بقلبٍ شاعر، وهذا هو سرُّ عظمتك وسرُّ
محنتك. الناسُ يحبونك لأنك منحتهم "الحياة"، والملوكُ يكرهونك
لأنك ملكتِ "القلوب". الذهبُ والقصورُ زائلة، وما يبقى هو هذا النور
الذي غطيت به وجه إشبيلية. لكنَّ الزمانَ يا ملكي لا يرحمُ الرقةَ
في ساعةِ الشدة. إذا كان ألفونسو يطلبُ الروح، فليجدها في نصلِ
سيفك، لا في مدادِ شعرك. إنَّ الملكَ الذي يخشى السقوط،

يسقط قبل الأوان.

ابتسم المعتمد ابتسامة رقيقة، فيها من الشجاعة الصادقة ما يحيي الموات، وردّ وهو يضع يده على مقبض سيفه المذهب:

"لقد وسعت ملكي حتى بلغت قرطبة، وجعلت من بني عباد ذروة الأندلس. لن ينال مني ابن أدفونش" (ألفونسو) إلا ما تناله الرياح من الصخر. سأظلُّ أغرسُ الجمال في إشبيلية، وأبني القلاع على الحدود، حتى يشاء الله أمراً كان مفعولاً. إنَّ قدرِي أن أكون الحارسَ الأخير لهذا الفردوس، ولن أسلمه إلا وأنا مضرجٌ بدمي أو معتزٌ بانتصاري."

كان المعتمد بن عباد يمثل "التناقض الأندلسي العظيم"؛ فهو القائد الذي أخضع المدن المجاورة ووسع نفوذه، وهو الشاعر الرقيق الذي بكى في قصائده فراق الأحبة وذبول الزهر. في عهده، صارت إشبيلية عاصمة "ملوك الطوائف" بلا منازع، ومأرز الأدباء والعلماء. لكنَّ سقوط طليطلة جعل المعتمد يدرك أنَّ "لعبة الجزية" قد انتهت، وأنَّ المواجهة الكبرى قد حانت؛ مواجهة ستجعله يقف أمام أصعب خيارٍ في حياته: الاستسلام لألفونسو، أو الاستجداد بأسود الصحراء خلف البحر.

ينما كانت القلاع تنهاوى في الشمال، كانت الأندلس في عصر ملوك الطوائف تعيش "ربيعاً أدبياً" لا يذبل؛ وكأنَّ الروح الأندلسية، حين أحست بدنو الأجل، قررت أن تترك للعالم أجمل ما في جعبتها من سحر الكلمة وعمق الخيال. لم تكن القصور في إشبيلية وقرطبة وغرناطة مجرد دواوين للحكم، بل استحالت "أكاديميات" مفتوحة، يتسابق ملوكها في استقطاب الشعراء والفلاسفة كما يتسابقون في جمع الذهب. كانت الكلمة في هذا العصر هي السيف الحقيقي،

والقصيدة هي الراية التي لا تُهزم.

وقف الوزير الشاعر ابن عمار في حديقة "الرصافة" بإشبيلية، وكان الهواء يضح الأنفاس بعطر النارج، وبجانبه صديقه الشاعر ابن زيدون، الذي غزا الشيب صدغيه لكن شاعريته كانت تزداد توقداً. كانا يرقبان مجلساً أدبياً يضح بالمساجلات التي تجعل الوقت يتوقف دهشة.

تحدث ابن عمار ونبرة صوته تمزج بين الفخر والأسى، وهو يرقب الموشحات التي تغنى على أوتار العود:

"يا أبا الوليد، انظر إلى هذا التناقض العجيب؛ نحن نغرق سياسياً، ونحلق أدبياً. كل ملك من هؤلاء الطوائف يملك جيشاً واهناً، لكنه يملك ديواناً يزلزل القلوب. لقد صار الشاعر في زماننا هو "السفير" وهو "المحارب". ألا ترى أننا نُجمل الموت بهذه القوافي؟ كأننا نرقص رقصة البجع الأخيرة؛ تلك التي يُقال إنها لا تغني أجمل ألعانها إلا وهي تودع الحياة."

تأمل ابن زيدون قطرات الندى فوق الورد الجوري، وأجاب بصوت يقطر حكمة شجية:

"يا رفيقي، الإبداع هو 'شهقة الخلود' في وجه الفناء. حين تضيق الأرض بالسياسيين، تتسع للادباء. نحن لا نُجمل الموت، بل نثبت أن 'الهوية الأندلسية' ليست حدوداً جغرافية، بل هي 'لغة' و'خيال'. إذا سقطت المدن، ستبقى موشحاتنا وقصائدنا حية في صدور الناس، وستظل قرطبة وإشبيلية حواضر للعقل حتى لو سكنها الغرباء. الفلسفة يا ابن عمار هي أن المادة تفنى والمعنى يبقى، ونحن اليوم نصنع 'المعنى' الذي لن تستطيع خيول الفونسو أن تطأه. فإن عجز الملوك عن حماية الأندلس، فلعل الشعراء يحفظون ذكرياتها و إرثها "

ردّ ابن عمار بابتسامة حزينة، وهو يشير إلى مكتبات القصر

العامرة:

" صدقت ، يا له من سخفٍ أن يقضي ملوكنا ليلهم في نقدِ بيتِ شعر، بينما يُحاصرُ العدوُّ ثغورهم؟ الجمالُ يا صديقي بلا مخالف هو انتحارٌ أنيق. لقد علّما الناسَ كيف يكتبون "الموشحات" ونسينا أن نعلمهم كيف يحرسون الأرض. أخشى أن التاريخ سيذكرنا كأمةٍ ماتت وهي تصفُ الجمال، وذهبت وهي تتغزلُ في ضياعها."

كانت النهضةُ الأدبية في هذا العصر هي "الوهج الأخير" للسراج الأندلسي أو كما يقال "صحوة ما قبل الموت"؛ فبرزت "الموشحات" كفنٍ شعريٍّ مبتكرٍ يمزجُ بين العربية واللاتينية العامية، وازدهرت الفلسفةُ والعلومُ الرياضيةُ والطب. كان ملوك الطوائف، برغم ضعفهم العسكري، أرقى حكام عصرهم ثقافةً؛ فكان المعتمدُ شاعراً، وبنو هودٍ علماء، وبنو ذي النونِ رعاةً للفنون. كانت هذه المرحلةُ هي "فلسفةُ السموِّ الروحي وسط الانحدار المادي"؛ حيث أثبتت الأندلسُ أن الحضارة الحقيقية هي التي تترك أثراً في الوجدان الإنساني، حتى لو غدرت بها تقلباتُ السياسةِ وصروفُ الزمان.

في خريف عام **1086** ميلادية، كانت الأندلسُ تشبهُ غريقاً يرى زبدَ الموج يملأُ فمه، بينما يقفُ "ألفونسو السادس" على الشاطئ ممسكاً بنصلِ الوداع. لم يعد أمام ملوكِ الطوائفِ من ملاذٍ إلا الضفةُ الأخرى؛ حيث تنامُ "الصحراء" خلفَ البحر، ويقظةُ المرابطين الذين وحدوا المغربَ تحت رايةِ الزهدِ والحديد. كان القرارُ بمثابة "استدعاءٍ للقدر"؛ فالمعتمدُ بن عباد ومن معه كانوا يدركون أن دعوة يوسف بن تاشفين، أمير المرابطين، هي دعوةٌ لأسدٍ جائعٍ ليحامي القطيعَ من ذئبٍ غادر، والأسدُ لا يكتفي بحماية الحمى، بل قد يملكه. اجتمع ملوكُ الطوائفِ في قرطبة، وكان الجوُّ مشحوناً برائحةِ الخوفِ

والتردد. وقف المعتمد بن عباد بلامحه التي أضناها السهر، يحيطُ به رفاقه من الملوك الذين اعتادوا ترف القصور، وبجانبه ابنه الرشيد، الذي كان يرمقُ أباه بنظرة تملؤها الحيرة من هذا القرار المصيري.

تحدث الرشيد بصوتٍ مرتعش، يحملُ في طياته تحذيراً لم يغب عن بالِ المعتمد:

"يا أبتِ، أتستدعي "الملثمين" من أقاصي الصحراء ليدخلوا جناتنا؟ هؤلاء قومٌ لا يعرفون لين العيش، ولا يفهمون لغة القوافي. إنهم سيأتون لينقذونا من ألفونسو، ثم يسلبونا عروشنا ويحولوا قصورنا إلى ثكنات. إنني أخشى أن نكون قد هربنا من تحت المطر لنقف تحت الميزاب. أليس هناك طريقٌ آخر غير هذا الانتحار السياسي؟"

ثبت المعتمد نظره نحو البحر الذي يفصله عن ممر الزقاق، وابتسامة حزينة ترتسم فوق شفثيه، وأجاب بتلك الجملة التي خلدها الزمانُ وفلسفتها الأيام:

"يا بني، لقد ضاقت الأرض بما رحبت، ولم يبق لنا إلا الله و الضفة الأخرى. تقول إنهم سيسلبوننا عروشنا؟ فليكن. والله يا بني، لأن أرعى الجمال في صحراء المغرب عند ابن تاشفين، أحب إلي من أن أرعى الخنازير في قشتالة عند ألفونسو. إن ملكاً لا يحميه عدلٌ ولا قوة، هو ملكٌ يستحق الزوال. إذا كان ولا بد من السقوط، فليكن سقوطنا تحت راية التوحيد، لا تحت صليب الذل."

تأمل الرشيد ملامح أبيه التي تجلت فيها عظمة التضحية ومرارة الواقع، وأجاب بصوتٍ خافت:

"لكننا سنفقد كل شيء.. الهيبة، والقصور، والسيادة."

ردَّ المعتمد بوقارٍ مفعمٍ بالشجن:

"الهيبةُ يا بني قد ضاعت يومَ أن دفعنا الجزيةَ صاغرين. والقصورُ ليست إلا جدراناً إذا سكنها الخوف. إننا اليوم نصنعُ "التاريخ" لا "المُلْك". استدعاءُ المرابطين هو الصرخةُ التي ستخبرُ ألفونسو أن الأندلسَ لم تمت بعد، وأن وراءها رجالاً يطلبون الموتَ كما يطلبُ هو الحياة. سأعبرُ إليهم بنفسِي، وسأطلبُ نجدتهم، وليقضِ اللهُ أمراً كان مفعولاً. إنَّ رعيَ الجمالِ في فيافي "أغمات" بكرامة، أبهى في عيني من تيجانٍ تُرصعها المذلة."

تحركتِ السفنُ تحملُ وفدَ ملوكِ الطوائفِ نحو "سبتة"، وكان البحرُ هائجاً كأنما يحذرهم من القادم. هناك، التقى المعتمدُ ب يوسف بن تاشفين؛ ذلك الشيخُ السبعينيُّ الذي يرتدي اللثامَ ويأكلُ الكسرةَ واللبن، ويحكمُ إمبراطوريةً تمتدُّ من الصحراءِ إلى سواحلِ المتوسط. كان لقاءً بين "رقةِ الحضارة" و"قوةِ العقيدة"، بين "المُلْكِ المترف" و"الزهدِ المقاتل".

كان قرارُ الاستنجاد هو "الانعطافُ الكبرى"؛ فبواسطته تأخر سقوطُ الأندلسِ أربعة قرون. وبمقولةِ المعتمد الشهيرة، وُضعت فلسفةُ الانتماءِ فوق فلسفةِ البقاء؛ حيث أدرك أن الهويةَ لا تُباع، وأنَّ الدينَ لا يُساومُ عليه بذهبِ الجزية. انفتحتِ الأبوابُ أمام "أسودِ اللثام"، وبدأتِ طبولُ الحربِ تُقرعُ من مراکشِ إلى إشبيلية.

ينما كان ملوكُ الطوائفِ في الجنوب غارقين في قصائدهم وقلقهم، كانت سرقسطة في أقصى الشمال الشرقي تقفُ كترسٍ وحيدٍ مكسورٍ في وجهِ العاصفة. كانت تُسمى "الثغر الأعلى"، لكنها في عام **1086** ميلادية صارت "الثغر المنزوف". أحاط بها "ألفونسو السادس" بجيوشه كأنها السوار بالمعصم، وأقسم ألا يرحل عنها إلا

وهي في قبضة صليبه. كانت المدينة البيضاء تننُّ تحت وطأة الحصار؛ الجوع ينخرُ في الأجساد، والبردُ القارس يلفحُ الوجوه، والمناجيقُ تنثر الموتَ فوق القباب الرخامية ليل نهار.

داخل الأسوار، كان الملك المستعين بن هود يقف فوق البرج العالي، يرقبُ نيران المعسكرات القشتالية التي تملأ الأفق كأنها نجومٌ سقطت من سماءٍ غاضبة. كان وجهه شاحباً كالقمر في ليلةٍ خسوف، وعيناه مجهدتان من طول السهر. اقترب منه وزيره الحكيم عاقل، وهو يحمل رسالةً مغسولةً بدموع الاستغاثة.

تحدث المستعين بنبرةٍ يملؤها اليأسُ الشريف، وهو يشير بيده نحو خيام الفونسو التي تكاد تلامس ظلال الأسوار:

"يا عاقل، انظر إلى هذه الوحوش؛ إنهم لا يريدون سرقسطة فحسب، بل يريدون اقتلاع جذرنا من هذا الشمال. لقد بعثنا الرسل تلو الرسل إلى إشبيلية وغرناطة، فما جاءنا إلا الوعود والقصائد. هل نسينا إخواننا؟ أم أنهم يظنون أن الجبال الوديان التي تفصلنا عنهم ستحميهم إذا ما سقطت جدراننا؟ إن سرقسطة هي الدرع، وإذا انكسر الدرع، صار الصدرُ مكشوفاً لكل طعنة."

تأمل عاقل الأسوار التي بدأت تظهر عليها شقوقُ التعب، وأجاب بصوتٍ يقطرُ حكمةً مثقلةً بالألم:

"يا أيها الملك، إن ملوك الطوائف في الجنوب قد سكروا بخمر الأمن الكاذب، ولم يدركوا أن الفونسو لا يأكل المدن إلا لقمةً لقمة. سرقسطة اليوم هي "المحك الفلسفي" لوجودنا؛ فإما أن تكون المقبرة التي يدفن فيها طموح الشمال، وإما أن تكون الجنازة التي تسير خلفها بقية المدن. إن استغاثتك يا سيدي ليست مجرد طلب للجنود، بل هي صرخةٌ لإيقاظ "الروح" التي نامت في قصور إشبيلية. إذا لم ينجدنا أخوتنا الآن، فلن يجدوا غداً أرضاً ينتمون إليها."

أطبق المستعين قبضته على حجر السور البارد، وردّ بيقينٍ هزّ وجدان من حوله:

"سأصمدُ في سرقسطة حتى يأكل الناسُ الحجر، أو يأتي فرج الله من وراء البحر. قل للمعتمد في إشبيلية: إن نصل ألفونسو الذي يذبنا اليوم، هو ذاته الذي يُصقل ليزبحكم غداً. إن سرقسطة هي بقية كرامتكم، فإن ضاعت، فلا كرامة لكم في "المبارك" ولا في "الزهراء". الفتحُ بدأ من هنا، والسقوطُ سيبدأ من هنا، فليختر التاريخُ لنا أيّ المصيرين يريد."

كان حصار سرقسطة هو "الإنذار الأخير"؛ فقد أدرك المعتمد بن عباد أن سقوط "الثغر الأعلى" يعني أن الدور قد جاء عليه. كانت الرسائل القادمة من المستعين بن هود هي التي هزت مضجع المعتمد، وجعلته يصرخ بمقولته الشهيرة: "رعي الجمال ولا رعي الخنازير". استحال جرحُ سرقسطة إلى "طاقة عبور"؛ فبينما كان ألفونسو يظن أن المدينة ستسقط بين يديه كثمرة ناضجة، كان يوسف بن تاشفين يضع قدمه في السفينة، معلناً بداية نهاية طموح ألفونسو في معركة قادمة سيخلدها التاريخ.

في تلك الفترة التاريخية، لم تكن الأندلسُ تنبُ من سيوف القشتاليين فحسب، بل كانت تمورُ من داخلها بغضبٍ صامتٍ كغليانِ المرجل. في أسواق قرطبة الضيقة وأزقة إشبيلية الملتوية، غاب الفرخ الذي كان يملأ الساحات، وحلَّ محله وجومٌ ثقيل. كان ملوك الطوائف، في سعيهم لتوفير "الجزية" المذلة لألفونسو السادس، قد استنزفوا دماء الرعية؛ فابتكروا ضرائب ثقيلةً ومكوساً لم يعرفها الناس، حتى صار الرغيفُ حلماً، وكساءُ الأطفالِ عزةً لا تُنال.

في زاويةٍ من سوق "العطارين" بقرطبة، حيث كانت رائحةُ البخورِ

تُصارعُ رائحةَ الفقر، وقف الشيخ يحيى، وهو من بقايا فقهاء قرطبة الصالحين، يرقبُ جباةَ السلطانِ وهم ينتزعون من أرملةٍ هزيلةٍ بقايا دريهماتٍ لم تكن تملك غيرها. كان الشيخ يرتدي ثوباً مرقعاً بكرامةٍ نادرة، وعيناؤه تلمعان بدمع مكظوم. اقترب منه شابٌ يُدعى سعيد، كان يحملُ في نظراته شرراً يوشكُ أن يندلع.

تحدث سعيد بصوتٍ مخنوقٍ بالمرارة، وهو يشير إلى الجباة الذين يبتعدون بصبرٍ المال:

"يا شيخنا، إلى متى نصبرُ على هذا الخسف؟ يملأون قصورهم بالجواري والحريير، ويطعمون "ابن أدفونش" ذهبنا ليحمي عروشهم، بينما نحن نموتُ جوعاً في ظل عدلهم المزعوم. هل فُرضت علينا الجزية مرتين؟ مرةً للعدو في الشمال، ومرةً لهؤلاء الذين يسكنون قصور "المبارك" و"الزهراء"؟ إنَّ سيفَ الجوعِ يا سيدي أمضى من سيفِ ألفونسو."

تنهد الشيخ يحيى، ومسح بلحيته التي غزاها الشيب، وأجاب بصوتٍ يقطرُ حكمةً مثقلةً بالألم و الخذلان:

"يا بني، إنَّ الدولة التي تبني عروشها على أنين الجياع، هي دارٌ بلا سقف. هؤلاء الملوكُ قد غفلوا عن الحقيقة الكبرى؛ أنَّ "العدل" هو الذي يحمي الثغور، لا الذهبُ الذي يُدفعُ للأعداء. لقد استبدلوا بـ "الزكاة" المكوس، وبـ "الكرامة" العطايا. إنَّ هذا الغليان الذي تراه في وجوه الناس هو "نذيرُ الزوال"؛ فالمعدمُ الذي لا يجدُ ما يفقده، هو أخطرُ عدوِّ على الملكِ المترف. إنَّ اللهَ يا بني يُدبِّلُ الدولَ بظلمها، وإن كانت مسلمة."

شدَّ سعيد على قبضة يده، وتساءل بيأس:

"فما المخرجُ إذاً؟ هل ننتظرُ السقوطَ لنستريحَ من الظلم؟"

ردَّ الشيخ يحيى بيقينٍ هزَّ وجدان الشاب:

"المخرج في ذلك 'البحر' الذي يرقبه الجميع. الناس اليوم لا ينظرون إلى قصور ملوكهم، بل ينظرون نحو 'العدوة المغربية'. هناك، خلف الموج، يسكن قومٌ يلبسون الخشن من الصوف ويأكلون القليل، لكنهم يقيمون الشرع ويحمون الحمى. إن يوسف بن تاشفين ليس مجرد قائد عسكري، إنه 'الأمل' الذي تستدعيه دموعُ المقهورين في أندلسنا. غداً، حين يعبرُ المثلثون، لن يجدوا جيوشاً تقاتل معهم فحسب، بل سيجدون قلوبَ هذه الرعية تفرشُ لهم الأرضَ زهراً، لأنهم جاؤوا ليعيدوا للدين عزته، وللفقير لقمته."

كان انتشار الفوضى والضرائب الثقيلة هو "التفسخ الداخلي" الذي سبق السقوط؛ فقد انكسر الرابطُ المقدس بين الحاكم والمحكوم. صار الناسُ يفضلون "قسوة الزهد" المرابطي على "ترف الظلم" في ملوك الطوائف. وباتت الأندلسُ مهياًةً نفسياً وفلسفياً لاستقبال الغرباء الذين يحملون رائحة الصحراء، لأنهم في نظر المقهورين كانوا يحملون أيضاً.. رائحة العدل.

في تلك السنوات العجاف التي سبقت عام **1086** ميلادية، كانت حدودُ الأندلسِ قد استحالت إلى خطوطٍ وهميةٍ يخطُّها العبت؛ فالحصونُ التي بُنيت يوماً لتكونَ دروعاً ضدَّ الشمال، صارت فوهاتٍ موجهةً نحو الصدورِ الشقيقة. لم يعد ملكُ إشبيلية يرقبُ حشودَ قشتالة بالقلق ذاته الذي يرقبُ به تحركاتِ ملكِ غرناطة، وصارَ الجارُ يبيتُ ليله وهو يتحسسُ نصلَ جاره قبل نصلِ الغريب. في هذا التيه السياسي، تلاشتِ الهيبةُ العسكرية، وحلَّت محلها "دبلوماسيةُ الغدر"؛ حيث صار الاستنصارُ بـ "ألفونسو السادس" ضدَّ الأخ المسلمِ تجارةً رائجة، وقرباناً يُقدَّمُ على مذبحِ البقاءِ الزائف.

وقف ابن عمار، داهيةُ إشبيلية ووزيرُ المعتمد، فوق أسوار إحدى

القلاع الحدودية المتنازع عليها مع "بني زيري" في غرناطة. كان المطرُ الخريفِيُّ يغسلُ الحجارةَ السماء، والريحُ تحملُ صدى وقعِ سنابكِ خيلٍ غيرِ بعيدة. وبجانبه، كان القائدُ عروة، الذي أمضى عمره يحرسُ الثغور، ينظرُ بحسرةٍ إلى جيشِ "نصرانيِّ" استقدمهُ المعتمدُ ليعاونه على حصارِ مدينةٍ مسلمةٍ منافسة.

تحدث عروة بصوتٍ يملؤه الاحتقارُ الممزوجُ بالحزن، وهو يشيرُ إلى الفرسانِ القشتاليين الذين يضحكون وسط المعسكرِ الإسلامي:

"يا ابنِ عمار، انظرِ إلى هذا الخزي! كيف سكنت "الخنازيرُ" حظائرنا بعلمنا؟ هؤلاء الذين يشاركوننا الخبزَ والملحَ اليوم، هم الذين ينهبون قرانا في الشمالِ غداً. لقد تلاشتِ الحدودُ يا سيدي، ليس لأن العدوَّ قويٌّ، بل لأننا فتحنا له الأبوابَ ليضربنا بعضنا ببعض. كيف سأقنع جندياً بالثبات، وهو يرى "الصليب" يُرفعُ جنباً إلى جنب مع "الهلال" ليُسقطَ منذنةً في طرفِ البلاد؟"

تأمل ابنِ عمار ملامحه في نصلِ سيفه، وكانت ملامحُ دهاءٍ لا تخلو من وخزٍ ضميرٍ متأخر، وأجاب بنبرةٍ فلسفيةٍ باردة:

"يا عروة، نحن في زمنِ "الضروراتِ المرة". الملوكُ هنا يكرهون بعضهم أكثر مما يكرهون ألفونسو. السيادةُ يا رفيقي صارت صراعاً على رقعةٍ تضيق، ومن لم يتغذَّ بأخيه، تعشى به عدوه. نحن نستعملُ القشتاليين كمخلب، وهم يستعملوننا كجسور. هي لعبةٌ توازناتٍ خطيرة، نكسبُ فيها حصناً صغيراً، ونخسرُ فيها روحاً كبيرة."

ردَّ عروة بكلمةٍ كأنها نبوءةٌ بالسقوط:

"اللعبةُ يا سيدي ستنتهي حين يدركُ المخلبُ أنه أقوى من اليدِ التي تحمله. ألفونسو لا يساعدنا حياً فينا، بل ليضعفنا جميعاً. غداً، حين ننهكُ بعضنا بعضاً، سيأتي لجمعِ الحطام. لقد تلاشتِ الحدودُ الدفاعيةُ من خرائطنا، لأنها تلاشتِ أولاً من قلوبنا. الأخُ صار

غريباً، والعدو صار رفيقاً، وهذا هو تعريف الهاوية."

كانت هذه الفوضى هي "النهاية المنطقية" لعصر الطوائف؛ حيث استنزفت الحروبُ البينيةُ ما تبقى من قوةٍ ومروءة. صار ملوكُ الطوائف "حجاراً" في لعبة شطرنجٍ يديرها ألفونسو السادس ببراعة. وبسبب هذا التنازع، صارتِ الثغورُ نهباً مشاعاً، وافتُقد الأمانُ في الطرقات، ولم يبقَ للأندلس من يحميها من أبنائها، فضلاً عن حمايتها من أعدائها. وبوصول هذا التفكك إلى ذروته، لم يبقَ إلا "المعجزة" لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وهي المعجزة التي كانت تتحضر في الضفة الأخرى تحت اسم "الزلافة".

عصر

المرايطين

في فجر يوم جمعة حزينٍ من تشرين الأول عام **1086** ميلادية، كان سهلٌ "الزلاقة" بالقرب من بطليوس يشبه مرجلاً يغلي بالانتظار. الضبابُ الكثيفُ يلفُّ الأودية كأنه كفنٌ ينتظرُ من يرتديه، وريحُ الشمالِ تهبُّ ببرودةٍ تخرقُ العظام. في جهة الشمال، كان ألفونسو السادس يختالُ في جيشه العرمرم، وقد ملأه الغرورُ حتى أقسمَ أنه سيقاثلُ "الجنَّ والإنس" بهذا الجمع. وفي الجنوب، كان يوسف بن تاشفين، أميرُ المرابطين، يقفُ كالجبلِ الأشم، ملثماً لا يبدو منه إلا عينانِ تشعانِ بنورِ اليقين، وبجانبه المعتمد بن عباد الذي استعاد في هذا اليوم ملامح الفاتحين الأوائل.

كان يوسف بن تاشفين يمتطي جملاً، ويرتدي ثوباً خشناً من الصوف، وبيده درعٌ من جلد اللطم، فبدا وسط ملوك الأندلس المترفين كأنه طيفٌ من زمن الصحابة. اقترب منه المعتمد، وكان ينظرُ إلى طبول المرابطين الضخمة التي بدأ قرعُها يزلزلُ الأرض، فقال بصوتٍ يملؤه الانبهار:

"يا أمير المسلمين، لقد ارتجفت الأندلسُ لقرع هذه الطبول قبل أن يرتجف عدوها. إن خيولنا لم تألف هذا الزئير، وجندنا لم يروا مثل هذا الصمود الصامت في وجوه رجالك. هل تظن أن 'ابن أدفونش' سيصمد أمام هذا الإعصار الذي جئتَ به من أقاصي الصحراء؟"

رفع يوسف بن تاشفين لثامه قليلاً، وخرج صوته رزيناً كأنما ينحطُ في الصخر، وهو يرقبُ حشود الصلبان في الأفق:

"يا ابن عباد، نحن لا نقاتلُ بالطبول ولا بالخيول، بل نقاتلُ بنيةٍ أتينا بها من وراء البحار. ألفونسو جاء يطلبُ أرضكم، ونحن جننا نطلبُ وجه الله. إنَّ الذي نصر القلة في 'بدر' هو الذي سيحكمُ اليوم بيننا وبين هذا الطاغية. لا تنظرِ إلى كثرة حديدكم، فالحديدُ يبردُ حين يحمى وطيئسُ الإيمان. اليوم سيعلمون أنَّ لله جنداً لا يبیتون على ضيم، وأنَّ البحر الذي عبرناه لن يرجعنا إلا منتصرين أو شهداء."

تأمل المعتمد ملامح الشيخ السبعيني الذي لا يهتزُّ له جفن، وأجاب
بنبرة فلسفية تفيض بالشجن:

"أخي في الله يوسف، لقد كنتُ أخشى عبورك، واليوم أخشى أن
يرحل هذا اليوم دون أن أغسل فيه عار سنين الجزية. لقد جعلتني
بقدمك أدرك أنّ "المُلك" ليس قصراً وقصيدة، بل هو موقف يرتعد
له العدو. إذا انكسر ألفونسو اليوم، فلك الفضلُ في بعث الأندلس
من مرقدِها."

انطلقت المعركة كهدير الرعد. كانت طبولُ المرابطين تصمُّ الآذان،
والسيوفُ الحميريةُ تقطفُ الرؤوس ببراعةٍ أذهلت القشتاليين. اقتحم
المرابطون بـ "اللثام" صفوف العدو، فبدوا كأشباح لا ترحم. وحين
رأى ألفونسو حسه الحربي ينهار تحت وطأة هجوم "السودان"
(فرسان حرس يوسف الخاص)، أدرك أنّ شمسَه قد غابت. فرَّ
ألفونسو و بضع مئات من جنده بعد أن كان يقود الآلاف، وترك
وراءه غروره مدفوناً في طين الزلافة.

كانت نتائجُ الزلافة (1086) ميلادية، هي "المعجزة الكبرى"؛ فقد
استعادت الأندلسُ هيبتها الضائعة، وتوقف الزحف النصراني لأكثر
من قرن. غسل هذا النصرُ أدران عصر الطوائف، وأثبت للجميع أنّ
"الروح" متى ما استمسكت بيقينها، صيرت الضعف قوة. وبانتهاء
اليوم، غادر يوسف بن تاشفين الميدان كما دخله؛ زاهداً في الغنائم،
تالياً للقرآن، تاركاً للأندلسيين درساً في أنّ السيادة لا تُنال إلا بحدِّ
الصبر وطهارة النية.

لم يكد غبار "الزلافة" يسكن، حتى عادت الأندلسُ إلى سيرتها
الأولى؛ عاد ملوك الطوائف إلى قصورهم ومجالس لهوهم، وكانَّ
النصر العظيم لم يكن إلا فاصلاً قصيراً في رواية شقاقهم. عادوا

يتنازعون الحصون، ويستنزفون الرعية، بل إن بعضهم أخذ يكاتب ألفونسو من جديد في خفاء. كان يوسف بن تاشفين يرقب هذا المشهد بقلب يملؤه الأسى وروح تأنف الدناءة؛ كان يرى قصوراً تُبنى بالمرمر والذهب، وثغوراً يشكو حراسها الجوع، فغلت في صدره غيرة البدوي الذي لا يرى في الحكم إلا تكليفاً لا تشرifaً.

وقف يوسف بن تاشفين في معسكره بـ "غرناطة" عام **1090**، وكان يحيط به فقهاء الأندلس الذين ضاقوا ذرعاً بملوكهم. كان الأمير المرابطي يلف لثامه بإحكام، وعيناه تنظران بحدة نحو قصور "بني زيري" الشاهقة. اقترب منه القاضي الحكيم أبو بكر العربي، ومعه فتاوى علماء الأندلس والمشرق (ومنهم الغزالي) التي تُبيح خلع هؤلاء الملوك لفسادهم وتضييعهم للبلاد.

تحدث يوسف بن تاشفين بصوتٍ رزين كزئيرٍ مكتوم، وهو يشير بيده الخشنة نحو الأسوار المذهبة:

"يا أبا بكر، لقد جئتُ لأنقذ هذه الدار، فإذا بأهلها يسربون السقف من فوق رؤوسنا. أرأيت ملوكاً يرقصون على جراح أمتهم؟ لقد غسلنا الأرض بدمائنا في الزلافة ليُطهروا هم أنفسهم من أدران الخيانة، فإذا بهم يزدادون غياً. إن هؤلاء ليسوا ملوكاً، بل هم 'قطاع طرق' بأسماء أمراء. هل يرضى الله أن نترك ثغور المسلمين نهياً للروم، وهؤلاء ينفقون أموال اليتامى على القوافي والجواري؟"

أخرج القاضي أبو بكر لفاةً من الجلد، وبصوتٍ يرتجفُ هيبَةً وفلسفة، أجاب:

"يا أمير المسلمين، إن الملك إذا ضيَّع الأمانة، وجبت إزالته

بالحق. هؤلاء القوم قد قطعوا ما أمر الله به أن يُوصل، واستنصروا بغير الله، وأثقلوا كواهل الناس بما لم ينزل به سلطان. إن فتاوى الفقهاء من الأندلس إلى بغداد تقول لك: خذها بقوة الله، فالأرض لمن أحيها بالعدل، لا لمن أخرجها بالهوى. إن السيادة اليوم يا

يوسف ليست تشهياً، بل هي "إنقاذ" للفردوس من السقوط."

تأمل يوسف الفتاوى، ثم نظر إلى جنده "الملثمين" الصامتين خلفه، وقال بيقين هز أركان الميدان:

"والله ما جئت لأخذ درهماً ولا لأبني قصراً، ولكنني لا أترك أندلساً فتحها طارق ويحميها دمي لتضيع في مجالس لهوهم. سأخلع التيجان عن رؤوس لا تقدرها، وسأعيد لأندلس هيبتها تحت راية واحدة. من كان يريد الله والدار الآخرة فليحق بنا، ومن أراد ملكاً زائلاً فبيني وبينه السيف. لقد انتهى زمن "الطوائف"، وبدأ زمن "الأمة"."

وبقرار تاريخي شجاع، انطلقت جيوش المرابطين لتفتح المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى، لا من النصارى هذه المرة، بل من ملوكها المسلمين الذين لم يحفظوا العهد. خلع بنو زيري في غرناطة، وبنو هود في شرق الأندلس، وسقطت عروش كانت تظن نفسها أبدية. كانت هذه اللحظة هي "الجراحة القيصرية" الضرورية لبقاء الأندلس؛ حيث اختفى الشتات وذابت الحدود الوهمية، وانضوت الأندلس تحت لواء إمبراطورية المرابطين العظمى التي تمتد من السنغال إلى سرقسطة. كانت فلسفة التحول تقول: "إن الحق لا يحميه الضعيف وإن كان صاحب حق، والباطل لا يكسره إلا القوي الزاهد الذي لا يرى في الملك إلا وسيلة للحق".

في خريف عام **1091** ميلادية، كانت إشبيلية تتوشح بالسواد، وكأن أشجار النارج على ضفاف "الوادي الكبير" قد قررت أن تذبل حزناً. لم تعد القصور تضح بالموسيقى، بل غصت بزفير الفرسان الملثمين وصمت الرعية المذهولة. خرج المعتمد بن عباد مغلولاً بحديد الأسر، بعد أن صمد صموداً أسطورياً فوق أسوار مدينته، يدافع عن

حلم تهاوى تحت سنايك خيل المرابطين. لم يكن يرتدي تيجانه المرصعة، بل كان يرتدي "الكرامة الجريحة" التي جعلته يقاتل حتى تكسرت النصال على النصال.

سيق المعتمد مع زوجته "اعتماد الرميكية" وبناته نحو السفينة التي ستنقله إلى منفاه الأبدي في المغرب. وقف على ضفة النهر للمرة الأخيرة، ونظر إلى مآذن إشبيلية وقصورها التي بدت في عينه كأطلال حبيب غادر، وبجانبه ابنه الرشيد، الذي كان يرسف في قيوده، وعيناه مسمرتان على ضياع ملكهم.

تحدث المعتمد بنبرة يملؤها الشجن الذي لا تُحيط به القوافي، وهو يرقب مياه الوادي الكبير وهي تجري بلامبالاة أزلية:

"يا بني، انظر إلى هذا النهر.. لقد غسلنا فيه أحلامنا سنين طوال، واليوم يغسل أقدامنا ونحن نغادره غرباء. لقد صدقت حين قلت 'رعي الجمال'، واليوم أساق إلى الصحراء لأرعها فعلاً. هل أخطأت حين استدعيت الأسود لحماية الحديقة؟ أم أن القدر أراد لي أن أدوق مرارة الغربة لأعلم أن الملك ظل زائل؟ إنني لا أبكي على ذهب ضاع، بل أبكي على 'إشبيلية' التي ستنام الليلة تحت لثام لا يعرف رقة أهلها ولا سحر ليلها."

أجهش الرشيد بالبكاء، وخرج صوته مرتعشاً من وطأة الحديد:

"يا أبت.. انظر إلى الناس على الضفاف؛ إنهم يبكون. كيف نرحل مغلولين في أرض كنا نحن سادتها؟ إن ذل الأسر أشد على النفس من وقع السيوف."

أجاب المعتمد بابتسامة حزينة، فيها من عزّة النفس ما يخرس القيد، وردّ بفلسفة مفعمة بالسمو:

"يا بني، لا تبك.. فالقيد في يد الأحرار زينة، والذل ليس في الحديد بل في انكسار الروح. لقد ملكنا فجداً، وقاتلنا فصدنا، واليوم نرحل

وقصائدنا باقيةً في كل بيت. إنَّ يوسف بن تاشفين قد سلَبنا القصور، لكنه لن يسلبنا "الذكر". غداً، حين نكون في "أغمات" وسط الفقر والضيق، سنظِّلُ نحن "بني عباد" الذين جعلوا من الأندلس قصيدةً عالمية. ارفع رأسك، فمن كان التاريخُ خصمه، كفاه شرفاً أنه كان يوماً عظيم الخطر."

أبحرت السفينة، وتوارت إشبيلية خلف الضباب، وانتهت دولة بني عباد بصرخةٍ وداعٍ مزقت قلوب الأندلسيين. نُفي المعتمد إلى "أغمات" (قرب مراكش)، حيث عاش سنواته الأخيرة في كوخٍ بسيط، تنسج له بناته الثياب ليكسبن قوتهن، بينما هو يكتب أعظم قصائد الحنين والندم.

كان نفي المعتمد هو "الجرح الوجداني" الأعظم في تاريخ الأندلس؛ فقد سقط الملك الشاعر ليولد "الشهيد الرمزي" للجمال الأندلسي الضائع. في "أغمات"، تحول المعتمد من حاكمٍ إلى "فكرة"؛ فكرة تقول إنَّ الحضارة المترفة بلا قوةٍ تحميها هي مأساةٌ محققة. وبموته في منفاه عام **1095**، أُغلقت صفحة "ملوك الطوائف" وجاذبيتها الساحرة، لتسيطر "قسوة الصحراء" وصرامة المرابطين على المشهد، ولتبدأ الأندلس رحلةً جديدةً من الصمود تحت راية اللثام الواحد.

في عام **1102** ميلادية، كانت بلنسية، "بستان الأندلس" ومدينة الليمون والنور، تزرخُ تحت وطأةٍ قدرٍ غريب؛ فقد استحالت إلى إقطاعيةٍ خاصةٍ لـ "السيد القنبيطور" (إل سيد)، الفارسُ القشتاليُّ الأسطوريُّ الذي حوّل المدينة إلى جزيرةٍ معزولةٍ عن جسد الأندلس. كان "السيد" يمثلُ روح الشمال المتمردة؛ ملامحه محفورةٌ من كبرياءِ جبال "قشتالة"، وقبضته الحديدية لم تترك لبلنسية متنفساً من حرية.

لكن رحيله المباغت قبل سنوات ترك المدينة في يد أرملة "جيمنا" وجيش يقات على ذكرى شجاعته، بينما كانت خيول المرابطين تتقدم نحو الشرق كطوفانٍ أسود لا يُرد.

حاصر المرابطون بلنسية بقيادة الأمير مزدلي بن تيلكان، وكان الحصارُ يضيقُ يوماً بعد يوم حتى صارَ الهواءُ داخلَ الأسوارِ ثقيلًا برائحة اليأس. وقف الشيخ أبو الحسن، أحد أعيان المدينة الذين شهدوا سنواتِ الذل، يرقبُ من شرفة بيتِه خيولَ المرابطين الملتئمين وهي تملأُ الأفق، وبجانبه حفيده يحيى، الذي لم يولد إلا في ظلِّ احتلال القنبيطور.

تحدث الشيخ أبو الحسن بصوتٍ يتهدجُ من فرطِ الوجد، وعيناهُ تلمعانِ بدموعِ البشارة:

"يا بني، انظر إلى تلك الرايات السوداء؛ إنها تحملُ ريحَ الصحراء التي ستظهرُ بساتيننا من رجبِ الغزاة. لقد ظنَّ "السيد" أن بلنسية صارت ملكاً له ولأبنائه، ولم يدرك أن هذه الأرض تلفظُ الغريب مهما طال بقاؤه. اليوم نرى نهايةَ الأسطورة التي أخافوا بها قلوبنا سنين طوالاً. انظر إلى أرملة وجيشه؛ إنهم يتهيئون للرحيل تحت جنح الليل، لأنهم أدركوا أن "الملتئمين" لا ينامون على ضيم، ولا يبيعون الأرض بذهب الجزية."

تأمل يحيى حركةَ الجند القشتاليين وهم يجمعون أمتعتهم ويحرقون ما عجزوا عن حمله، وتساءل بنبرة يملؤها الدهول:

"يا جدي، هل سيرحلون حقاً؟ هل سنسمعُ الأذانَ مرةً أخرى من فوق مآذن "الجامع الأعظم"؟ أشعرُ أنني في حلمٍ يوشكُ أن يتبخر."

أجاب الشيخ أبو الحسن وهو يضعُ يده المرتجفة على كتف الصبي، ونبرتهُ تفيضُ بوقارٍ فلسفيٍّ عميق:

"نعم يا بني، سيرحلون ولن يعودوا. إنَّ القوةَ التي تقومُ على "الفرد"

تموت بموته، أما القوة التي تقوم على "العقيدة" فهي تتجدد بتجدد الأجيال. "السيد" كان شبحاً يطاردنا، واليوم يطرده الحق. إن استعادة بلنسية هي إعلان بأن شرق الأندلس قد عاد لنبض الجماعة، وأن عهد التجزئة قد ولى. غداً، حين تدخل خيول ابن تاشفين، سيعلم العالم أن الأندلس جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له الصحراء بالنجدة."

انسحب القشتاليون بعد أن أضرموا النار في أجزاء من المدينة، ودخلها المرابطون في مايو **1102**. كان مشهداً هزّ وجدان التاريخ؛ حيث اختلطت صيحات التكبير بزغاريد النساء اللواتي خرجن لاستقبال "أسود اللثام". عاد الجامع الأعظم ليصدح بذكر الله، وعادت بلنسية لتكون ثغراً إسلامياً حصيناً يحرس شواطئ البحر.

كانت استعادة بلنسية هي "الانتصار الرمزي الأكبر" للمرابطين بعد الزلافة؛ فقد أثبتوا أنهم قادرون على استرداد ما ضاع، وليس فقط حماية ما بقي. وبتحريرها، انحسرت أسطورة القشتاليين في الشرق، وعاد الأمان للمزارع والبيوت. كانت فلسفة العودة هنا تقول: "إن الحق المنهوب لا يضيع إذا وجد خلفه سيفاً لا ينام، وإن الغاصب مهما بنى من حصون، فإنه يبني فوق رمال متحركة، طالما أن صاحب الأرض لم ينس ملمس مفتاحه."

في أيار من عام **1108** ميلادية، كان سهل "أقليش" يرتدي حلة من العشب المضمخ بدماء التاريخ؛ حيث تقابل الجمعان في ملحمة لم تكن تطلب الأرض فحسب، بل كانت تطلب كبرياء الملوك. وقف الأمير المرابطي تميم بن يوسف بن تاشفين في طليعة "أسود اللثام"، وبجانبه القائد الفذ مزدلي بن تيلكان، وكان غبار الصحراء لا يزال يعلق برياتهم السوداء. وفي المقابل، كان الجيش القشتالي يزهو

بخيوله الثقيلة، يقوده الأميرُ الصبيُّ "سانشو"، الابنُ الوحيدُ والوارثُ الأوحدُ لعرشِ ألفونسو السادس، يحيطُ به سبعةٌ من كبارِ الكونتات الذين أقسموا على حماية مملكتهم.

كان "سانشو" يبدو في درعه الفضيِّ كأنه أيقونةٌ من زجاج، وجهه يفيضُ ببراعةِ الشبابِ التي لم تدرك بعدُ قسوةَ صليلِ السيوفِ المرابطية. وقف الشيخُ الحكيمُ أبو الوليد، أحدُ مرافقي الجيشِ المرابطي، يرقبُ الميدانَ بنظرةٍ فلسفيةٍ نافذة، وهو يرى اضطرابَ صفوفِ القشتاليين أمام ثباتِ الملتئمين.

تحدث أبو الوليد وصوته ينسابُ كوقارِ القدر، وهو يشيرُ إلى رايةِ الأميرِ "سانشو" التي تتوسطُ الميدانَ:

"يا تميم، انظر إلى ذلك الصبيِّ؛ إنَّ ألفونسو قد ألقى بفلذةِ كبده في أتونِ نارٍ لا تُبقي ولا تذر. إنه يظنُّ أنَّ الأسماءَ الكبيرة تحمي أصحابها في ساحِ الوغى، ولا يدرك أنَّ "أقليش" اليوم هي ميزانُ العدلِ الإلهي. لقد أذاق ألفونسو أمهاتِ المسلمين مرارةَ الفقدِ سنين طوالاً، واليوم يسوقه القدرُ ليتجرعَ من الكأسِ ذاتها. إنَّ غبارَ المعركةِ اليوم سيكتبُ نهايةَ حلمِ قشتاليِّ استبدَّ بالأرض، وسيعلمُ الملكُ العجوزُ في طليطلة أنَّ دماءَ الأبرياءِ لا تضيعُ هباءً."

انفجر الميدانُ بصيحاتِ التكبير، واقتحم المرابطون ببراعةٍ قتاليةٍ مذهلة، فاستحالَ السهلُ إلى مقبرةٍ للأبهةِ القشتالية. سقط الكونتاتُ السبعةُ الواحدُ تلو الآخر وهم يزودون عن أميرهم الصغير، حتى هوى "سانشو" عن جوادهِ صريعاً، لتختلطَ دماءُ الملوكِ بترابِ الأرضِ المشاع.

وفي قصرِ طليطلة، كان ألفونسو السادس يرقبُ الأفقَ بعينينِ كلَّهما البياض، ينتظرُ بشارةَ النصرِ من ابنه الحبيب. وحين دخل عليه أحدُ الناجين وهو يجرُّ أذيالَ الخيبة، وعيناهُ تفيضانِ بالدمعِ والخرس، أدرك الملكُ العجوزُ هولَ الفاجعة.

تحدث ألفونسو بصوتٍ متهدجٍ مكسور، وهو يقبضُ على ذراعي كرسِيهِ المذهبِ حتى كادت عروقه تنفجر:

"أين ابني؟ أين سانشو؟ أين السبعة الذين وهبتهم عمري ليحموا عهدي؟ هل تلاشت مملكتي في ضبابٍ 'أقليش'؟ أجبني يا هذا، ولا تتركني نهباً لظنوني التي تنهشُ قلبي."

أجاب الرسولُ وهو ينكسُ رأسه ذلاً:

"يا مولاي.. لقد قتل الأمير، و قتل معه الحرس، ولم يبقَ من جيشك إلا حكاية حزنٍ ستتلوها الأجيال. 'أقليش' اليوم صارت رحماً للموت، ولم يترك لنا 'الملثمون' فيها إلا الحسرة."

أغمض ألفونسو عينيه، ومال برأسه جانباً، وتمتم بكلماتٍ كانت هي "المرثية الأخيرة" لكبريائه:

"لقد هزموني في 'الزلاقة' فسلمتُ، وهزموني في 'أقليش' ففقدتُ نفسي. اليوم لم ينكسر جيشي فحسب، بل انكسر مستقبلتي. يا ليتني كنتُ تراباً في 'سيمانقة' ولا أعيشُ لأرى تاجَ قشتالة يتيماً بلا وارث. المرابطون ليسوا بشراً، إنهم 'قضاء' سلط على رأسي ليمحو كلَّ ما بنيت."

كانت معركةً أقليش هي "الضربة القاضية" لآمالِ ألفونسو السادس؛ فقد مات بعدها بكسرة قلبٍ و عامٍ واحد. لم تكن مجردَ نصرٍ عسكريٍّ، بل كانت تحطيماً للعمودِ الفقريِّ للمقاومةِ القشتاليةِ لجيلٍ كامل. استعاد المرابطون هيبةَ الثغور، وثبتوا أقدامهم في قلبِ الأندلسِ كقوةٍ لا تُقهر. وبموتِ "سانشو"، دخل الشمالُ في فوضىِ المواريث، بينما بقيت الأندلسُ تحت لواءِ المرابطينِ كإمبراطوريةٍ وارفةِ الظلال، تحرسها ذكرى "أقليش" وصهيلُ خيولِ النصرِ المتجدد.

بينما كانت خيول المرابطين تزهو بانتصاراتها في أندلس الرخام، كان هناك في قلب جبال الأطلس الشاهقة، حيث يعانق الصخرُ السحاب، صمتٌ يسبقُ الزلزال. في عام **1121** ميلادية، عاد رجلٌ يُدعى **محمد بن تومرت** من رحلةٍ طويلةٍ في المشرق، حاملاً في جعبته علماً غزيراً، وفي قلبه نقمةً على ما رآه من "ترفٍ" بدأ يتسللُ إلى حياة المرابطين. لم يكن ابن تومرت يملك جيشاً، بل كان يملكُ "عصاً" يضربُ بها المنكر، ولساناً يقطرُ بلاغةً صلبة، ونظرةً تخترقُ الروحَ لتبحثَ عن شائبِ الشرك.

استقرَّ ابن تومرت في قرية "تينمل" الحصينة، بين قبائل "مصمودة" الأشداء، وبدأ يدعو لنفسه بلقب "**المهدي المنتظر**". كان رجلاً ضامراً الجسد، شاحب اللون من كثرة الصيام، بعينين غائرتين تلمعان ببريقٍ يمزجُ بين القداسة والحدّة. وقف يوماً على صخرةٍ تطلُّ على الوديان السحيقة، يحيطُ به تلميذه المخلص والساعد الضارب **عبد المؤمن بن علي**، وهو شابٌ يمانِي الأصل، قويُّ البنية، ذو جبهةٍ عريضةٍ تنطقُ بالقيادة.

تحدث ابن تومرت ونبرةً صوته تخرجُ حادةً كأنها نصلٌ يُشحذ، وهو يشيرُ إلى البعيد حيث تقعُ مراکش، عاصمة المرابطين:

"يا عبد المؤمن، انظر إلى تلك القصور؛ لقد أضاع المثلثون

لثامهم في خمرة الأندلس ونعيمها. جاؤوا من الصحراءِ براءً من الدنيا، فغرقوا في رخام قرطبة وموشحاتها، وتركوا "توحيد الله" ليقعوا في التجسيد والظنون. إنَّ الدولة التي تتركُ جلال المبدأ لجمال المادة هي دولةٌ قد حان وقتُ اقتلاعها. نحن اليوم لا نطلبُ ملكاً، بل نطلبُ "التوحيد" الخالص؛ لنظهر الأرضَ من بدعهم، ونعيدُ للإسلام وجهه الحجري الصارم."

تأمل عبد المؤمن بن علي حشود القبائل التي بدأت تتجمعُ حول "المهدي" بايمانٍ مطلق، وأجاب بصوتٍ يملؤه التصميمُ الفلسفي:

"يا إمامي، إنَّ القلوبَ قد ظمئت لعدلٍ لا يحابي، ولدينٍ لا يداهن. المرابطون صاروا عظاماً نخرةً في ثيابٍ فاخرة، وجبالِ الأطلسِ اليوم تلدُّ رجالاً لا يعرفون إلا "الله" و"الامتثال". إنَّ الفكرةَ التي غرستها في نفوسنا قد أئبعت موتاً في سبيلِ الله، وسنجعلُ من صمتِ هذه الجبالِ صرخةً تهدمُ أسوارَ مراکش وقرطبة معاً."

ابتسم ابن تومرت ابتسامةً باردة، فيها من زهدِ الأنبياءِ وقسوةِ المحاربين الكثير، وردَّ بيقينٍ هزَّ أركانَ تينمل:

"يا عبد المؤمن، إنَّ الحقَّ إذا قام، لم يقم له شيء. نحن "الموحدون"؛ جنبنا لنردَّ الناسَ إلى صفاءِ العقلِ ونقاءِ التوحيد. غداً، حين تنزلُ هذه الجموعُ من الجبال، لن يجدَ المرابطون ما يقابلونها به؛ لأنهم يقاتلون من أجلِ بقائهم، ونحن نقاتلُ من أجلِ بقاءِ "الله" في القلوب. القوةُ ليست في كثرةِ الخيل، بل في صحةِ الدليلِ وحِدَّةِ النصل."

كان ظهور حركة الموحدين هو "بداية النهاية الدرامية" للمرابطين؛ فقد انقسمت الجبهة الإسلامية في المغرب إلى نصفين متصارعين. لم يعد المرابطون يرقبون حدود الأندلس بالقلق ذاته الذي يرقبون به قمم الأطلس. كانت فلسفة الموحدين تقوم على "التطهير بالدم" والعودة للأصول الصارمة، مما جعل الصراع مع المرابطين صراعاً وجودياً لا يقبل أنصاف الحلول. وبانطلاق أولى حملات الموحدين نحو السهول، بدأ العدُّ التنازلي لإمبراطورية اللثام، لتبدأ الأندلسُ فصلاً جديداً من القلق، حيث ستجدُ نفسها بين سندانِ النصرى في الشمال، ومطرقة الثورة الموحدية في الجنوب.

في كانون الأول من عام **1118** ميلادية، كانت سرقسطة، "المدينة البيضاء" التي تزهو بمرمرها فوق ضفاف نهر "إبيرو"، تتلغع بضباب بارد كأنه أنفاس الموتى. لم تكن الأسوار هي التي خذلت أهلها، بل كان "الزمان" الذي استدار ظهره للتغر الأعلى؛ فبينما كان المرابطون يغرقون في دماء حروبهم مع الموحدين في أدغال الأطلس، تُركت سرقسطة وحيدة تواجه إعصار "ألفونسو المحارب"، ملك أراغون، الذي حاصرها بجيوش لا تعرف الكلال ومناجيق لم تترك حجراً في مكانه.

بعد حصار دام سبعة أشهر، أكل فيها الناس جلود الخيل وورق الشجر، فُتحت الأبواب لا عنوة بل "استسلاماً للقدر". وقف الوالي المرابطي عبد الله بن مزدلي على شرفة القصر الجعفري، يرقب خروج آلاف المسلمين في طوابير طويلة، يجرون خلفهم ذكريات أربعة قرون من المجد، وبجانبه المؤرخ الشاب ابن الفخار، الذي كان يدون بدموعه مشهد الوداع الأخير.

تحدث ابن مزدلي بصوت يملؤه انكسار الفرسان، وهو يرى صليب أراغون يُرفع فوق منذنة الجامع الأعظم:

"يا ابن الفخار، انظر إلى هذا البيض الذي يُغادره الضياء. سرقسطة اليوم تخلع ثوبها الإسلامي لترتدي صمت الغرباء. لقد حميناها بصدورنا حين كان للمرابطين قلب واحد، وضاعت منا حين تفرقت القلوب بين مراکش وتينمل. هل يغفر الله لأمة أضاعت ثغرها الأكبر" لأنها انشغلت بتصفية حسابات "التوحيد" والفقهاء؟ إنني أرى في رحيلنا اليوم رحيلاً لا عودة بعده؛ فمن فقد سرقسطة، فقد مفتاح الشمال للأبد."

تأمل ابن الفخار حشود المهاجرين وهم يحملون مفاتيح بيوتهم ومصاحفهم، وأجاب بنبرة فلسفية تفيض بالأسى:

"يا سيدي، الأرض لا تخون، لكنها تأبى أن تسكنها أمةً افترقت كلمتها. سرقسطة كانت 'الدرع'، وبسقوطها انفتحت خواصر الأندلس لكل طعنة. انظر إلى هؤلاء الناس؛ إنهم يرحلون بأجسادهم، لكنّ أرواحهم ستبقى معلقةً في غرف هذا الرخام الأبيض. إن المأساة يا سيدي ليست في ضياع الحجر، بل في 'اليتيم' الذي سيشعر به كل مسلمٍ في الأندلس بعد اليوم، حين يدرك أنّ الشمال قد صار غابةً من الصقيع، لا يؤمن فيها جانب."

أطبق ابن مزدلي يديه على سيفه المنكسر، وردّ بيقينٍ حزين:

"لقد انتهى عهدُ الثغور الكبرى، وبدأ عصرُ الانكماش. غداً، سيزحفُ أراغون نحو إبرة وبلنسية، ولن يجدوا أمامهم إلا مدناً أو هنها الشقاق. وداعاً يا سرقسطة.. وداعاً يا بيضاء الأندلس. لقد كنا لك حراساً، فصرنا لك عابرين."

كان سقوط سرقسطة عام **1118** م هو "المنعطف التراجيدي الأول" في عصر المرابطين؛ فقد كانت الخسارة الأولى لمدينة رئيسية منذ الزلافة. وبضياعها، انكشفت حدود الأندلس الشمالية بشكلٍ دائم، وفقد المسلمون السيطرة على حوض نهر "إيبرو". كانت فلسفةُ السقوط هنا تقول: "إن الثغور لا تحميها الأسوار إذا كانت العاصمة (مراكش) تننُّ من الفتنة". وبخروج آخر جندي مرابطي من سرقسطة، انطفأ سراج الشمال، وبدأت الأندلس تدرك أن "زمن القوة" المرابطية بدأ يفسحُ المجال لـ "زمن الانكسار".

في حزيران من عام **1120** ميلادية، لم تكن شمسُ "كتندة" (جنوب سرقسطة) تمنحُ الدفء، بل كانت تصبُّ لهيبها فوق دروع المرابطين كأنها تعاتبهم على تفريطهم في الثغور. كان جيشُ المرابطين، بقيادة

الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، يضمُّ زبدهَ فرسانِ الصحراءِ ووجوهَ الأندلس، وقد جاءوا بنيةٍ واحدة: استعادة "سرقسطة" والرد على صلف "أفونسو المحارب". كان الجيشُ يبدو كبحرٍ هائجٍ من اللثامِ الأسود، لكنَّ القلوبَ من تحتِ الدروعِ كانت مثقلةً بأخبارِ ثورة الموحدين التي بدأت تنهشُ عاصمةَ ملكهم في مراكش.

أمامهم، كان "أفونسو المحارب" قد صفَّ جيوشه كأنها جدرانٌ من صخرٍ صوان، يحدوهُ غرورٌ من فتحِ سرقسطة قبل عامين. وقف القائدُ المرابطي علي بن مجور بجانب الأمير إبراهيم، وكان يرقبُ الغبارَ المتصاعد من خيولِ النصارى، ونبرةُ صوته تشي بقلقي وجوديِّ دفين.

تحدث علي بن مجور وهو يمسحُ العرقَ عن جبينه المصبوغِ بسمرة الصحراء:

"أيها الأمير، انظر إلى هؤلاء؛ إنهم يقاتلون بروح جديدة، كأنَّ سقوطِ سرقسطة قد نزعَ الخوفَ من صدورهم. ونحنُ اليوم، نقاتلُ وأعيننا تلتفتُ نحو مراكش؛ فالمحاربُ لا يثبتُ قدمه إذا كان بيتهُ يحترقُ خلفه. أخشى أنَّ 'كتندة' اليوم لن تكون زلاقةً ثانية، بل ستكونُ مرآةً لضعفنا الذي بدأ يطلُّ برأسه. هل ترى هؤلاء المثلثين؟ إنهم لا يزالون يملكون الشجاعة، لكنهم فقدوا 'البصيرة' التي جعلت من آبائهم أسياداً للميدان."

أطبق الأمير إبراهيم بن يوسف قبضته على لجام فرسه، وردَّ بصوتٍ يحاولُ استعادة هيبتهِ والده تاشفين:

"لا تقل هذا يا ابن مجور! نحن جنودُ الله، وما جننا إلا لنعيدَ الحقَّ لنصابه. أفونسو لا يملكُ إلا حديداً، ونحنُ نملكُ ديناً وصحراءَ علمتنا الصبر. غداً حين تلتقي الرماح، سيعلمُ المحاربُ أنَّ المرابطين لا يزالون الأسود التي تحمي العرين. إنَّ النصرَ يُخلقُ من رحمِ الشدة، وكتندةُ ستكونُ الشاهدة."

لكنّ الميدان كان له رأيٌ آخر. اندلعت المعركة، وصدّم النصارى صفوفَ المرابطين بصدمةٍ لم يسبق لها مثيل. تضععت الصفوف، وتاهت القيادةُ في زحامِ الميدان، وسقط آلافُ المرابطين تحت نبال الأراغونيين. كانت هزيمةً ساحقة، لم تكسر الجيشَ فحسب، بل كسرت "أسطورة المرابطين" الذين لا يُهزمون.

كانت نتائج معركة كتندة "الرصاصة التي أصابت قلبَ الدولة المرابطية"؛ فقد تأكّد ضياعُ الشمالِ للأبد، وانهارت هيبةُ المرابطين في أعين الأندلسيين الذين بدأوا يتساءلون: "إذا كان هؤلاء لا يحموننا من الروم، فلماذا نصبرُ على غلظتهم؟". وبانتهاء هذا اليوم، انفجرت الثوراتُ الداخلية، وبدأ ملوكُ الطوائفِ الصغارُ يطلون برؤوسهم من جديد، مدركين أنّ سيفَ مراكش لم يعد قاطعاً كما كان.

في عام **1144** ميلادية، كانت الأندلسُ تغلي كمرجلٍ وُضع فوق نارٍ من الحقد والندم. لم يعد المرابطون في أعين الناس تلك "الأسود المثلثة" التي جاءت لتتنقذ العرض والدين في الزلافة، بل صاروا يُرون كقوةٍ احتلالٍ خسنة، أعجزها الدفاع عن الثغور وأنهكها جباية المكوس. وبينما كان العرشُ في مراكش يترنح تحت ضربات الموحدين، كان "الثوار" في الأندلس يخرجون من كل فجٍّ، يرفعون راية العصيان ضد "الغريب" الذي لم يعد يحمي الحمى.

انفجرت الثورة في "قرطبة" على يد القاضي حمدين بن محمد بن حمدين، الذي نصبه أهلها أميراً عليهم، وفي غرب الأندلس (شنتمرية الغرب) برز ابن قسي بحركته "المريدين"، كأنه طيفٌ من الموحدين نبت في أرض الأندلس. كانت المدنُ تسقطُ من يد المرابطين كجنودٍ نخرها السوس، ليس بقوة السيف دائماً، بل بصرخة "الرفض" التي دوت في الأسواق والمساجد.

وقف القائد المرابطي يحيى بن غانية، الذي كان يمثل بقية الصرامة والوفاء في هذا العصر، فوق أسوار إشبيلية يرقبُ الجموع الهائجة في الأسواق. كان وجهه المحفور من ريح الصحراء يبدو كأنه قطعة من أثرٍ قديم وسط عالمٍ يتغير بسرعة مذهلة. وبجانبه، كان الفقيه أبو الوليد، الذي كان يرى في هذا التمزق نذيراً بالشؤم.

تحدث ابن غانية بصوتٍ يملؤه الحزنُ الذي يسبقُ العاصفة، وهو يشير بيده نحو الحشود التي تهتف بسقوط المرابطين:

"يا أبا الوليد، انظر إلى هؤلاء.. لقد استدعى أبأؤهم جدي يوسف بن تاشفين بالدموع والزغاريد، واليوم يطردوننا باللغات والحجارة. هل تغيرنا نحن؟ أم أنّ الأرض هي التي مَلَّتْ لنا منا؟ إننا لم نعد في أعينهم 'المنقذين'، بل صرنا 'العائق' أمام أطماعهم الصغيرة. إنهم يثورون علينا وهم يعلمون أنّ الروم على الأبواب، فهل جنّ الناسُ أم أنّ العدل قد رحل عنا فرحلوا منا؟"

تأمل أبو الوليد ملامح الغضب في الوجوه، وأجاب بنبرةٍ فلسفية تقطر حكمةً مرة:

"يا يحيى، إنّ الشعوب كالبحر؛ تحملك فوق أكتافها حين تراك سفيراً لآمالها، وتبتلعك حين تراك قياداً على أحلامها. المرابطون يا بني قد شاخوا في عيون الأندلسيين؛ فقد أضاعوا هيبة 'الزلاقة' في دهاليز 'كتندة'، واستبدلوا خشونة الصحراء بنعومة القصور دون أن يمتلكوا رقة أهلها. الناسُ لا يثورون عليك لأنك 'غريب'، بل لأنك غريبٌ 'عاجز'. حين عجزتم عن حماية سرقسطة، سقطت هيبتكم في قرطبة. الثورة اليوم هي 'صرخة اليتيم'؛ يبحثون عن منقذٍ جديد لأن المنقذ القديم قد صار جزءاً من المشكلة."

ردّ ابن غانية وهو يشدُّ على مقبض سيفه بيأس:

"ولكنهم يفتتون البلاد مرة أخرى! سيعود عصر 'الطوائف' من

جديد، وسيدبهم الروم فرادى كما فعلوا من قبل. ألا يدركون أننا
الجدار الأخير بين الأندلس والفاء؟"

أجاب أبو الوليد بكلمةٍ زلزلت كيان القائد:

"الجدارُ يا يحيى إذا تشقق من الداخل، لا يسنده حديد الخارج. لقد
انفرط عقدُ الولاء، وصار كلُّ صاحبِ حصنٍ يرى في نفسه ملكاً.
نحن الآن في 'فترة الفوضى'؛ حيث يهربُ الناسُ من قسوة النظام
إلى حرية الخراب. الأندلسُ اليوم تبحث عن 'روح' جديدة، ويبدو
أنَّ زمنكم قد استوفى أيامه، وما هذه الثورات إلا 'مخاضٌ' لوليدٍ
جديد، قد يكون أشد منكم قسوة، أو أسرع منكم زوالاً."

كان ضعف الإدارة وانفصال الثوار هو "الخريف المر" للدولة
المرابطية في الأندلس؛ حيث فقدت السيطرة المركزية، وتحولت
البلاد إلى "إقطاعيات ثائرة" تتنازعها الأهواء. استغل النصارى هذا
التمزق ليبدأوا عصر "الاسترداد الثاني" بقوة، بينما كان المرابطون
يجمعون بقايا أسيانهم للرحيل نحو المغرب، ليدافعوا عن عاصمتهم
المحصرة "مراكش". كانت هذه المرحلة هي فلسفة "انتحار الوفاء"؛
حيث انقلبت الأندلسُ على من أنقذها يوماً، ممهدةً الطريق لميلاد
عصر "الموحدين" الذين سيعبرون البحر لا كمنقذين بطلب، بل
كفاتحين بفرض.

في نيسان من عام **1147** ميلادية، كانت مراكش، "الحمراء" التي
نبنت من قلب النخيل لتكون تاجاً للمرابطين، تشهدُ فصولَ مأساتها
الأخيرة. لم تكن الأسوارُ العظيمة التي بناها يوسف بن تاشفين كافيةً
لصدِّ طوفانِ الموحدين الذين انحدروا من قمم الأطلس كقدرٍ لا يُرد.
كان الحصارُ قد أهلكَ الحرثَ والنسل، وصار الهواءُ في المدينة يفوحُ
برائحة الموتِ والترقب. في القصرِ العتيق، كان الأمير الشاب

إسحاق بن علي، آخر ملوك المرابطين، يقف بلامحه الغضة التي لم تنضجها المعارك، يرقب من الشرفات العالية رايات الموحدين البيضاء وهي تملأ الأفق.

كان الأمير إسحاق طفلاً في ثياب ملك، يحيط به ما تبقى من القادة الذين نخر اليأس في قلوبهم. اقترب منه وزيره ونائبه ابن عطية، وهو ينظر إلى أسوار المدينة التي بدأت تنهار تحت وطأة الضربات، فقال بنبرة يملؤها الحزن الشفيف:

"يا مولاي.. لقد أزفت الآزفة. الموحدون على الأبواب، والناس في الداخل قد أسلموا أمرهم للقضاء. لم يعد السيف يغني عنا شيئاً أمام قوم يرون في قتلنا تقرباً إلى الله. هل أعددت نفسك لهذا الوداع؟ إن مراكش التي كانت حلم أجدادك، تتهيأ الليلة لتكون ضريحاً لمجدنا."

تحدث الأمير إسحاق وصوته يرتجف كوتر مشدود، وهو يلمس لثاماً وضعه فوق وجهه ليُشبه أجداده العظماء:

"يا ابن عطية، هل هذه هي النهاية؟ هل يرحل المرابطون كما يرحل الغبار في ريح العاصفة؟ لقد فتحنا الأندلس، وحمينا حياض الإسلام سنين طوالاً، فكيف ننتهي هكذا، نُذبح في عقر دارنا وعلى يد إخواننا؟ أرى في أعين هؤلاء الموحدين حقداً لا يشبه قسوة الروم، كأنهم لا يطلبون الأرض بل يطلبون محو ذكرنا من الوجود."

أجاب ابن عطية وهو يغرس نظراته في الأفق الدامي، بنبرة فلسفية تقطر مرارة:

"يا أيها الأمير، إن الدولة كالإنسان؛ تُولد قويةً بزهداها، وتموتُ عليلَةً بترفها. المرابطون يا بني قد انتهوا يوم أن نسي أحفاد يوسف بن تاشفين طعم الكسرة واللبن، وعشقوا الرخام والمناديل المعطرة. الموحدون اليوم هم "الصحراء" التي عادت لتأكل "الحديقة". نحن

اليوم ندفعُ ثمنَ خريفنا؛ فالأرضُ لا تستقرُّ تحت قدمٍ من يميلُ قلبه
للراحة. رحيلُ مراكش الليلة هو إعلانُ بأنَّ "زمن اللثام" قد انقضى،
ليعقبه "زمنُ الظهر" المزعوم الذي يحمله هؤلاء الجبليون."

انفجرتِ الأبوابُ تحت وطأة الهجوم، واقتحم الموحدون القصرَ
كالإعصار. دخل عبد المؤمن بن علي، خليفة الموحدين، يقوده
غضبٌ مقدسٌ وصارم. وقف الأميرُ الصغير إسحاق أمامه، يطلبُ
الأمانَ بعينين دامتين، لكنَّ لغةَ السيادة الجديدة لم تكن تعرفُ الرحمةَ
بالقديم. قُتل إسحاق، ومعه انطوت صفحة المرابطين للأبد.

كان سقوط مراكش هو "الخشوف الأكبر" في سماء المغرب
والأندلس؛ فقد انتهت الدولة التي أنقذت الإسلام في الأندلس لقرنٍ من
الزمان. وبموت آخر أميرٍ مرابطي، أصبحت الأندلس "يتيمة" مرةً
أخرى، تتقاذفها ثوراتُ الثوارِ وأطماعُ النصارى، حتى عبر
الموحدون البحرَ ليجمعوا الشتاتَ من جديد تحت رايةٍ أكثر قسوةً
وأشدَّ انضباطاً. كانت فلسفةُ الزوال تقول: "إنَّ مَنْ استمدَّ قوته من
الزهد، يزول بزواله، وإنَّ العروشَ التي تُبنى على هيبة الفاتحين،
تنهارُ حين يعجزُ الأحفادُ عن حملِ أمانةِ الأجداد."

عصر

س

الموحدين

في عام **1147** ميلادية، كانت الأندلسُ تشبهُ سفينةً تائهةً مزقت الرياحُ أشرعتها؛ فبعد انهيار هيبة المرابطين، عادت المدن لتغرق في "فتنة ثانية"، حيث استبدَّ بكل مدينةٍ ثائرٌ يرى في نفسه ملكاً، بينما كانت خيولُ النصارى تنهبُ الأطراف بلا رادع. وفي تلك اللحظة الحرجة، بدأت السفنُ الموحديةُ تمخرُ عباب الزقاق، لا تحملُ غزاةً غرباء، بل تحملُ "نظاماً" صارماً جاء ليصهر الشتات في بوتقة "التوحيد".

لم يكن دخول الموحدين للأندلس نزهةً، بل كان زحفاً يملؤه الجلال والصرامة. وقف الخليفة عبد المؤمن بن علي على جبل طارق، يرقبُ الخضرة الأندلسية التي افتقدتها في جبال الأطلس، وبجانبه قائده الفذ يوسف بن وانودين. كان عبد المؤمن رجلاً مهيباً، جهوري الصوت، ذو لسانٍ بليغ وعينين تلمعان بيقين "المهدي بن تومرت". تحدث عبد المؤمن ونبرةً صوته تخرج كوقع المطارق على السندان، وهو يشير بيده نحو الشمال الممزق:

"يا يوسف، انظر إلى هذه الأرض الكريمة كيف أفسدها الشقاق. لقد تركها المرابطون وهي غابةٌ من المطامع، وواجبنا اليوم ليس فتحها بالسيوف وحده، بل بفرض 'كلمة الله' التي لا تقبل التجزئة. نحن لم نأت لنضيف ملكاً إلى ملكنا، بل جننا لنمحو هذه 'الطوائف' التي جعلت من الأندلس نهباً لكل طامع. اليوم نضع الحدَّ الفاصل؛ فإما أندلسٌ موحدةٌ تحت راية التوحيد، وإما الزوال."

تأمل يوسف بن وانودين ملامح الخليفة التي نُحتت من عزم الأطلس، وأجاب بصوتٍ يملؤه الانضباط الموحدي:

"يا أمير المؤمنين، الناسُ هنا بين خائفٍ يرجو أماننا، وبين ثائرٍ يخشى سيفنا. الأندلسيون قد ألفوا اللين والترف، وصرامتنا قد تروعهم في البداية، لكنهم سيدركون أن 'عدل الموحدين' هو الحصن الذي سيحميهم من صلبان الشمال. إن الرتق الذي أصاب

جسد هذه الأمة يحتاج إلى يد قوية لا ترتجف، ونحن يدُ القدر التي استدعاها الوجود.

ابتسم عبد المؤمن ابتسامةً رصينة، فيها من الوقار ما يخرس الشك، وردّ بفلسفة عميقة:

"يا يوسف، القوة بلا حق هي طغيان، والحق بلا قوة هو ضياع. الأندلس اليوم تحتاج لكليهما. سأرتق هذه الفتوق بحد السيف، ثم أزرع فيها العلم والبناء. سنعلمهم أن التوحيد ليس كلمة تُقال، بل هو حياة تُعاش ونظام يُحترم. غداً، حين تسكنُ الفتن، سيعلم الجميع أن الموحدين هم السدُّ الذي منع الطوفان، وأن العبور الذي بدأ اليوم هو فجرٌ جديد لصناعة التاريخ."

عبرت الجيوش الموحدية، واستسلمت إشبيلية وقرطبة للمد الجديد، وبدأ ملوك الثغور يسلمون مفاتيح مدنهم لخلفاء مراکش دون قيد أو شرط. لم يكن مجرد استبدال حكم بحكم، بل كان "انقلاباً ثقافياً وسياسياً" شاملاً؛ حيث اختفت الرايات الملونة لترتفع "الراية البيضاء" الموحدية، وانطوت صفحة الاضطراب لتبدأ صفحة الإمبراطورية الكبرى التي وحدت العدوتين (المغرب والأندلس) في جسد واحد قوي، يرتعد له الشمال هيبه، وتشرئب إليه الأعناق طاعةً.

في عام **1171** ميلادية، قرر الخليفة أبو يعقوب يوسف أن مراکش، رغم جلالها، تحتاج إلى "رئة" أندلسية تتنفس من خلالها الإمبراطورية الموحدية، فاتخذ من إشبيلية عاصمةً ثانيةً ومقرّاً لجهاده. لم تكن إشبيلية في عينه مجرد مدينة للنزهة، بل أرادها أن تكون "محراباً" للعلم ومعسكراً للفتح. وبدأت المدينة تشهد نهضةً عمرانيةً لم يعرفها الزمان؛ حيث رُبطت ضفتا "الوادي الكبير" بجسرٍ من القوارب، وارتفع "الجامع الكبير" ليكون أضخم مساجد الإسلام

في المغرب والأندلس.

وسط ضجيج البنائين وهيبة المهندسين، كانت تبرز "الخيرالدا"؛ الصومعة (المئذنة) الشاهقة التي نُحتت لتكون "ألف" التوحيد القائمة وسط الزحام. وقف الخليفة أبو يعقوب يوسف يرقب العمال وهم يرفعون الأجر المنقوش، وبجانبه المهندس الأندلسي البارع أحمد بن باسو، الذي كان يضع لمساته الأخيرة على زخارف الصومعة التي تعانق السحاب.

تحدث الخليفة أبو يعقوب بنبرة يملؤها الزهو الإيماني الرصين، وهو يتطلع إلى قمة "الخيرالدا" التي بدأت تسيطر على أفق إشبيلية:

"يا ابن باسو، انظر إلى هذا البناء؛ لقد أردته صامداً كعقيدة الموحدين، وعالياً كطموحنا الذي لا تحده الجبال. إن الصومعة في فلسفتنا ليست مجرد مكان للأذان، بل هي 'منارة' للتوحيد تطل على القارة الشمالية، لتخبرهم أن دين الله قد استقر وارتفع. أريد لمن ينظر إليها من خلف الأنهار أن يدرك أن الأمة التي ترفع مثل هذا الحجر، لا يمكن أن تتحني لبشر."

تأمل ابن باسو النقوش الهندسية المعقدة التي تزدان بها الجدران، وأجاب بصوت يملؤه الفخر:

"يا أمير المؤمنين، لقد جعلنا من الصخر قصيدة صامته. "الخيرالدا" اليوم هي معجزة الهندسة؛ صعدت إليها بالخيول عبر المنحدرات الداخلية ليعلم الناس أن العظمة يسيرة على من عزم. إن كل آجرة وُضعت هنا هي حارس لهوية إشبيلية. المدن يا مولاي تموت إذا لم تترك خلفها "أثراً" يرهب الفناء، وهذا الجامع وصومعته هما خلود الموحدين في هذه الأرض."

ابتسم الخليفة بوقار، وردّ بيقين هزّ وجدان الحاضرين:

"لقد جعلت من إشبيلية داراً للعدل ومنارة للعلم. من هنا سنحكم

البرين، ومن فوق هذه الصومعة سيرفَع اسمُ الله لئسمعهُ القريبُ
والبعيد. إنَّ عظمةَ البناءِ يا ابنِ باسو هي انعكاسُ لعظمةِ الدولة؛
فما ارتفعَ بنيانُ قومٍ إلا ليدلَّ على سموِّ أرواحهم. فلتكن "الخيرالدا"
شاهدةً على أننا مررنا من هنا، وتركنا للأرضِ عزةً لا تطولها أيدي
الزمان."

كان اتخاذُ إشبيلية عاصمةً وبناءً مفاخرها العمرانية هو "الفصل
الحضاري الأبهى" في عصر الموحدين؛ فقد غدت المدينة "لؤلؤةَ
الوادي الكبير"، وازدحمت بالعلماء والفلاسفة الذين وجدوا في ظلِّ
الموحدين الأمانَ والرخاء. لم تكن "الخيرالدا" مجردَ بناء، بل كانت
"رمزاً" للسيادة الموحدية التي جمعت بين خشونة الصحراء وجمال
الأندلس، لتظلَّ إلى يومنا هذا الشاهدَ الصامتَ على عظمةِ أمةٍ أرادت
أن تلمسَ السماءَ بإيمانها.

في منتصف القرن الثاني عشر، لم تكن إشبيلية تكتفي بضخامةِ
مآذنها، بل كانت تزهو بعظمةِ عقولها. كان خلفاءُ الموحدين، برغمِ
صرامتهم العقائدية، يملكون شغفاً عميقاً بسبرِ أغوارِ الوجود؛
فاستحالَ قصرُ "البحيرة" إلى مجمعٍ للفلاسفةِ وملاذٍ للحكماء. هناك،
تحت السقوفِ الموشاةِ بالذهبِ والهندسة، كان ابن طفيل، الطبيبُ
والفيلسوفُ الذي سكنَ "حي بن يقظان" خياله، يمهدُ الطريقَ لبروزِ
تلميذه النجيب ابن رشد؛ ذلك العقلُ الذي سيعيدُ صياغةَ فكرِ البشريةِ
عبرَ شروحاته لأرسطو.

كان ابن رشد رجلاً نحيلاً، يرتدي ثيابَ القضاةِ بوقارٍ يزينه التواضع،
وعيناهُ تحملانِ نظرةً تخترقُ ظواهرَ الأشياءِ لتصلَ إلى جوهرِ
الحقيقة. وقف يوماً في حضرة الخليفة أبي يعقوب يوسف، وبجانبهما
ابن طفيل، في مجلسٍ ساد فيه صمتٌ يقطعهُ حفيفُ ورقِ المخطوطاتِ
ونسماثُ الوادي الكبير.

تحدث الخليفة أبو يعقوب، وكان مثقفاً يتقن علوم الأوائل، موجهاً سؤاله المحوري الذي أربك ابن رشد في البداية:

"يا فقيه قرطبة، ما قول الحكماء في 'السماء'؟ أهي قديمة أم محدثة؟ إنني أرى الناس قد انقسموا، وأريدُ منك أن تنظرَ في كتب اليونان وتجلو لنا الحق ببياناتك. لا تهب صرامة الفقهاء، فإنما نبحث عن 'الحكمة' أينما وُجدت، فهي ضالة المؤمن."

تأمل ابن رشد وجه الخليفة المستنير، ثم نظر إلى أستاذه ابن طفيل الذي أوما له بالاطمئنان، فأجاب بصوت يملؤه اليقين:

"يا أمير المؤمنين، إن الله الذي أمرنا بالنظر في ملكوت السموات والأرض، لم يجعل 'العقل' مناقضاً لـ 'الوحي'. إن الحكمة هي أخت الشريعة الرضية، وكلتاها تنهلان من مشكاة الحق الواحدة. إنني سأغوص في 'جوامع' أرسطو، لا لأنقل عنه فحسب، بل لأثبت أن الإسلام هو دين البرهان والعدل العقلي. إن سماءنا يا مولاي ليست مجرد أجرام، بل هي كتاب مفتوح يدل على صانعه، وبالعقل وحده ندرك جلال الصنعة."

ابتسم ابن طفيل، وهو يرى تلميذه يتفوق على دهشته، وأضاف بنبرة صوفية بليغة:

"صدقت يا ولدي. إن النفس البشرية إذا صفت، استطاعت أن تصل إلى الحقائق الكبرى حتى لو لم ينزل عليها كتاب، كما وصل 'حي بن يقظان' بفطرته. والخليفة اليوم يفتح لك أبواب المكتبات لتصهر حكمة اليونان ببريد اليقين العربي. ابن لنا 'جسراً' من الفكر يعبر عليه الناس من التقليد إلى البرهان، فالدولة التي تحرس بالعلم، لا تسقط بجهل الجهلاء."

أطبق ابن رشد يديه على مخطوطته، وردّ بكلمة صارت فلسفة للأجيال:

"إنَّ الحقَّ لا يصادُّ الحقَّ، بل يوافقُهُ ويشهدُ له. سأجعلُ من فكرنا نوراً يضيءُ عتمةَ العصور، وليعلمَ العالمُ أنَّ الموحدين ليسوا رجالَ حربٍ فحسب، بل هم حراسُ العقلِ ومنازةُ الحكمة."

كان هذا العصرُ هو "المحجَّ العقليّ الأخير" للأندلس؛ ففي ظلِّ الموحدين، كتب ابن رشد "تهافت التهافت" وشرح أرسطو، وكتب ابن طفيل "رسالة حي بن يقظان". غدت الأندلسُ مختبراً عالمياً للتوفيق بين الفلسفة والدين، وصار العقلُ الأندلسيُّ هو المعلمُ الأول لأوروبا التي بدأت تترجمُ هذه العلوم في "طليطلة".

في تموز من عام **1195** ميلادية، كانت سهولُ "الأرك" (وسط إسبانيا حالياً) ترتجفُ تحت وطأة زحفٍ لم تشهد له القارةُ مثيلاً منذ قرن. خرج الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور من إشبيلية في جيشٍ يملأُ الفضاء؛ تتقدمه الراياتُ البيضاءُ الموحدية، ويتوسطه "مصحفُ عثمان" التاريخي المذهب، محمولاً على جملٍ مزين كأنه يباركُ خطواتِ الجند. كان المنصورُ في ذروةِ بأسه؛ رجلٌ أسمرُ الجبهة، ضابطُ الملامح، يرتدي ثوباً بسيطاً ينمُّ عن زهدٍ خلفاء الأطلس، وعيناهُ تلمعانِ ببريقٍ يختصرُ هيبةَ إمبراطوريةٍ تمتدُّ من طرابلس الغرب إلى شواطئ الأطلسي.

أمام المسلمين، كان "ألفونسو الثامن"، ملك قشتالة، قد اعتصم بحصن "الأرك" المنيع، مدفوعاً بغرورٍ جعله يستعجلُ الصدام دون انتظارِ المدد من جيرانه. وقف القائدُ الموحي الفذ أبو يحيى بن أبي حفص بجانب المنصور، يرقبُ الغبارَ المتصاعد من خيول القشتاليين التي كانت تلمعُ تحت شمسِ تموز اللاهية.

تحدث المنصور الموحي وصوتهُ يخرجُ رزيناً كهدير الرعد البعيد، وهو يضعُ يده على المصحفِ العظيم:

"يا أبا يحيى، انظر إلى هذا الجمع؛ ألفونسو جاء بحديده وخياله، ونحن جناب "الحق" الذي لا يُغلب. لقد ظنَّ أنَّ انشغالنا بالمغرب قد أسانا الأندلس، وما علم أنَّ الأندلسَ في قلوبنا كنبضِ العروق. اليوم، لن نقاتلهم كقبائل، بل سنقاتلهم كأمةٍ واحدة، خلف إمامٍ واحد، وكتابٍ واحد. إنَّ الأركَ اليوم ليست مجردَ قلعة، بل هي "الصدع" الذي سيفصلُ بين الحقِّ والباطل."

تأمل أبو يحيى ثباتَ الجندِ الموحدين الذين كانوا يصطفون في تشكيلاتٍ محكمةٍ لم يعرفها النصارى من قبل، وأجاب بنبرةٍ يملؤها الإجلال:

"يا أمير المؤمنين، إنَّ الروحَ التي بعثتها في هؤلاء الرجال لا تُهزم. انظر إلى صمتهم؛ إنه صمتُ القوةِ التي تعرفُ غايتها. ألفونسو الثامن يراهنُ على شجاعةِ فرسانه، وأنت تراهنُ على "بصيرة" جندك. غداً، حين تلتقي الصفوف، سيعلمُ الغربُ أنَّ الموحدين هم حراسُ الفجر، وأنَّ الأرضَ تطيعُ من يرفعُ كلمةَ اللهِ فوق رأسه."

انطلقت المعركةُ باصطدامٍ مروع، حيث اقتحم الموحدون بقلبٍ واحدٍ وصيحةٍ واحدة. قاد أبو يحيى بن أبي حفص هجومَ "المتطوعة" و"الغزاة"، فدكوا صفوفَ القشتاليين دكاً. وحين رأى المنصورُ اللحظةَ الحاسمة، دفع بجيشه المركزي، فاستحال الميدانُ إلى ملحمةٍ من النورِ الذي يحطمُ الفولاذ. هرب ألفونسو الثامن بقلوبه، تاركاً وراءه "الأرك" وغنائمَ تفوقِ الخيال، وترك الأهم من ذلك: كبرياءه الذي تحطمَ عند أقدامِ الخليفة الموحدي.

دخل المنصورُ حصنَ الأرك ساجداً لله، وتحدث بكلماتٍ خلدها التاريخ:

"ليس النصرُ بحدِّ السيف، بل بصدقِ النية. اليوم استعادت الأندلسُ هيبتها التي فقدت في "طليطلة"، ولعلَّ "الأرك" تكونُ زلقةً ثانية، ثمهد لنا الطريقَ لنشرِ العدلِ في كلِّ ركن. لا تأخذكم الغنائمُ عن

الغاية، فما جننا لجمع الذهب، بل لفتح القلوب."

كانت معركة الأرك هي "الشهقة العظمى" للقوة الموحدية في الأندلس؛ فقد شلت حركة ممالك الشمال لعقود، وأعدت لقرطبة وإشبيلية زهوها القديم. لقب الخليفة بعدها بـ "المنصور"، وصارت إمبراطوريتها القوة التي لا تُنافس في حوض المتوسط. كانت فلسفة النصر هنا تقول: "إن الدولة التي تجمع بين صرامة التنظيم وعمق الإيمان، تصنع من المستحيل واقعاً، وتجبر الزمان على أن يكتب تاريخها بمداد الذهب."

في أعقاب زلزال "الأرك" العظيم، خيم على الأندلس صمتٌ مهيبٌ لم يكن صمتٌ موت، بل كان صمتٌ المهابة والرسوخ. جثا ملوك الشمال على ركبهم أمام أسوار إشبيلية، وجاءت وفود القشتاليين تطلب "الهدنة" بأي ثمن. وافق الخليفة يعقوب المنصور على هدنة أمدها عشر سنوات، لتتحول الأندلس خلالها إلى "جنان أمنة"، حيث نام السيف في غمده واستيقظ المحراث والقلم. كانت السنوات التي تلت الأرك هي "الظهيرة الأندلسية" الأخيرة؛ حيث بلغ الرخاء مداه، واستحال الخوف من النصارى إلى ذكرى من الماضي.

وقف الخليفة المنصور في جنات "البحيرة" بإشبيلية، يرقب القوافل التجارية وهي تدخل المدينة محملة بخيرات الأرض، وبجانبه ابنه وولي عهده محمد الناصر، الشاب الذي كان يرقب عظمة أبيه بزهو مفرط. كان الهواء يفوح برائحة المسك وزهر الليمون، والسكينة تلف مآذن الجوامع.

تحدث المنصور بنبرة يملؤها الوقار الحكيم، وهو ينظر إلى ابنه نظرة فلسفية تحذيرية:

"يا محمد، انظر إلى هذا السكون؛ إنه ثمرة الأرك. النصارى اليوم

يطلبون وذننا ليس حياً فينا، بل رهبةً من عدلنا وقوة جمعنا. الهدنة يا بني ليست وقتاً للنوم في ظلال القصور، بل هي وقتٌ لترميم الأرواح وبناء الحصون المعنوية. إنَّ القوة التي تفرض السلام هي أعظم من القوة التي تفرض الحرب. لقد جعلتُ من الأندلس داراً لا يُظلم فيها أحد، فاحذر أن يغرك هذا الرخاء، فالسلمُ مخدرٌ قد يقتل روح الوثوب في قلوب الرجال."

تأمل محمد الناصر الوفود القشتالية وهي تنتظرُ الإذن بالدخول بوجوه خاضعة، وأجاب بصوتٍ يملؤه الاعتزاز:

"يا أمير المؤمنين، لقد بلغت من المجد ما لم يبلغه أحد؛ الشمال يدفع الجزية، والمشرق يهابُ ذكرنا. هل بعد هذا العز من خوف؟ إنَّ دولتنا اليوم هي صخرةٌ لا تكسرُها الأمواج، وهؤلاء الملوك (ألفونسو وجيرانه) قد صاروا كالأيتام على مائدتنا. إنَّ هدنة العشر سنوات هي إعلانٌ لسيادتنا المطلقة على الأرض والسماء."

ابتسم المنصور ابتسامةً فيها مسحةٌ من الحزن النبوي، وردَّ بكلماتٍ كانت كأنها وصيةٌ أخيرة:

"يا محمد، دوامُ الحال من المحال. نحن اليوم في قمة المنحنى، والقمة هي أولُ منحدر الهبوط إذا لم نحذر. لقد بذلتُ جهدي ليكون هذا السلمُ أساساً لبناء عقولٍ لا تهزم، لا أجسادٍ تترف. انظر إلى هؤلاء القشتاليين؛ إنهم يستغلون الهدنة ليعيدوا بناء أنفسهم في صمت، فإذا رأوا منا فتوراً أو شقاقاً، انقضوا علينا. السيادةُ يا بني هي 'يقظة' دائمة، فكن في سلمك كما كنتُ في حربي؛ عيناً لا تنام، وقلباً لا يلين."

كانت هدنة السنوات العشر هي "العصر الذهبي الأخير" للأندلس الموحدة؛ حيث فُتحت الطرقات، وازدهرت الصناعات، وغدت إشبيلية وقرطبة محطَّ آمال العالم. في هذه السنوات، اكتملت "الخيرالدا" وتزينت المساجد، وعاش الناسُ في طمأنينةٍ جعلتهم

يظنون أنّ زمن الحروب قد ولى للأبد. لم تكن مجرد هدنة عسكرية، بل كانت "فلسفة سيادة"؛ حيث أثبت الموحدون أنهم قادرون على إدارة الجمال بقدر قدرتهم على إدارة القتال. ولكن، خلف هذا الهدوء الرخامي، كان القدرُ ينسجُ خيوط "العقاب"، وكان موتُ المنصور المفاجئ هو الشرارة التي ستحول هذا السكون إلى عاصفةٍ ستقتلعُ كلَّ ما بُني.

في شباط من عام **1199** ميلادية، كان الهواءُ في مراکش بارداً، يلفحُ الوجوهَ بشجنٍ مبكر، بينما كانت جدرانُ قصر "الصالحية" تضجُ بصمتٍ مهيب. تسربَ الخبرُ كالنصلِ في القلوب: يعقوب المنصور، الرجلُ الذي زلزلَ الأرضَ في "الأرك"، يودعُ الدنيا. كان الخليفةُ مسجىً على فراشٍ بسيط، هو ذاته الذي كان يفترشهُ في الميادين، وجههُ الأسمرُ قد غدا شاحباً كشمسِ الأصيل، وعيناهُ اللتان طالما أربتا ملوك الصليب، كانتا تغرقان في سكونٍ أزلي.

بجانبه وقف ابنه محمد الناصر، الشاب الذي لم يبلغ العشرين بعد، يرتجفُ كغصنٍ تحت عبءِ تاجٍ يزنُ قارةً بأكملها. مالَ المنصورُ برأسه في لحظاته الأخيرة، وبصوتٍ يخرجُ متهدجاً كحفيفِ ورقِ يابس، نطق بكلماته التي كانت "دستوراً" لو حُفظ:

"يا محمد.. لقد تركتُ لك إمبراطوريةً لا تُحد، وجيشاً لا يُغلب،

وهيبةٌ جعلت ملوك الروم يرتعدون خلف أسوارهم. لكنّ احذر يا بني، فالملك لا يُحفظُ بالوراثة، بل بـ "اليقظة". لقد عقدتُ معهم صلحاً على عزة، فلا تجعلهم يطمعون فيك بلينك. الأندلسُ أمانةٌ في عنقك، وهي أرضٌ لا يثبتُ فيها إلا من كان ساهراً على ثغورها، رحيماً برعيّتها. لا يغرنك بريقُ الذهب، واجعل من "العدل" حارسك الشخصي، فما سقطت دولةٌ إلا بظلمِ حكامها."

أغض المنصور عينيه، ورحل "بطل الأرك"، ليعلن ميلاد عصرٍ جديد تحت حكم محمد الناصر لدين الله. كان الناصر شاباً يملؤه الاندفاع، لكنه كان يفتقد "هدوء العاصفة" الذي كان يميز أباه. بمجرد أن تسلم الصولجان، بدأت نبرة الرسائل المتبادلة مع ممالك الشمال تتغير؛ فلم تعد تحمل وقار القوي، بل بدأت تكتسي بـ "تحدٍ" يفتقر للحكمة.

وقف الناصر في قاعة العرش بإشبيلية بعد شهرٍ من وفاة أبيه، وأمامه رسلُ ألفونسو الثامن الذين جاؤوا يختبرون نبض الملك الجديد. تحدث الناصر بنبرة حادة، يملؤها الاعتزاز المفرط بالقوة:

"أخبروا ملككم أنّ زمن الهوانة قد انتهى. إنّ السيف الذي غمده أبي في 'الأرك' قد صقله ابنه اليوم لينهي المهمة. لن نكتفي بحماية حدودنا، بل سنزحف حتى نطأ قلاعكم في الشمال. الهدنة كانت استراحةً للمحارب، واليوم استيقظ المحارب ليرى من يجرؤ على منازعته في ملكه."

تأمل الوزير الحكيم أبو محمد بن أبي حفص ملامح الناصر اليافعة، وأحس ببرودة تسري في جسده؛ فهو يدرك أنّ "ألفونسو" لم يعد ذاك المهزوم المنكسر، بل هو اليوم يجمع أوروبا بأكملها خلف صليبه مستغلاً رحيل المنصور. اقترب من الناصر وتمتم بكلمات محذرة:

"يا أمير المؤمنين، إنّ الأسد العجوز كان يرهبهم بصمته، والأسد الشاب قد يُغريهم بوثبته إذا لم يدرس الميدان. ألفونسو لا يطلب الحرب وحده هذه المرة، بل يطلبها 'باسم الكنيسة' وبدعم ملوك القارة. الحكمة يا مولاي هي أن نحافظ على هيبة 'الأرك' دون أن نغامر بها في معركة مجهولة العواقب. إنّ القوة العظيمة تحتاج إلى عقلٍ يفرمّل اندفاعها."

لكنّ الناصر، المسكون بظلال أبيه العظيم، ردّ بيقينٍ اندفاعي:

"يا ابن أبي حفص، لقد انتهى زمن المراجعات. إنهم يظنون أن الأندلس قد يئمت بموت المنصور، وسأثبت لهم أن "المنصور" حي في عزم ابنه. سنخرج إليهم بجيش لا يرى أوله آخره، وستكون "العقاب" هي العنوان الجديد لسيادتنا."

كان رحيل المنصور هو "الغروب الحقيقي" لسياسة التوازن الحكيمة؛ فقد غابت الحكمة لتحل محلها العزّة المفرطة. كانت كلمات الناصر هي "القدح" الذي أشعل نار التحالف الصليبي الكبير. انقضت الهدنة، وبدأ الطرفان يحشدان ليوم لم تشهد له الأندلس مثيلاً.

في تموز من عام **1212** ميلادية، كانت هضاب "العقاب" (لاس نافاس دي تولوز) تتهاى لتكون مسرحاً لأضخم صدام كوني شهدته العصور الوسطى. لم يكن ألفونسو الثامن وحده هذه المرة، بل كانت "طليطلة" قد غصت بفرسان أوروبا الذين توافدوا من كل فجّ استجابة لنداء البابا؛ فرنسيون، وإنجليز، وقشتاليون، وأراغونيون، أنصهرت ضغائنهم في بوتقة "الحرب المقدسة". وفي المقابل، كان محمد الناصر يضرب فسطاطه الأحمر المنيف، يحيط به جيش كأنه غابة من الرماح، يتوسطهم المتطوعة والملثمون، وفي قلبهم "مصحف عثمان" الذي كان يبعث الهيبة في النفوس.

كان الناصر يجلس في خيمته الحمراء، يرتدي لبوس الحرب الموحدية الصارم، وبجانبه وزيره أبو زيد بن أبي حفص، الذي كان يرقب الأفق بقلق يفتت الحجر؛ فقد كانت الأنباء تأتي بخيانات في الصفوف وصراعات بين الأندلسيين والموحدين، فضلاً عن وعورة المكان التي اختارها النصارى ببراعة.

تحدث الناصر ونبرة صوته تخفي خلف صرامتها توجساً لم يسبق له مثيل:

"يا أبا زيد، انظر إلى هذه الجموع؛ النصارى قد جمعوا الدنيا ضدنا، وكأنهم استيقظوا من سباتهم ليغسلوا عار "الأرك" بدمائنا. لقد بذلت في هذا الجيش كل مجهود، وسقت إليهم خيرة رجال الأطلس. هل تظن أن "العقاب" اليوم ستكون مقبرة لطموحهم، أم أنها ستكون اختباراً لصبرنا الذي لم نعتد فيه على الهزيمة؟"

تأمل أبو زيد الرايات الموحدية التي ترفرف ببطء في هواء الجبل الثقيل، وأجاب بنبرة يملؤها الصدق الجارح:

"يا أمير المؤمنين، القوة ليست في "العدد" الذي لا يراه الطرفان، بل في "القلب" الذي يجمع القادة. أخشى أن الشقاق الذي دب بين جند المغرب وأهل الأندلس قد أوهن الجدار قبل أن يضربه العدو. ألفونسو الثامن لا يقاتل بجيشه فقط، بل يقاتل بـ "يأس" جعله يرى في هذا اليوم فرصته الأخيرة. الروح التي في معسكرهم اليوم هي روح من لا يملك وطناً إلا تحت أقدامنا، والروح في معسكرنا قد أثقلتها الغنائم والاعتداد بالكثرة. احذر يا مولاي، فـ "العقاب" مكان لا يرحم من تفرقت كلمته."

اندلعت المعركة كأهوال القيامة. اصطدم الصليب بالهلال في معمعة لم تشهد الأرض مثلها؛ حيث كان الفرسان النصارى يرمون بأنفسهم في الموت طلباً للحياة، والناصر معتصم بفسطاطه الأحمر، يحيط به حرس "العبيد" المغلولون بالسلاسل ليمنعوا أنفسهم من

الهرب أو التراجع. دارت الدائرة حين استطاع فرسان القديس يوحنا اختراق القلب، ووصلوا إلى خيمة الخليفة. انحل عقد الجيش، وتحول الزحف العظيم إلى فرار مأساوي، وسالت دماء الموحدين حتى صبغ طين "العقاب" بلون الأرجوان.

هرب الناصر من المعركة بقلب مكسور، تاركاً وراءه "المصحف العظيم" وخيمته وحلم أبيه المنصور. وقف على تلة بعيدة يرقب دمار مملكته، وتمتم بكلمات كانت هي "نعي" السيادة الموحدية:

"لقد غلبنا القدر.. لا بحد السيف، بل بفرقة القلوب. "العقاب" اليوم هي السوط الذي أدبنا به الزمان على غرورنا. لقد ضاعت الأندلس في هذا السهل، ولن تقوم لنا قائمة بعدها في هذه الأرض. يا ليتني متُّ قبل هذا، ولم أرَ راية التوحيد تُنكسُ تحت أقدام من كانوا بالأمس يطلبون الأمان."

كانت معركة العقاب هي "القاصمة" التي أنهت عصر السيادة الإسلامية في الأندلس؛ فلم تكن هزيمة عسكرية فحسب، بل كانت انهياراً للنظام الموحد بأكمله. بدأت بعدها المدن تتساقط كأوراق الخريف، ودخلت الأندلس في مرحلة "التفتت النهائي". كانت فلسفة الهزيمة هنا تقول: "إنَّ الجيش العظيم إذا فقدَ عقله المدبر (الحكمة) وقلبه الموحد (الولاء)، صار عالَةً على نفسه قبل أن يكون هدفاً لعدوه". ومنذ ذلك اليوم، بدأ العدُّ التنازلي لسقوط الحواضر الكبرى، وعلى رأسها قرطبة وإشبيلية.

في أعقاب زلزال "العقاب"، لم تكن الأندلس تننُّ من جراح المعركة فحسب، بل كانت تشهدُ انحلالاً مرعباً لـ "عصب الدولة". انفرط عقدُ الموحدين، وتحول الخليفة في مراكش إلى طيفٍ بعيد لا يملك من أمر الأندلس إلا الدعاء، بينما كانت ممالك الشمال قد تحولت إلى كواسرٍ جائعةٍ أدركت أن الأسدَ الموحدِيَّ قد كُسرت أنيابه. كانت المدنُ الأندلسيةُ تقفُ في مهبِّ الريح، كحباتٍ لؤلؤٍ انقطع خيطُها الناظم؛ فما إن تسقط مدينةٌ حتى تهرعُ أختها لتتحسس رقبتها تحت نصلٍ "فرناندو الثالث" (القديس) أو "خايمي الأول" (الفتاح).

في إشبيلية، حيث كانت القصورُ تضجُّ يوماً بالخلفاء، وقف الوزير أبو بكر بن زهر، الطبيبُ والفيلسوفُ الذي عاصرَ القمة والقاع، يرقبُ من شرفات القصر غبارَ الجيوش النصرانية وهي تطوفُ

بالتغور القريبة. وبجانبه، كان القائد يوسف، الذي فقد ذراعه في "العقاب"، ينظرُ بيأسٍ إلى الأسوار التي لم تعد تجدُ من يحميها.

تحدث ابن زهر بصوتٍ يقطرُ حكمةً مثقلةً بالمرارة، وهو يشيرُ إلى خريطة الأندلس التي بدأت تتآكل أطرافها كأوراقٍ في النار:

"يا يوسف، انظر إلى هذا التهاوي؛ 'أبدّة' سقطت، و'بياسة' أخذت، واليوم ننتظرُ الخبرَ من 'قرطبة'. لقد انفرط العقدُ يا صديقي، وما نراه اليوم ليس حرباً، بل هو 'تفككٌ طبيعيٌّ' لجسدٍ مات فيه القلب. الموحدون رحلوا بظلمهم، وتركوا لنا 'الألقاب' لنواجه بها 'الحديد'. هل تدري لماذا تسقطُ المدنُ بهذه السرعة؟ لأننا فقدنا 'الإيمان' بالوحدة' قبل أن نفقد 'القدرة على القتال'. كلُّ مدينةٍ اليوم تظنُّ أنها تستطيعُ النجاةَ وحدها، وما علموا أنّ السيلَ إذا انصبَّ، لا يردُّه جدارٌ منفرد."

تأمل يوسف ذراعه المقطوعة، وأجاب بنبرةٍ يملؤها القهرُ الوجودي:

"يا أيها الحكيم، لقد عدنا إلى زمن 'الطوائف' من جديد، لكن بلا تيجان. الناسُ في الشوارع يتهامسون عن 'الخلاص'، ولا يدركون أنّ الخلاصَ كان في 'العقاب' وقد أضعناه. انظر إلى ملوكنا الجدد (ابن هود وابن الأحمر)؛ إنهم يتنازعون الحطامَ والعدوُّ يقتسمُ البلاد. إنني أرى الأندلسَ تذوبُ كما يذوبُ الشمعُ تحت وهج الشمال، ولن يبقى لنا قريباً إلا الذكريات."

ردَّ ابن زهر وهو يخلقُ كتابه بوقارٍ حزين:

"نحن الآن في فصل 'الخريف الطويل'. ستتساقطُ الحواضرُ كالثمارِ الناضجة في حجرِ فرناندو، لأننا فقدنا 'الروح الجامعة'. الفلسفةُ يا يوسف تقول إنَّ الأمةَ التي تستهينُ بيومٍ زحفها (العقاب)، لا تملكُ حقَّ البكاء في يومٍ ذبحها. قرطبة التي كانت منارة العالم، تنتهياً اليوم لتكونَ القربانَ الأكبر، وبسقوطها سيسقطُ المعنى، ولن يبقى

للأندلس وجهٌ تفاخرُ به الزمان.

كان تفكك عقد الأندلس هو "مأساة الانحلال العظيم"؛ حيث سقطت "مرسية" و"مورور" و"شريش" وغيرها، وصار المسلمون يهاجرون من مدينةٍ إلى مدينة، حاملين غصتهم في صدورهم. كانت هذه المرحلة هي فلسفة "النهاية المتسارعة"؛ حيث أثبت التاريخ أنّ القوة إذا غادرت المركز، تلاشت في الأطراف. ومع كل مدينةٍ تسقط، كان الأملُ يخبو، واليأسُ يترسخ، ممهداً الطريق للحظة التي سيهتزُّ لها وجدانُ الإسلام قاطبة: سقوط "درة الأندلس" قرطبة.

في التاسع والعشرين من حزيران لعام **1236** ميلادية، كانت سماء قرطبة مغبرةً بلون الرماد، وكأنَّ الشمسَ استحت أن تشرق بكامل ضيائها على "عروس الدنيا" وهي تُساق إلى قدرها المحتوم. لم تسقط قرطبة بضربة سيفٍ واحدة، بل سقطت بـ "الْيُتْم"؛ فقد حاصرها "فرناندو الثالث" (القديس) والمدينةُ واهنةُ القوى، مقطوعةُ المدد، ينهشُ الجوعُ في أمعاء أطفالها، واليأسُ في قلوب حراسها. وحين فُتحت الأبواب، لم تكن مجرد أبوابٍ من خشبٍ وحديد، بل كانت "أبواب الزمان" التي انغلقت على أربعمائة عام من المجد الأمويِّ والموحدي.

وقف الشيخُ أبو القاسم، أحد بقايا فقهاء قرطبة الذين عاصروا زهو الخلافة، في صحن "الجامع الكبير"، يرقبُ الأعمدة الرخامية التي تشبهُ في تلاحمها صفوف المصلين الغائبين. كانت رائحةُ البخور القديم لا تزالُ عالقةً في زوايا المحراب، تعانقُ رائحةَ الحزنِ الكثيف. وبجانبه، كان حفيده عاصم، الشاب الذي كان يقبضُ على مصحفه بقوةٍ كأنه طوقُ نجاة.

تحدث الشيخ أبو القاسم بنبرة يملؤها الشجنُ الوجودي العاصف، وهو يمررُ يده على أحدِ الأعمدة الرخامية الباردة:

"يا بني، انظر إلى هذا المحراب.. إنه اليوم يبكي بدموع من نور. قرطبة التي كانت منارة الأرض، وقبلة العلم، ومستقر الخلفاء، ترحل اليوم عنا لتصبح ذكرى في بطون الكتب. هل تدري ما الذي يسقط اليوم؟ لا تسقط الجدران، بل يسقط "المعنى" الذي جعل منا أمة تأمر الزمان فيطيع. اليوم، سنرفع الصلبان فوق هذه المآذن التي طالما عانقت التكبير، وسيندحر الضياء ليدخل مكانه صمتُ الناقوس. إننا نترك خلفنا قلوبنا معلقة في هذه العقود المزخرفة، ونرحل إلى مجهول لا يُبقي ولا يذر."

تأمل عاصم لحظة دخول خيول "فرناندو الثالث" بصلفها وحديدها من "باب الخيزران"، وأجاب بصوتٍ مخنوقٍ بالعبرات:

"يا جدي، كيف يتركنا الله نغادرُ 'بيته' الأعظم؟ كيف لهذه الحجارة التي سجدنا عليها طويلاً أن تستقبل أحدى الغزاة؟ أشعر أن الأرض ترفض خطواتنا، وأن النهر (الوادي الكبير) يئنُّ معنا."

ردَّ الشيخ بوقارٍ فلسفيٍّ مُرٍّ، وهو يخطو أولى خطواته نحو الرحيل:

"يا بني، إنَّ الله لا يظلمُ الناسَ شيئاً، ولكنَّ الناسَ أنفسهم يظلمون. لقد ضاعت قرطبة يوم أن ضاعت 'وحدتنا'، ويوم أن استبدلنا بالعدلِ الظلم، وبالقوة الترف. هذه الحجارة تبقى شاهدةً على أننا كنا هنا، وستظلُّ صرخةً في وجه التاريخ تقول إنَّ المدنَ العظيمة لا تموتُ بالسيوف، بل تموتُ بـ 'الوهن' الذي يسكن الأرواح. ارحل يا بني، ولا تلتفت خلفك؛ فقرطبة التي نعرفها قد رحلت معنا في صدورنا، وما بقي هنا ليس إلا قشرة من رخامٍ سيبيكه الغريب قبل القريب."

دخل فرناندو الثالث الجامع الكبير، وأمر بتحويله إلى كنيسة في الحين، ودُقت النواقيس لتهتز لها أركان الأندلس قاطبة. كان سقوط قرطبة هو "الفجيعة الكبرى"؛ فبذهابها فُقدت "الشرعية التاريخية"

للوجود الإسلامي القوي. لم تعد الأندلس بعدها إلا أطرافاً متناثرة تبحث عن ملاذ. كانت فلسفة السقوط هنا هي "فلسفة انكسار المبتدأ"؛ فقرطبة كانت المبتدأ في جملة الأندلس، وبسقوطها تاهت الأخبار، وانفرط عقد الانتماء، ليبدأ النزوح الكبير نحو الجنوب، نحو غرناطة، المعقل الأخير الذي سيحمل شعلة أخيرة في ليلٍ طويل.

في عام **1238** ميلادية، كانت مرافئ الأندلس الجنوبية تشهد فصلاً تراجيدياً من فصول الزوال؛ فقد تقوضت أركان الخلافة الموحدية تحت وطأة الضربات المتلاحقة في المغرب والداخل الأندلسي. وبدأت الفلول الموحدية، التي كانت يوماً تملأ الأرض زبيراً، تلمم ما تبقى من أعلامها البيضاء الممزقة لتركب البحر نحو "العدوة" المغربية. لم يكن رحيلاً عادياً، بل كان "انسحاباً للروح" من جسد الأندلس؛ فبمغادرتهم، فقدت القوة المركزية التي كانت تصهر المدن في بوتقة واحدة، وتُركت البلاد يتيمّة للمرة الثالثة في تاريخها.

وقف القائد الموحد الأخير في الأندلس، أبو سعيد بن أبي حفص، على رصيف ميناء "المنكب"، يرقب السفن وهي تُشحن بالخيل والسلاح والقلوب الكسيرة. كان يلف لثامه بإحكام ليخفي دمة لا تليق بخليفة، وبجانبه الملك الطامح محمد بن الأحمر، مؤسس دولة بني نصر في غرناطة، الذي جاء ليرقب خروج "الأسد القديم" ليحل محلّه في عرينه.

تحدث أبو سعيد بنبرة يملؤها الوقار المكسور، وهو ينظر إلى الجبال الأندلسية التي بدأت تتوارى خلف الضباب:

"يا ابن الأحمر، انظر إلى هذه الأرض؛ إنها تودعنا كما تودع الأم ابناً عاقاً لم يحسن حمايتها. لقد جننا بـ 'التوحيد' لنجمع الشتات، فرحلنا ونحن 'أشتات'. الأندلس اليوم أمانة في يدك، وهي أمانة

ثقيلة لا يحملها إلا من قطع حبال الرجاء في غير سيفه. نحن نرحل لأنّ "زمننا" قد انقضى، ولأنّ ذنوبنا في حقّ الرعية قد غلبت سيوفنا. احذر يا محمد.. فالنصارى خلفك كالسيل، ولن يرضوا منك بغير الفناء."

تأمل ابن الأحمر رحيل السفن بنظرة فلسفية حذرة، وأجاب بصوت رصين يملؤه عبء المسؤولية الجديدة:

"يا أبا سعيد، إنّ القوة التي ترحل اليوم تترك وراءها فراغاً لا يملؤه إلا "الصبر" والتحصن بالحصون. لقد سقطت قرطبة، وإشبيلية على الطريق، وما بقي لنا إلا "غرناطة" لنبني فيها المعقل الأخير. رحيلكم هو إعلان بأنّ زمن الإمبراطوريات العظمى قد ولى، وبدأ زمن "البقاء الصعب". سأبني في غرناطة حصناً (الحمراء) لا تفتحه خيولهم، وسأحاول أن ألمم شتات من بقي، لعلنا نوقد شعلة أخيرة في هذا الليل الطويل."

ردّ أبو سعيد وهو يضع قدمه على لوح السفينة الخشبي:

"يا محمد، الحصون لا تُبنى من حجر فقط، بل تُبنى من "كرامة". لقد رحلنا نحن لأننا أضعنا كرامة "الأرك" في فجيرة "العقاب". فكن أنت أحكم منا؛ فالمؤمن لا يلدغ من جحر "الفرقة" مرتين. استودعنا الله أندلسنا، ولعلّ البحر الذي يفصلنا اليوم، يجمعنا غداً في دعاء واحد."

أبحرت السفن، وانقطع الوصال الرسمي بين المغرب والأندلس لسنوات، وتفتتت الأندلس إلى دويلات صغيرة من جديد؛ فبرز ابن هود في مرسية، و ابن الأحمر في غرناطة، وتنازعا السيادة والعدو يقتضهم أرضهم شبراً بشبر. كان خروج الموحدين هو "الفصل الختامي" لعهد القوة الكبرى؛ فبذهابهم لم يبق للأندلس من يحمي ثغورها بجيوش جرارة. كانت فلسفة الرحيل هنا هي "فلسفة الذبول الحتمي"؛ فالدولة التي تفشل في تجديد روحها، تنتهي إلى التآكل،

وتتركُ مكانها لمن هو أكثرُ التصاقاً بالترابِ وأقدرُ على الانحناءِ
للعاصفةِ كي لا تنكسر. وهكذا، بقيت "غرناطة" وحيدةً في الميدان،
لتبدأ ملحمة الصمودِ الأخير.

مملكة

غرناطة

في عام **1238** ميلادية، وبينما كانت مدن الأندلس تتساقط كأوراق الخريف تحت سنابك خيل "فرناندو الثالث"، كان هناك رجلٌ يسيرُ عكس اتجاه اليأس. هو محمد بن يوسف بن نصر، المعروف بـ "ابن الأحمر"؛ رجلٌ نُحِتت ملامحُه من طين "جيان" وعزيمتها، بعينين تلمعان بذكاءٍ فطريٍّ وحذرٍ يفوق الوصف. لم يكن يملكُ إمبراطوريةً كالموحدين، بل كان يملكُ "رؤيةً" لبناءٍ ملاذٍ أخيرٍ لمن ضاقت بهم الأرض.

بدأ ابن الأحمر رحلته من "جيان"، تلك المدينة الحصينة القابعة بين أشجار الزيتون، حيثُ بويع هناك والتقف راية الزعامة وسطَ ذهول الجميع. كان يرتدي ثياباً بسيطةً تميلُ إلى الحمرة، فصار لقبه "الأحمر" رمزاً للدولة القادمة. وقف يوماً على أسوار جيان، يرقبُ حشودَ المهاجرين الفارين من قرطبة، وبجانبه كاتبه المخلص أبو بكر، الذي كان يرى في هذا الرجل "الخيطة الأخير" في ثوب الأندلس الممزق.

تحدث ابن الأحمر بنبرة يملؤها الهدوء الرصين، وهو يشيرُ بيده نحو الجبال الجنوبية الممتدة:

"يا أبا بكر، انظر إلى هؤلاء الناس؛ إنهم لا يبحثون عن ملكٍ يقودهم إلى حربٍ خاسرة، بل يبحثون عن 'أرضٍ' تمنحهم الأمان. جيان بدايةٌ وليست نهاية. إنني أرى في تلك الجبال البعيدة (جبال شلير) معقلاً لا تصله خيولُ قشتالة بسهولة. سنبنى هناك دولةً لا تقومُ على التوسع، بل على 'التحصن'. نحن لسنا خلفاء، نحن 'حراسُ بقاء'، وسأجعلُ من هذا اللون الأحمر الذي ألبسه شعاراً للغالب بالله وحده، فلا غالب إلا هو."

تأمل أبو بكر ملامح ابن الأحمر التي كانت تنطقُ بواقعيةٍ سياسيةٍ فذة، وأجاب بصوتٍ يملؤه الأمل المشوب بالحذر:

"يا سيدي، لقد جئت في زمن الانكسار، والناسُ يلقبونك بـ "الغالب بالله" تفاؤلاً بطلعتك. إن تأسيسك للدولة اليوم في جيان هو "شهقة الحياة" في جسدٍ ظنَّ الجميعُ أنه مات. لكنَّ الطريقَ إلى تلك الجبالِ محفوفٌ بالفخاخ؛ فألفونسو وفرناندو يرقبانِ كلَّ حركة. كيف ستصمدُ وأنت محاطٌ بالهزائم من كل جانب؟"

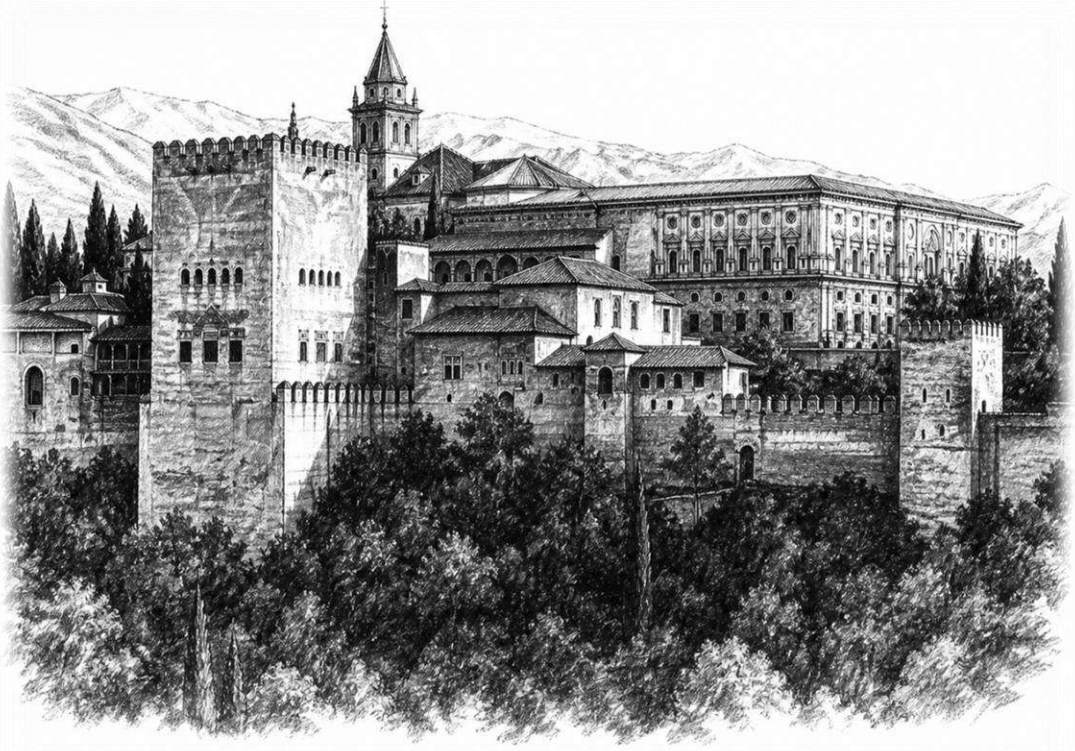
ابتسم ابن الأحمر ابتسامةً داهية، وردَّ بفلسفةٍ ستحكمُ تاريخَ غرناطة لقرون:

"يا أبا بكر، القويُّ يكسرُ العاصفة، والذكيُّ ينحني لها حتى تمر. سأداري هؤلاء الملوك، وأهادنهم، وأدفعُ لهم ما يطلبون، حتى أبنِي "الحصن" الذي لا يُقهر. المُلْكُ اليوم يا صديقي هو 'فوزٌ بالوقت'، وكلُّ يومٍ تقضيه الأندلسُ وهي تتنفسُ هو نصرٌ لنا. غداً، حين ننتقلُ إلى غرناطة، سنعلمُ العالمَ أنَّ النجمةَ تكونُ أكثرَ سطوعاً حين يشتدُّ الظلام."

كان تأسيس الدولة في جيان هو "ميلاد المعقل الأخير"؛ فمن هنا انطلقت نواة "مملكة غرناطة". بذكاء ابن الأحمر، استطاع أن يجمع الشتاتَ ويوحّد الكلمة، ممهداً الطريقَ للرحيل نحو "غرناطة" لتبدأ هناك أطول قصة صمودٍ في تاريخ الإسلام. كانت فلسفةُ التأسيس هنا هي "فلسفة الانحناء المثمر"؛ حيث أدرك ابن الأحمر أنَّ البقاءَ يحتاجُ إلى دهاءِ العقلِ قبل قوةِ الساعد.

في عام **1238** ميلادية، دلف محمد بن الأحمر إلى "غرناطة" لا كفاتحٍ يتبجحُ بانتصاراته، بل كأبٍ يلمُّ شتاتَ أسرته المذعورة. كانت المدينةُ تفتحُ ذراعيها فوق هضبتي "البيازين" و"الحمراء"، يطوّقها نهرُ "حدره" كخيوطٍ من بلور. وحين استقبلهُ الناسُ بصيحات "الغالب بالله"، انكسرت هيبته أمام عظمة الخالق، ونطق بكلمته التي صارت ديباجةً للمكان والزمان: "لا غالبَ إلا الله".

صعد ابن الأحمر إلى هضبة "السبائك"، حيث كانت بقايا حصنٍ قديم تطلُّ على المدينة كعقابٍ يرقبُ فريسته. هناك، وسط الريح التي تفوحُ برائحةِ الصنوبر، قرر أن يغرسَ وتدَ دولته. وضع الحجرَ الأول لـ "قصر الحمراء"، ولم يكن يريدُ بناءَ قصرٍ للمفاخرة، بل كان يبني "خندقاً جمالياً" يحتمي فيه ما تبقى من الروح الأندلسية.



وقف ابن الأحمر يرقبُ العمال وهم يخلطون التربة الحمراء التي ميزت جبل "السبائك"، وبجانبه المهندسُ الغرناطي أبو جعفر، الذي كان يخطُّ على الرملِ خرائطَ القلاع والأسوار.

تحدث ابن الأحمر بصوتٍ يملؤه خشوعُ العارفين، وهو ينظرُ إلى غرناطة التي بدأت تتلأأ تحت قدميه:

"يا أبا جعفر، اجعل هذه الجدرانَ من طين الأرض التي نمشي عليها، ولتكن حمراء كلونِ قلوبنا التي احترقت لفقدِ قرطبة. لا ترفع البنين ليتناول على السماء، بل اجعله ينسابُ مع الجبل كأنه جزءٌ من خلقه. أريدُ لداخلِ هذا القصر أن يكون 'فردوساً' يعوضنا عما

فقدناه، ولخارجه أن يكون 'درعاً' يردُّ عنا عوادي الزمان. واكتب على كل زاوية، وفي كل نقش، أنَّ السيادةَ لله وحده، فنحنُ هنا 'عابرون' نحرسُ الجمالَ حتى حين."

تأمل أبو جعفر التربةَ الحمراءَ بين يديه، وأجاب بنبرةٍ يملؤها السموُّ الفني:

"يا مولاي، سنبنى لكَ مدينةً داخلَ مدينةٍ. سنجعلُ الماءَ ينسابُ في الرخام كأنه أنفاسُ الأرض، وسنجعلُ الجصَّ يتحولُ إلى دانتيلٍ يحكي قصصَ الصبر. 'الحمراء' يا سيدي لن تكون مجردَ قلعة، بل ستكون 'ذاكرةً' ماديةً للأندلس. غداً، حين نرحل، ستبقى هذه النقوشُ لغةً يفهمها الغريبُ قبل القريب، وسيدركون أنَّ قوماً عاشوا هنا، أحبوا الله فأبدعوا في خلقه."

ابتسم ابن الأحمر بابتسامةٍ رصينة، وهو يضعُ ابنةً في سور "القصبة" الأول:

"فليكن البناءُ إذاً شهادةً لنا لا علينا. إننا اليوم نبني 'المنفى الجميل'، وسنجعلُ من غرناطة كعبةً لكلِّ فارٍّ بدينه، وملاذاً لكلِّ عقلٍ ضاق به الشمال. إذا سقطتِ الأندلسُ كلها، فستبقى هذه الصخرةُ هي 'الكلمة الأخيرة' التي سننطقُ بها قبل الوداع."

كان اتخاذ غرناطة عاصمةً وبدءُ بناء الحمراء هو "الفصلُ الوجدانيُّ الأعمق" في تاريخ الأندلس؛ فقد تحولت المملكةُ الصغيرة إلى "متحفٍ حي" للحضارة الإسلامية. بفضل الحمراء، صارت غرناطةُ عصيةً على النسيان قبل أن تكون عصيةً على السقوط. كانت فلسفةُ البناءِ هنا هي "فلسفةُ الخلودِ بالأثر"؛ ففي زمنِ الضعف العسكري، قرر بنو الأحمر أن ينتصروا بالجمال، وأن يجعلوا من "الحمراء" وطناً للروح لا يطاله نصلُ الغزاة.

في تشرين الثاني من عام **1248** ميلادية، كانت إشبيلية، "عروس الوادي الكبير"، تتلغع برداءٍ من الغبار والدموع بعد حصارٍ دام عاماً ونصف. لم يكن الحصارُ قادمًا من عدوٍّ غريبٍ فحسب، بل كانت المفارقة الفلسفية الجارحة تكمن في وجود محمد بن الأحمر، ملك غرناطة، بجيشه تحت راية "فرناندو الثالث"، وفاءً بعهدٍ غاشم عقده ليحامي مملكته الصغيرة من الزوال. كان ابن الأحمر يقف في معسكره، يرقبُ أسوار إشبيلية التي تهاوت، وبجانبه وزيره أبو بكر، الذي كان يشيخُ بنظره عن المدينة كي لا يرى انكسار سيده.

كان وجه ابن الأحمر في ذلك اليوم كأنه قناعٌ من شمع؛ شاحباً، جامداً، يخفي خلفه بركاناً من الندم. تحدث بصوتٍ متهدجٍ يقطرُ علقماً، وهو يرى صليب القشتاليين يُرفع فوق "الخير الدا":

"يا أبا بكر، انظر إلى هذا الهوان.. لقد أكلتُ ذراعي لأحمي جسدي. إشبيلية ترحل، وأنا الذي كنتُ أولى بنجبتها، أقف اليوم شاهداً على ذبحها. هل يغفرُ الله لملكٍ اشترى بقاء عاصمته بخراب عاصمة أخيه؟ إنَّ ريحة البرتقال في إشبيلية اليوم تخنقتي، وكلُّ حجرٍ يسقط من أسوارها يسقط على قلبي."

تأمل أبو بكر لحظة خروج آلاف الإشبيليين من مدينتهم في مشهدٍ يفتتُ الصخر، وأجاب بنبرةٍ يملؤها الحزنُ الفلسفي العميق:

"يا مولاي، إنها 'سياسةُ الضرورة' المرة. لقد أنقذتَ غرناطة من طوفانٍ لا يُبقي، لكنك دفعتَ الثمن من روحك. إشبيلية اليوم ترحلُ لتسكنَ في غرناطة؛ فهؤلاء المهاجرون سيحملون معهم فنونهم وعقولهم ليثروا 'الحمراء'. إنَّ سقوط 'حمص الأندلس' هو إعلانٌ بأنَّ الغاية قد احترقت ولم تبقَ إلا شجرتنا الوحيدة. أنت اليوم يا سيدي لستَ شريكاً في الجرم، بل أنت الضحية التي أكرهت على حملِ معول الهدم."

أغمض ابن الأحمر عينيه وهو يسمع أجراس الكنائس تُدقُّ لأول مرة

في سماء إشبيلية، وردَّ بيقينٍ ممزق:

"لقد عدتُ من إشبيلية، والناسُ يهتفون لي بالفتح، لكني والله لم أعد إلا بـ 'الهزيمة'. لقد ماتت الأندلس الكبرى اليوم، وما بقي لنا في غرناطة ليس إلا 'رسمٌ' لذكرى. غداً سنعود إلى جبالنا، وسأبني في الحمراء قاعاتٍ تبكي إشبيلية، وسأجعل من 'لا غالب إلا الله' شعاراً يذكرني دائماً بأنَّ القوة لله، وأنَّ ملكي هذا ليس إلا وهماً نحرسه بالدموع."

كان سقوط إشبيلية هو "الزلازل الوجودي" الذي حوّل غرناطة إلى "القلعة الوحيدة" في الميدان. بذهابها، انقطع الوصل مع الماضي الإمبراطوري، وصار على "بني الأحمر" أن يواجهوا مصيرهم كجزيرة معزولة. كانت فلسفة السقوط هنا هي "فلسفة الانكفاء المر"؛ حيث أدركت غرناطة أنها ورثت "تاريخاً مهزوماً"، وأنَّ بقاءها مرهونٌ بمدى قدرتها على استيعاب أحزان المدن الراحلة وتحويلها إلى جمالٍ يقاوم الفناء.

في عام **1275** ميلادية، كانت الأندلسُ قد غدت "ثوباً مهلهلاً" لا يسترُّ من عورة الوجود شيئاً، لولا غرناطة القابعة فوق صخورها. لكنَّ الضغط القشتاليّ بلغ ذروته، فقرر الملك محمد الفقيه (ابن الأحمر الثاني) أن يكرر مغامرة الأجداد؛ فاستنجد بأسود المغرب الجدد "بني مرين". عبر السلطان يعقوب المنصور المريني، لا بجيشٍ يطلبُ الغنائم، بل بـ "عقيدة" جاءت لتغسل عار الهزائم المتلاحقة.

كان اللقاء بين الملكين عند مشارف "استجة" لقاءً بين عالمين؛ محمد الفقيه بملابسه الغرناطية الرقيقة وقلقه السياسي، ويعقوب المنصور المريني بجسده الصلب الذي لم يغادر السرج، وبردته المغربية

البسيطة التي تفوح منها رائحة الغبار والجهاد. وقف المنصور المريني يرقبُ حشود القشتاليين بقيادة "دون نونو دي لارا"، وبجانبه محمد الفقيه الذي كان يرى في هذا اليوم "الرهان الأخير".

تحدث يعقوب المنصور المريني بصوتٍ رزين يشبه قعقة السلاح في الوديان، وهو يشير بيده نحو خيول النصارى:

"يا ابن الأحمر، لقد عبرنا البحر لنجيب صرخة الأندلس لا لننازك في ملكك. انظر إلى هؤلاء 'العلوج'؛ لقد استمروا وضعفكم لأنكم قطعتم الوصل مع أصلكم في المغرب. اليوم، سيعلم 'دون نونو' أن للنخل جذوراً في الصحراء لا تقتلعها ريحة الباردة. لا تنظر إلى قلة عدونا، بل انظر إلى صدق نيتنا؛ فنحن قومٌ نحب الموت كما يحب هؤلاء الخمر والنساء."

تأمل محمد الفقيه هيبة السلطان المريني، وأجاب بنبرة يملؤها الأمل المنبعث من بين الأنقاض:

"يا سلطان المغرب، لقد أعادت خيولك للأندلس صهيلها المفقود. إننا في غرناطة كنا كشمعة تكاد تطفئها العواصف، وبمجيئك صار لنا 'جدار' نستند إليه. الدونونية اليوم ليست مجرد معركة، بل هي 'إحياء' لذكرى الزلافة والأرك. فامض لما أراك الله، فإننا جندٌ في ركاب إخلاصك."

انطلقت المعركة كالإعصار المريني الصاعق. كان المثلثون والزناتيون يقتحمون الصفوف ببراعةٍ أذهلت القشتاليين الذين ظنوا أن الأندلس قد خلت من الفرسان. سقط "دون نونو دي لارا" قتيلاً، وتشتت شمل القشتاليين في وهاد "الدونونية"، وعادت الرؤوس المرفوعة بالتحدي إلى غرناطة لتعلن أن "المعقل الأخير" لا يزال يملك أنياباً ومخالب.

كانت نتائج معركة الدونونية هي "إكسير الحياة" الذي أطال عمر

غرناطة لقرنين آخرين؛ فقد أوقفت الزحف النصراني، وأعدت التوازن العسكري للمنطقة. كانت فلسفة النصر هنا هي "فلسفة المدد الأخوي"؛ حيث ثبت أن الأندلس والمغرب جسداً واحداً، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعت له القفار بالنجدة. وبانتهاء هذا اليوم، تنفست غرناطة الصعداء، وأدرك بنو نصر أن بقاءهم مرهونٌ بالبقاء على "خطِّ الوصل" مع مراكش وفاس، ولتبدأ بعد ذلك فترةً من الاستقرار النسبي سمحت ببناء أبهى ما في "الحمراء".

دخلت غرناطة في القرن الرابع عشر مرحلةً من "السلم القلق"، حيث أدرك بنو الأحمر أن البقاء في هذه الجزيرة الصغيرة وسط بحر قشاليٍّ هائج لا يكون بالسيوف وحدها، بل ببراعة العقول التي تتقن الرقص على حبال التناقضات. كانت اتفاقيات الهدنة هي الرئة التي تتنفس بها المملكة؛ يدٌ تمسك بالمصحف وأخرى تزن ذهب "الجزية"، في سياسة مرة هدفها "شراء يوم إضافي" من الوجود.

كان ملك غرناطة يجد نفسه دائماً بين مطرقة القشتاليين الذين يطالبون بالمال، وسندان المرينيين الذين يطالبون بالجهاد. وقف السلطان الغرناطي في شرفة "قصر الغروب"، يرقب صناديق الذهب وهي تُعدُّ لئُرسل إلى قشتالة، وبجانبه لسان الدين ابن الخطيب، الوزير الداهية الذي كان يحيك خيوط السياسة بأصابع من ضياءٍ وسَمِّ.

تحدث السلطان ونبرة صوتهِ تخفي خلف رصانتها انكساراً دفيناً:

"يا لسان الدين، انظر إلى هذا الذهب.. إنه يرحل من عروق فلاحينا ليغذي عضلات أعدائنا. نشترى "السلام" بالمال، ونشترى "الهدنة" بالخضوع. هل نحن ملوكٌ حقاً، أم نحن حراسُ خزائن قشتالة؟ إنني أخشى أن يكتب التاريخ أننا كنا ندفعُ ثمنَ ذبحنا المؤجل."

تأمل ابن الخطيب ملامح السلطان، وأجاب بصوتٍ رصينٍ كأنه يقرأ من كتاب الغيب:

"يا مولاي، السياسةُ هي 'فنُّ الممكن' في زمنِ المستحيل. نحنُ لا ندفعُ الجزيةَ حباً فيهم، بل نشترى بها 'الزمان'؛ فالزمانُ هو السورُ الحقيقيُّ الذي يحمي غرناطة. كلُّ عامٍ يمرُّ بسلام هو عامٌ نبني فيه 'الحمراء'، ونحفظُ فيه العلم، ونربي فيه الأجيال. إنَّ النخلةَ تتحني للعاصفةِ كي لا تنكسر، وغرناطةُ اليوم هي تلك النخلة. ذهبنا يذهب، لكنَّ 'أندلسنا' تبقى، وهذا هو الربحُ الحقيقيُّ في ميزانِ العقل."

استطرد السلطان متسائلاً بمرارة:

"ولكن إلى متى؟ ألفونسو يطمعُ في المزيد، والمرينيون يعيبون علينا مهادنتنا. صرنا غريبين بين الضفتين."

ردَّ ابن الخطيب بفلسفتهِ السياسيةِ الثاقبة:

"إلى أن يقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً. إننا نلعبُ بـ 'النارِ والحريِر'؛ نُشعلُ الفتنَ بين أمراءِ النصارى لنضعفهم، ونستدعي المرينيين حين يشتدُّ الخناقُ لنخيفهم. غرناطةُ يا سيدي تعيشُ على 'توازنِ الرعب'؛ وإدارةُ هذا التوازن هي البطولةُ الصامتة التي لا ترونها القصاصدُ الحربية، لكنها تبني المدن. اترك الذهبَ يرحل، واصرف همك لبناءِ 'قاعةِ السفراء'؛ ليروا فيها عظمةً تنسيهم طمعهم، وهيبةً تكسرُ كبرياءهم."

كانت هذه المرحلة هي "فلسفةُ الصمودِ الدبلوماسي"؛ حيث استطاعت غرناطة بفضلِ هذه الهدنات أن تحولَ ضعفها العسكري إلى استقرارٍ حضاريٍّ مذهل. في هذه السنوات، لم تكن المملكةُ تفتحُ بلاداً، لكنها كانت تفتحُ آفاقاً في الفكرِ والعمارة، وبقيت الجزيةُ هي "الثمنَ المر" الذي دُفع لتظلَّ رايةُ الإسلامِ مرفوعةً فوق جبلِ شلير لقرنينِ آخرين.

في منتصف القرن الرابع عشر، كانت غرناطة تعيش معجزة معمارية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً؛ فبينما كانت الممالك من حولها تتبادلُ السيوف، كان السلطانان يوسف الأول وابنه محمد الخامس يتبادلان الرؤى لبناء "الفردوس الأرضي". لم يكن البناء بجرانيتٍ صلب، بل كان بـ "الجص" و"الخشب" و"الأجر"؛ مواد هشة في طبيعتها، لكنها استحوطت بيد الصانع الغرناطي إلى نسيج من الأبدية. كانت الفلسفة تهمس: "كلُّ شيءٍ فانٍ، إلا وجه الله"، لذا كُتبت هذه العبارة آلاف المرات على الجدران، لتمزج بين عظمة السلطان وتواضع العبد.

وقف السلطان محمد الخامس في قلب "بهو الأسود"، حيث كانت الشمسُ ترسمُ بظلال الأعمدة الرخامية الـ **124** ظلالاً تشبه غابة من النور. كانت الأسود الاثنا عشر تحملُ حوض الرخام، والماء ينسابُ من أفواهها بنغمٍ رتيبٍ يمثلُ جريان الزمن. وبجانبه، كان وزيره وصديق عمره لسان الدين ابن الخطيب، يرقبُ تجلي السحر في العمارة.

تحدث محمد الخامس بنبرةٍ يملؤها الصفاء الروحي، وهو ينظر إلى القبة المقرنصة التي تشبه خلايا النحل:

"يا لسان الدين، انظر إلى هذه الأسود؛ إنها صامتة لكنها ترمزُ بالهيبة. لقد أردتُ لهذا البهو أن يكون 'ساعة' للكون، ومركزاً للسكينة وسط عالمٍ يموج بالاضطراب. هل ترى هذه النقوش؟ إنها ليست زينة، بل هي 'أذكار' محفورة، تحيلُ الحجرَ إلى لسانٍ يسبحُ بكرةً وأصيلاً. أردتُ لمن يدخل هنا أن ينسى أنه في قلعةٍ محاصرة، ويشعر أنه في كنفِ الله، حيث لا غالب إلا هو."

تأمل ابن الخطيب قاعة "السفراء" الشاهقة، وسقفها الخشبي الذي يمثلُ السموات السبع بترتيبٍ فلكي مذهل، وأجاب بصوتٍ يقطرُ شعراً وفلسفة:

"يا مولاي، لقد صنعت ما عجزت عنه الإمبراطوريات العظمى. لقد روضت "الفناء" بالجمال. هذه القاعات التي بنيتموها هي "الوطن البديل" الذي لا يستطيع ألفونسو ولا غيره أن يفتحه؛ لأنهم يملكون السلاح ليتسلقوا الأسوار، لكنهم لا يملكون "الأرواح" ليفهموا هذه النقوش. إن فلسفة الحمراء يا سيدي هي "عظمة الهشاشة"؛ فبينما تنهار القلاع الحجرية، تبقى هذه النقوش الجصية رقيقة كجناح الفراشة، لكنها صلبة كاليقين."

ردّ السلطان بابتسامة حزينة، وهو يلمس زخارف "المقنطر" الملونة:
"لقد جعلنا من الحمراء كتاباً مفتوحاً. غداً، حين تسكت المدافع، ستظل هذه الجدران تتحدث عن أمة أحببت النور، وعشقت الدقة، وقدست التوازن. إن قاعة السفراء هي مرآة ملقنا؛ عالية، مهيبه، لكنها تدرك أن السقف الحقيقي هو سماء الله. فليكن هذا الجمال عزاءنا في زمن الضيق، وذكرنا في زمن الغياب."

كان بناء قاعات الحمراء الرئيسية هو "العصر الذهبي للفن الأندلسي"؛ حيث بلغ فيه فن الرقش (الأرابيسك) و الزليج ذروة الكمال. غدت الحمراء ليست مجرد سكن للسلطين، بل "قصيدة حجرية" ومختبراً للفلسفة الصوفية والعلمية. في هذه القاعات، استقبلت غرناطة السفراء والعلماء، وأثبتت للعالم أن الروح المبدعة لا تنكسر تحت وطأة الحصار، بل تتسامى لتخلق من الضعف خلوداً، ومن الطين جنة.

في عام **1469** ميلادية، وبينما كانت غرناطة تغرق في نزاعاتها العائلية العقيمة، كان هناك "عقد" يُبرم في الخفاء في مدينة "بلد الوليد"، عقد سيغير وجه الأرض وسيطوي صفحة الأندلس للأبد. كان زواج إيزابيلا ملكة قشتالة من فرديناند ملك أراغون، ليس مجرد

اقتران بين قلبين، بل كان انصهاراً لتاجي "القوة" و"الدهاء" في بوصلة واحدة تتجه نحو الجنوب. لم تكن غرناطة حينها تدرُك أن هذا الزواج هو "المسار الأخير" في نعش استقلالها، وأن الأيام التي كانت تلعبُ فيها على حبال الخلاف بين الممالك النصرانية قد ولت إلى غير رجعة.

وصل الخبرُ إلى الحمراء كالصاعقة؛ فالنصارى الذين كانوا بالأمس يتصارعون، صاروا اليوم جسداً واحداً وروحاً واحدة وهدفاً واحداً: تطهير الجزيرة. وقف الوزير الحكيم أبو القاسم البديل في بهو قصر "قمارش"، يرقب من الشرفة العليا الجبال التي بدأت تكتسي ببرودة غريبة، وبجانبه الملك أبو الحسن علي (والد أبي عبد الله الصغير)، الذي كان يحمل في عينيه شرارةً من كبرياءٍ قديم يرفض الانحناء.

تحدث أبو الحسن بصوتٍ يملؤه الغضبُ المكتوم، وهو يقبضُ على قبضة سيفه:

"يا أبا القاسم، ما بال هؤلاء القوم؟ هل ظنوا أن زواج امرأةٍ برجلٍ سيجعل من غرناطة لقمةً سائغة؟ إيزابيلا هذه تحلمُ بصلواتها في جامعنا، وفرديناند يطمعُ في ذهبنا، وما علموا أن جبل 'شليل' لا يزالُ يحملُ أسوداً. لقد أرسلوا يطلبون الجزية القديمة، فقلتُ لرسلمهم: أخبروا ملوككم أن صناع الذهب في غرناطة قد ماتوا، ولم يبقَ عندنا إلا صناع النصال!"

تنهد أبو القاسم البديل، ونظر إلى غرناطة التي كانت تبدو في الغسق كأنها طفلةٌ نائمةٌ في حضن وحش، وأجاب بنبرةٍ يملؤها القلقُ الجارح:

"يا مولاي، الشجاعة وحدها لا تكفي أمام طوفانٍ موحد. إيزابيلا لا تطلبُ الجزية، إنها تطلبُ 'الإلغاء'. هذا الزواج قد أغلق مسارَ نجاتنا الدبلوماسية؛ فمن نضربُ بمن الآن؟ ومن نستعدي على من؟

لقد صار الخصم واحداً بقلبين، ونحن لا نزال جسداً واحداً بقلوبٍ شتى. إنَّ "اتحاد التيجان" في الشمال هو إعلانٌ لـ "انعزالنا المطلق" في الجنوب. الفلسفة يا سيدي تقول إنَّ القطيع المتفرق لا ينجو مهما كانت قرونه حادة، إذا ما اتفق عليه الذئبان."

ردَّ أبو الحسن بعنادٍ مريـر:

"سأفتحُ الحصون، وسأبدأُ بالهجوم؛ فخيرٌ وسيلةٌ للدفاع هي الوثوب."

أجاب أبو القاسم بكلمةٍ كانت كأنها رثاءٌ مبكر:

"الوثوبُ يا مولاي يحتاجُ إلى أرضٍ صلبة، ونحنُ نغرقُ في صراعاتِ بيتنا من الداخل. ابنك "أبو عبد الله" يطمعُ في عرشك، وأخوك "الزغل" يرقبكما معاً، وإيزابيلا تبتسمُ لهذا الشقاق. إنَّ اتحادهم هو مرآةٌ لتشرذمنا؛ فبينما يوقعون هم عقدَ "البناء الموحد"، نوقعُ نحنُ في الحمراء عقودَ "الهدم الذاتي". أخشى أنَّ التاريخَ سيقول إنَّ غرناطة لم يسقطها زواجُ إيزابيلا وفرديناند، بل أسقطها "طلاقُ" القلوب في الحمراء."

كان اتحاد قشتالة وأراغون هو "الضربة القاضية" التي أنهت عصر التوازنات؛ فقد توحدت الموارد، واستقرت الإدارة، وصار الصليبُ الموحدُ يملكُ نفساً طويلاً للحصار. في غرناطة، كان الناسُ يشعرون بالخطرِ الدايم، لكنَّ البلاطَ كان مشغولاً بمؤامرات الحريم وصراع الإخوة، لتغدو المملكةُ الجميلة كشجرةٍ وارفةٍ يحيطُ بها الحطابون من الخارج، بينما ينخرُ السوسُ في قلبها من الداخل.

في ليلةٍ شتائية من شهر فبراير عام **1482** ميلادية، كان الضباب يلف مدينة "الحمة" الرابضة فوق منحدرات الجبال كأنها حارسٌ

أمين لثغور غرناطة. كانت المدينة تنام في طمأنينةٍ غادرة، مستسلمةً لدفع مياها الكبريتية وصمت أسوارها التي لم تُطرق منذ أجيال. لم يكن السلطان أبو الحسن علي في الحمراء يدرك أن الصدمة ستأتيه من حيث لم يحتسب؛ فقد تسلل فرسان قشتالة بقيادة "رودريغو بونثي دي ليون" عبر الأودية المظلمة، وتسلقوا الجدران في غفلةٍ من الحرس الذين أسكرهم طول الأمان.

سقطت "الحمة" في ليلةٍ واحدة، واستيقظت غرناطة على صرخةٍ زلزلت أركانها؛ فالحمة ليست مجرد حصن، بل هي "مفتاح الغروب" والسكينة. وقف الملك أبو الحسن علي في ساحة "السباع"، والخبر ينزل عليه كوقع الصخر، وبجانبه الوزير الحكيم أبو القاسم البديل، الذي كان يرى في هذا السقوط بداية النهاية.

تحدث أبو الحسن بصوتٍ يملؤه الندم الممزوج بالغضب الجريح:

"يا أبا القاسم، كيف سقطت الحمة؟ كيف نامت العيون وهي تعلم أن إيزابيلا وفرديناند يتربصون بنا عند كل منعطف؟ لقد طعنونا في الخاصرة، وصار الطريق إلى غرناطة مكشوفاً لخيولهم. هل ضاعت المدينة التي كانت تحمي أرواحنا؟ أشعر أن الهواء في الحمراء قد صار ثقيلًا برائحة الحريق، وأن الأندلس كلها تننُّ لسقوط حاميتها."

تأمل أبو القاسم وجوه الناس في غرناطة وهم يخرجون للشوارع في دعرٍ يبحثون عن مخرج، وأجاب بنبرةٍ فلسفية تقطر حزناً:

"يا مولاي، لا تلم الأسوار، بل لم القلوب التي سكنتها الغفلة. الحمة سقطت يوم أن ظننا أن الهدنة هي الأمان الدائم. إن سقوطها هو الاستفاقة المرة" من حلم الاستمرار. لقد بدأت حربُ الفناء يا سيدي، ولن تتوقف حتى تُغلق أبواب هذه المملكة. الحمة كانت "الدرع"، وبانكساره صار الصدرُ غرضاً لكل نبل. الفلسفة يا مولاي تقول إن الأمة التي تترك ثغورها للريح، لا يحميها التاريخ بالدموع."

ردّ أبو الحسن وهو يمتشق سيفه بعزمٍ يائس:

"سأخرج بنفسى لاستعادتها، وسأجعل من دماء هؤلاء الغزاة وقوداً
لعزيمتنا. لن تنام غرناطة وفي أحشائها نصلّ غريب."

أجاب أبو القاسم بكلمةٍ كانت كأنها رثاءٌ للأيام القادمة:

"اخرج يا مولاي، ولكن اعلم أنّ الخصم اليوم ليس فرسان "الحمة"
وحدهم، بل هو "اتحادٌ" يملك صبراً أطول من صخر جبالنا. لقد بدأت
حرب ضروس، وكلُّ شبرٍ سنخسره اليوم، لن يعود بالبكاء غداً. إنّ
نشيج الحمة اليوم هو المقدمة لنواح الأندلس كلها."

انطلقت حرب غرناطة (حرب العشر سنوات)، واستحالت الأودية
إلى ساحات للكر والفر. كانت الحمة هي "الجرح الأول" الذي نزفت
منه المملكة حتى الرمق الأخير. لم تكن مجرد معركة، بل كانت
"هدم المعنويات" وبداية الحصار الخانق الذي حوّل المعقل الجميل
إلى سجنٍ كبير، ممهداً الطريق لضياح بقية الحصون، حتى لم يبقَ
للأندلس إلا غرناطة.. وحيدة، ذابلة، تنتظر زفرة الوداع.

في صيف عام **1487** ميلادية، كانت مياه المتوسط تلطم صخور
"مالقة" بنشيجٍ لم يهدأ، وكأن البحر يدرك أنّ "ثغر الأندلس الباسم"
يوشك أن يغيب خلف ضباب النصرانية. كانت مالقة هي الرئة التي
تتنفس منها غرناطة، والحصن الذي لم تكسره القرون. وقف الفارسُ
البطل حامد الثغري فوق أسوار "الجبل الأخضر"، يرقبُ جيوش
إيزابيلا وفرديناند وهي تحيط بالمدينة كإحاطة القيد بالمعصم، وتغلقُ
الميناء بأساطيل لا يرى المرءُ آخرها.

كان الحصارُ جهنمياً؛ فقد أحرق القشتاليون مزارع التين والزيتون،
ومنعوا حبة القمح عن الأفواه الجائعة حتى أكل الناسُ الجيفَ

والجلود. وقف حامد الثغري بلامحه التي نُحِتت من حديد، وعينيه اللتين أضناهما السهر، وبجانبه الفقيه أبو مروان، الذي كان يرى في صمود مالقة "فلسفة الرmq الأخير".

تحدث حامد الثغري وصوته يخرج كحفيفِ النصل الجريح:

"يا أبا مروان، انظر إلى هؤلاء الناس.. لقد جاعوا حتى لم يبقَ في وجوههم إلا بياض الأعين، لكنهم لم يطلبوا التسليم. مالقة اليوم تقاتل عن غرناطة كلها، فإذا انكسرنا هنا، سُدَّت أبواب البحر في وجهنا للأبد. أين بنو الأحمر؟ أين خيول الحمراء التي وعدتنا بالنجدة؟ هل تركونا لنواجه قدرنا وحدنا أمام آلة الموت هذه؟"

أجاب أبو مروان وهو ينظر إلى مدافع النصارى (الطوب) وهي تنهش جدران المدينة بغصّةٍ مريرة:

"يا حامد، لا تنتظر من غرناطة ما لا تملك. الغرناطيون مشغولون بصراع "الأب والابن" (أبو الحسن وأبو عبد الله)، والفتنة قد أكلت نجدتهم قبل أن تصلنا. نحن اليوم "الذراع المقطوعة" في جسد الأندلس. مالقة تُذبح لتدرك غرناطة أنها القادمة. الفلسفة يا بني هي أن القلعة التي تُترك وحيدة في الميدان، لا تطلب النصر، بل تطلب الخلود بكرامة الموت."

سقطت مالقة، وكان العقابُ القشتاليُّ يقطرُ قسوةً؛ فقد عومل أهلها كأسرى حرب، وبيعوا في أسواق الرقيق في إسبانيا وأوروبا كعبيد، في مشهدٍ هزَّ وجدان العالم الإسلامي. وبعدها بسنتين، في عام **1489**، سقطت "بسطة" العظيمة بعد حصارٍ أسطوري أهلك جيش "الزغل" (خال أبي عبد الله الصغير).

وقف الملك الزغل بعد سقوط بسطة، ينظر إلى الجبال المحيطة بمرارة لا توصف، وتمتم بكلماتٍ كانت هي "رثاء القوة":

"لقد ضاعت الثغور، وانطوت الأطراف، ولم يبقَ في العقد إلا الحبة

الأخيرة: غرناطة. لقد سقطت ذراعي اليمنى في مالقة، وذراعي اليسرى في بسطة، واليوم أدخل في ليل لا نهار له. لم يبق لنا إلا أن ننتظر الدور في طابور الفناء، فمن فقد البحر والجبل، لم يعد له في الأرض مستقر.

كان سقوط الحصون المحيطة هو "الإعدام البطيء" لغرناطة؛ فقد حُرمت من الموانئ (مالقة) ومن مخازن الغلال (بسطة والمنكب)، وصارت المدينة الجميلة كشجرة عارية في مهب الريح، بعد أن قُطعت أغصانها جميعاً. تحولت غرناطة إلى "جزيرة داخل اليابسة"، محاصرةً بالجوع واللجئين واليأس، لتبدأ الفصول الأخيرة من معاهدة التسليم التي ستطوي صفحة ثمانية قرون بـ "مداد الندم".

في ليلة من ليالي تشرين الثاني عام **1491** ميلادية، كان الصمّث في قاعات "الحمراء" أثقل من جبال "البشرات" المحيطة بها. لم تكن الرياح التي تصفر في "بهو السباع" مجرد هواء بارد، بل كانت أنيناً يسكن الزخارف والعرائش. داخل "قاعة السفراء"، وتحت سقفها الخشبي الذي يمثل السموات السبع، جلس أبو عبد الله الصغير، آخر ملوك بني نصر، وأمامه رق من الجلد يحمل بنود "معاهدة التسليم". كان وجهه شاحباً كالقمر في ليلة غسق، ويدها ترتجفان كغصن ذابل، وهو يدرك أن حبر قلمه اليوم هو الدمع الذي ستبكيه الأجيال لقرون.

بجانبه، كانت تقف أمه عائشة الحرة، كالطود العظيم الذي لا تهزه العواصف. كانت عيناها تقدحان ناراً، ووجهها ينطق بإباء يرفض الذل حتى في سكرات الموت. وخلفهم، وقف الوزير أبو القاسم البديل، الذي كان يرى في الوثيقة ضريبة البقاء المستحيل.

تحدثت عائشة الحرة بصوت يقطع هدوء القاعة كحدّ السيف، وهي

تشيرُ إلى المعاهدةِ باحتقار:

"يا أبا عبد الله، أتوقّع بيدك على صكِّ موتنا؟ إنّ هذه الشروط التي تراها 'أماناً' ليست إلاً أغلاً مذهباً. ملكٌ يوقّع على تسليم مفاتيح جنته، هو ملكٌ قد مات قبل أن يُدفن. أين عهدُ أجدادك؟ أين 'لا غالب إلا الله' المحفورة على هذه الجدران؟ إنّ الحجرَ يرفضُ هذا الذل، فكيف يقبله قلبك؟ اخرج فقاتل حتى تُقتل فوق عتباتِ دارك، فالموتُ في سبيلِ الحمراءً أبهى من العيشِ في ظلِّ شفقةِ إيزابيلا."

أطرق أبو عبد الله رأسه، وخرج صوتهً مخنوقاً باليأس المر، وهو ينظرُ إلى خريطةِ غرناطة المحاصرة:

"يا أمّاه، لم يبقَ في المدينةِ قمحٌ يُشبعُ طفلاً، ولا سيفٌ يحملُ شعلةَ الأمل. الناسُ يأكلون اليأس، والعدوُّ يضربُ أطنابهُ في 'سانتا فيه' تحت أقدامنا. هذه المعاهدةُ هي الثمنُ الوحيدُ لنحمي دماءَ من بقي. ألفونسو وفرديناند وعدونا باحترامِ ديننا ومساجدنا ولغتنا. هل أتركُ المدينةَ لتُستباحَ نهباً بالسيوف، أم أشتري لهم أماناً بكرامتي المذبوحة؟"

أجاب الوزير أبو القاسم البديل بنبرةٍ مرتجفةً تقطرُ حزناً:

"يا مولاي، إنّ الوعودَ التي تُكتبُ في وقتِ الضعف، تُمحي في وقتِ القوة. ألفونسو يطلبُ الأرض، ومن ملكَ الأرضَ سيملكُ العقيدةَ واللغةَ غداً. نحن نشترى 'الآن' ونبيعُ 'المستقبل'. الفلسفةُ يا سيدي تقول إنّ القلعةَ التي تُسلمُ بالاتفاق، تفقدُ هيبتها في قلوبِ أهلها قبل عدوها. لكنّ الجوعَ لا يفهمُ الفلسفةَ، والسيفُ المسلطُ على الرقابِ لا يتركُ للعقلِ خياراً."

وقع أبو عبد الله المعاهدةَ، وساد صمتٌ جنائزٍ لم يقطعهُ إلا شهقةُ عائشة الحرة التي غادرت القاعةَ وهي تتمتم: "لقد ضاع الأمل.. وضاعت معه الهوية". تضمنت المعاهدةُ سبعةً وستين بنداً، تعدُّ

المسلمين بالأمان وحرية العبادة، وهي الوعود التي كانت ربحاً في شباك.

كان توقيع معاهدة التسليم هو "الغروب الحقيقي"؛ فلم تكن مجرد وثيقة سياسية، بل كانت "نهاية التاريخ" الإسلامي في الأندلس. وبجفاف الحبر على تلك الأوراق، بدأت غرناطة تنهياً للمشهد الأخير: مشهد تسليم المفاتيح والرحيل الأبدي. كانت فلسفة هذه اللحظة هي "مأساة العجز المنظم"؛ حيث استسلمت العبقريّة المعماريّة والأدبيّة أمام آلة الحرب الموحدة، لتطوى صفحة بني نصر، ويستعدّ العالم ليشهد "الزفرة الأخيرة" فوق تلال الغروب.

السقوط النهائي

في صبيحة الثاني من يناير لعام **1492** ميلادية، لم تكن شمسُ
غرناطة تشرقُ بوهجها المعتاد، بل بدت باهتةً خلف ستائرٍ من
الضبابِ الرماديّ، وكأنَّ السَّماءَ ترتدي ثوبَ الحداد. كانت أسوارُ
"الحمراء" بلونها المرجانيّ الصامت ترقبُ المشهدَ الأكثرَ إيلاماً في
تاريخها. خرج الموكبُ المَلَكِيّ الصغيرُ من "باب الشريعة"؛ لم تكن
هناك طبولٌ تُقرع ولا راياتٌ ترفرف، بل كان صمتٌ يمزقُ نياطَ
القلوب. في المقدمة، سار أبو عبد الله الصغير، يمتطي جواداً لم يعد
يعرفُ خيلاءَ النصر، متوجهاً نحو "سانتا فيه" حيث كان الملكان
الكاثوليكيان، فرديناند وإيزابيلا، ينتظران اللحظة التي حلت بها
قشتالة لثمانية قرون.

وصل أبو عبد الله إلى حضرة الملكين، وترجل عن جواده بوقارٍ
مكسور. وبيدٍ مرتعشة، مدَّ "مفاتيح الفردوس"؛ مفاتيح الحمراء
وغرناطة. كانت تلك اللحظة هي "الشهقة الأخيرة" في صدر
الأندلس. وبجانبه، كان الوزير أبو القاسم البديل، يرقبُ الفرحة في
عيونِ النصارى، والحسرة التي غارت في تجاعيد وجهِ سيده.

تحدث أبو عبد الله بصوتٍ خافت، يكادُ يذوبُ في ريح الشتاء الباردة،
وهو يسلمُ المفاتيح لفرديناند:

"هذه مفاتيحُ جنةٍ لم نُحسن حمايتها. خذها يا مَلِك، واعلم أنّ الله
يؤتي الملكَ مَنْ يشاء وينزعهُ مَنْ يشاء. لقد عاهدتنا على الأمان
والوفاء، فكن لغرناطة رقيقاً لا غازياً، ولأهلها حامياً لا قامعاً. نحنُ
نرحلُ اليوم، ونتركُ خلفنا حجارةً تنطقُ بذكرنا، فاحفظ لها حرمتها
كما يحفظُ الكريمُ عهدَ الغائبين."

تأمل الوزير أبو القاسم مشهدَ رفع الصليبِ الضخمِ فوق "برج
الحراسة" في الحمراء، وأجاب بنبرةٍ فلسفيةٍ يملؤها اليأسُ الرصين:

"يا مولاي، المفاتيحُ في أيديهم، لكنَّ "الروح" ستغادرُ المكانَ معنا.
الحمراءُ الليلة ستكونُ جسداً بلا نبض، وقاعةُ أشباحٍ تبحثُ عن

أصحابها. إنَّ الملكَ فرديناند لا يبتسمُ لك، بل يبتسمُ للتاريخ الذي ركع تحت قدميه اليوم. الفلسفةُ يا سيدي تقول إنَّ القلعةَ التي تُسلمُ بالمفاتيح، لا تُستردُّ بالدموع. اليوم سقطتِ الستارةُ، وانتهتِ الروايةُ، وما نحنُ الآنُ إلا ظلالٌ في طريقِ النسيان.

أوماً أبو عبد الله برأسه، وامتنطى جواده ليرحلَ للمرةِ الأخيرة، وتمتم بكلماتٍ كانت هي "الوصيةُ الموعودة":

"وداعاً يا غرناطة.. وداعاً يا مملكةَ الأحلام. لقد غرسنا فيك كلَّ جميل، وحصدنا فيك كلَّ مريراً. ستبقين في قلبي جرحاً لا يندمل، وفي ذاكرةِ الدنيا دمةً لا تجف. ارحل يا ابن الأحمر، فالحمراءُ اليوم لم تعد حمراء، بل صارت شاحبةً بلونِ الوداع."

كان تسليمُ مفاتيحِ الحمراء هو "النقطةُ التي وضعت في نهايةِ جملةِ الأندلس". لم تسقط مدينةٌ فحسب، بل سقط "الوطن" و"الهوية" و"الوجود السياسي". وبدخولِ الجيشِ القشتاليِّ لبهو السباع، انتهى حكمُ المسلمين للأندلس، وبدأت مأساةُ الشتات. كانت فلسفةُ السقوط هنا هي "فلسفةُ انطفاءِ الحلم"؛ حيث استوعبت غرناطة في تلك اللحظة أنَّ الجمالَ المعماريَّ والشعريَّ لا يحمي الدارَ إذا غابت عنها إرادةُ القتالِ ووحدةُ الصف.

بينما كان موكبُ الرِّحيلِ يبتعدُ عن غرناطة، صاعداً نحو الثنايا الوعرة لجبالِ "البشرات"، كانت الأرضُ تحت أقدامِ المطرودين تبدو كأنها تنسحبُ من تحتهم ببطءٍ أليم. وحين بلغ الموكبُ قمةَ التلةِ المعروفةِ اليوم بـ "تلة زفرة العربي الأخيرة"، لم يتمالك أبو عبد الله الصغير نفسه؛ فاستدار بجواده ليلقي النظرةَ الوداعيةَ الأخيرةَ على "الحمراء". كانت القصورُ تتلألأُ في الأفقِ البعيد كأنها قطعةٌ من العقيق سقطت في حوضِ الجبل، وضبابُ المساءِ يلُفُّها بوشاحٍ رقيق،

كانها عروسٌ تزفُّ لغير صاحبها.

هنا، انفجرت الغصّة الكامنة في صدر الملك الساقط، وانهمرت دموعه بغزارةٍ لم يعرفها جفناه من قبل. انتحب انتحاباً مرّاً، وارتجف جسده فوق السرج وهو يرى الصليب يلمع فوق "برج الحراسة" الذي طالما اعتلى ذروته.

في تلك اللحظة التراجيدية، اقتربت منه أمه عائشة الحرة، وكانت لا تزال تمتطي جوادها بشموخٍ لم يثنه الكبر ولا القهر. لم تمسح دموعه، ولم تواس قلبه الكسير، بل أطلقت تلك الكلمات التي غدت "سوطاً" يجلدُ ظهر التاريخ وفلسفةً للمسؤولية الضائعة:

"ابكٍ مثل النساءِ مُكاً مُضاعاً.. لَمْ تُحافظِ عَلَيْهِ مِثْلَ الرِّجالِ."

توقف أبو عبد الله عن النحيب لحظة، ونظر إلى أمه بعينين مجهدتين، وخرج صوته كحفيف الورق المحترق:

"يا أماه، أتريديني جرحاً فوق جرحي؟ إنني أبكي "الأندلس" التي تضيعُ مني، وأبكي ثمانية قرونٍ من تاريخ أجدادي أطفئ سراجها بيدي. كيف لا أبكي والحمراء تغيبُ عن عيني للأبد، وصوت الأذان سيُخنقُ بعد قليلٍ في تلك المآذن؟"

أجابت عائشة الحرة، ونبرتها تزدادُ صلابةً ومرارة، وهي تشيرُ بسوطها نحو القصور البعيدة:

"الدموعُ يا بني هي سلاحُ العاجز، والندمُ لا يعيدُ ما سلبهُ التواني. لو كنتَ قد بذلتَ في ساحاتِ القتالِ نصفَ ما تذرفه الآن من دموع، لما كنا اليوم نقفُ على هذه التلةِ لنودعَ حلمنا. لقد أضعتُ "اللحظة" يوم أن كنتَ تملكُ السيف، فلا تطلب "الرحمة" اليوم وأنت تملكُ العبرات. غرناطةُ التي تبكيها الآن لم تسقط اليوم، بل سقطت يوم أن فرقتم كلمتكم ووهنتم أمام عدوكم. ارحل يا بني، ودع الغرباء يسكنون ديارنا، فقد صرنا نحن الغرباء عن كرامتنا."

أدار أبو عبد الله وجهه عن المدينة، وغرس مهمازيه في جنبات جواده، لينطلق نحو المجهول وهو يتمتم: "لا إله إلا الله.. قضاء قدر وستر هتك".

كانت زفرة العربي الأخيرة هي "الخاتمة الوجدانية" لقصة الأندلس؛ ففي تلك اللحظة، لم يسقط ملكٌ فحسب، بل سقطت "السيادة". سُميت تلك التلة باسمه، وبقي موقفه هناك درساً فلسفياً خالداً: "إنَّ مَنْ لَا يَحْرُسُ وَطَنَهُ بِالْعَرَقِ وَالْدَمِ، سَيَنْتَهِي بِهِ الْمَطَافُ لِيَبْكِيَهُ بِالْدَمِ وَالنَّدَمِ". رحل أبو عبد الله، تاركاً خلفه أندلساً تدخل "ليل النصرانية" الطويل، لتبدأ بعدها فصولٌ أخرى من المعاناة تحت حكم الملوك الكاثوليك، حيث لن يرحم المنتصر دمة المهزوم.

في الشهور الأولى التي تلت الثاني من يناير عام **1492** ميلادية، خيم على غرناطة صمتٌ مريب، كان يشبه هدوء البحر الذي يبتلع الحطام قبل أن يثور. لم يقتحم القشتاليون البيوت فوراً، ولم تهدم المساجد في الليلة الأولى، بل بدا الملكان الكاثوليكيان، فرديناند وإيزابيلا، كأنهما يرتديان قناع "السّماحة" لتتويم مارد الغضب في حيّ "البيازين". كانت بنود معاهدة التسليم تُتلى في السّاحات، وتعدّ المسلمين بحرية العبادة، وبقاء القضاء الشرعيين، واحترام اللغة والزّي، وكان غرناطة لم يتغير فيها شيءٌ سوى هويّة من يسكن رأسّ الجبل.

في زاوية من أزقة "البيازين" الضيقة، حيث تتشابك الياسمينات فوق الجدران البيضاء، جلس الحكيم أبو مروان أمام بيته، يرقب جند "الأرمنداد" (الشرطة القشتالية) وهم يمشون بوقارٍ مصطنع وسط الناس. وبجانبه كان صديقه يوسف، الذي كان يتهباً لفتح حانوته وكان الحرب لم تكن بالأمس.

تحدث يوسف بنبرة يملؤها تفاؤلٌ حذر، وهو ينظر إلى مئذنة المسجد

القريب التي لا يزال يُرفعُ منها الأذان:

"يا أبا مروان، لعلَّ الأمرَ أهونُ مما خشينا. انظر، الأسواقُ قد عادت، والجندُ لا يتعرضون لنا بسوء، وفرديناند قد أوفى بعهده حتى الآن. لعلنا نعيشُ في كنفهم كما عاش "المدجنون" من قبلنا في إشبيلية وطليلة. الأرضُ لله يورثها من يشاء، والمهمُّ أن يبقى المصحفُ في أيدينا، واللغةُ على ألسنتنا."

تأمل أبو مروان الجبالَ التي تحيطُ بغرناطة بوقارٍ حزين، وأجاب بصوتٍ يقطرُ حكمةً مثقلةً بالتوجس:

"يا يوسف، لا يغركَ سكونُ الأفعى وهي تبدلُ جلدها. إنَّ هذا "التسامح" ليس رحمةً، بل هو "سُمُّ بطيء" يُراد به تخديرنا حتى تشتدَّ قبضتهم. فرديناند لم يأتِ من أقصى الشمال ليكون شريكاً لنا في الهواء، بل جاء ليمحو أثرنا. الوعودُ التي تُكتبُ بالحريرِ في ساعاتِ النصر، تُمحي بالدمِ في ساعاتِ التمكين. إنهم يمنحوننا "الأمان" اليوم ليقتلوا فينا "روح المقاومة"، حتى إذا ما اطمأنت ووضعتَ سيفك، أخذوا منك مصحفك ولغتك ودارك."

هزَّ يوسف رأسه غيرَ مصدق، وتساءل بوجل:

"ولكنَّ العالمَ كلهُ شهدَ على ميثاقهم!"

ردَّ أبو مروان بكلمةٍ كانت كأنها قراءةٌ في الغيب:

"التاريخُ لا يشهدُ إلا للأقوياء يا يوسف. الفلسفةُ تقول إنَّ المنتصرَ لا يطبقُ رؤيةَ وجهِ المهزومِ في مرآتهِ طويلاً. اليوم نحنُ "مواطنون" في ظلِّ معاهدة، وغداً سنكون "غرباء" في أرضنا، وبعد غدٍ سنكون "خارجين عن القانون" بسببِ صلاتنا. استمتع بهذا الضياءِ القليل، فالفجرُ الذي نراه اليوم ليس طلوعاً، بل هو "الشفقُ الكاذب" الذي يسبقُ ليلَ المحنِ الطويل."

كان "وعدُّ التسامحِ الأولي" هو "الفترةُ البرزخية" في تاريخ السقوط؛

حيثُ عاشَ الغرناطيون في وهمِ الاستمرارية. بمرور الأيام، بدأ الحجابُ ينكشف؛ فاستُبدلَ الحاكمُ المتسامح (تينديلا) بالمتطرف (سيسنيروس)، وبدأتِ الكنائسُ تزحفُ نحوَ المساجد. كانت هذه المرحلةُ هي "فلسفةُ الاحتواءِ الهادئ"؛ حيثُ أدركت قشتالةُ أنَّ اقتلاعَ ثمانية قرونٍ من الجذورِ يحتاجُ إلى "تخديرٍ" أوليِّ قبل البدءِ بعمليةِ البترِ الكبرى.

مع حلول السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، ولدت في غرناطة كائناتٌ بشرية جديدة، ملامحها أندلسية ودماءؤها عربية، لكن أسماءها أصبحت قشتالية غريبة. هم "المورسكيون"؛ أولئك الذين أُجبروا على عبور برزخ ضيق بين الموت أو التعميد. لم يعد المسلمُ في "البيازين" قادراً على الجهر باسم "محمد"، فصار ينادى في الطرقات بـ "فرانسيكو" أو "دييغو"، لتبدأ أكبر ملحمة للازدواجية الروحية في التاريخ. كان المورسكيُّ يخرج إلى الكنيسة صباحاً بوقارٍ مصطنع، لكنه يغسل أثر "الماء المقدس" عن جبينه بمجرد عودته إلى بيته، ليتوضأ بدموع الحنين ويصلي في الأقبية المظلمة.

في قبوٍ صغير تحت بيتٍ عتيق في حي "الفخارين"، وقف إبراهيم (الذي صار اسمه المكتوب في السجلات "خوان")، يلقن ابنه الصغير زيداً حروف الهجاء العربية بصوتٍ لا يكاد يتجاوز أنفاسهما. كانت الغرفة تفوح برائحة الرطوبة الممزوجة بعبق الورق القديم المخبأ خلف الجدران.

تحدث إبراهيم ونبرة صوته ترتجف كشمعةٍ في مهب الريح، وهو يضع يده على فم ابنه:

"يا بني، احفظ هذا الحرف 'ألف'.. إنه عمود دينك، لكن إياك أن تنطق به خارج هذا الجدار. في الخارج، أنت مسيحيٌّ مطيع، ترسم الصليب وتأكل مما يشتهون، ولكن هنا.. أنت سليل الفاتحين. نحن

نعيش في زمن "التقية"؛ حيث صار القلبُ هو المسجد الوحيد الذي لا يستطيعون هدمه. الفلسفة يا ولدي هي أن تحمي "الباطن" لتنجو بـ "الظاهر"؛ فالله ينظر إلى ما في الصدور، والملوك لا ينظرون إلا إلى ما فوق الجلود."

تأمل الصغير زيد وجه أبيه المجهد بالخوف والسرية، وتساءل ببراءة جارحة:

"يا أبي، لماذا نكذب على الله؟ لماذا نذهب لتلك القباب الكبيرة (الكنائس) ونحن نحب مآذننا؟ أشعر أنني جسدٌ بلا روح حين يسكبون الماء البارد على رأسي في المعمودية."

أجاب إبراهيم بصوتٍ يقطر حزناً وفلسفةً وجودية مرة:

"نحن لا نكذب على الله، بل نداري القيدَ لكي لا يذبحنا. نحن اليوم "المورسكيون" .. المنبوذون من الطرفين؛ النصارى لا يثقون في تنصرنا، وإخواننا في المشرق قد نسوا أنيننا. نحن نقاتل من أجل "البقاء النوعي"؛ فإذا جهرنا هلكننا وانقطع ذكر الإسلام من هذه الأرض، وإذا ذبنا فيهم ضاعت أمانة الأجداد. فكن يا بني كالنهر تحت الأرض؛ يجري في صمتٍ ولا يراه أحد، حتى تأذن السماء بالانفجار."

كان ظهور المورسكيين هو "مأساة الهوية الموعودة"؛ فقد تحولت حياتهم إلى "سجنٍ نفسي" كبير. صار البيتُ محراباً، والسوقُ ميدان حربٍ نفسية، والملابسُ القشتالية دروعاً لاختفاء الجسد المتوضئ. كانت هذه المرحلة هي فلسفة "الصمود السلبي"؛ حيث أدرك الأندلسيون أنَّ السيادة السياسية قد ضاعت، فلم يبقَ أمامهم إلا "السيادة الروحية" التي يخبئونها في طيات ثيابهم، منتظرين فجراً قد يطول ليله لقرنٍ ونصف من العذاب والمطاردة.

في عام **1499** ميلادية، انتهى زمن المداراة وبدأ زمن المقصلة. دخل الكاردينال "سيسنيروس" غرناطة، لا كحامل رسالة سلام، بل كأعصارٍ يحمل في طياته "التطهير العرقي والديني". كان سيسنيروس رجلاً ضامر الجسد، يرتدي ثوباً من الصوف الخشن يخفي خلفه قلباً من حديد؛ كان يرى أن وجود مسجدٍ واحدٍ في غرناطة هو "إهانةٌ" للصليب الموحد. بكلمة واحدة، ألقى بـ "معاهدة التسليم" في مهب الريح، معلناً أن الوعود التي قُطعت بالأمس لم تكن إلا وسيلةً لتمكين اليوم. وبدأت عمليات التنصير القسري؛ فمن لم يعتنق النصرانية طوعاً، ساقه الجند إليها كأنعامٍ مغلولة.

المشهد الأكثر إيلاماً كان في "المسجد الجامع" بغرناطة؛ تلك الجوهرة المعمارية التي كانت تنبض بالقرآن. حاصر الجند الجامع، وبدأت معاول الهدم تنهش المنبر الخشبيّ المزين بالعاج. وقف الحكيم أبو مروان في ساحة الرملة المقابلة، يرقب رفع الصليب الضخم فوق قبة المسجد، وبجانبه صديقه يوسف، الذي كان يرى في هذا المشهد نهاية العالم.

تحدث يوسف بصوتٍ يخنقه النشيج، وهو يرى "الماء المقدس" يُرش على جدران المسجد لتطهيره بزعمهم:

"يا أبا مروان، أين العهود؟ أين ميثاق الملوك؟ لقد وعدونا أن نظل مساجدنا لنا، واليوم يحولون محرابنا إلى مذبح لتمائيلهم. كيف يسكت الله على هذا الهتك؟ أشعر أن الحجارة تصرخ تحت أقدامهم، وأن تراب غرناطة يلفظ هذا الغدر."

تأمل أبو مروان سيسنيروس وهو يدخل المسجد بخيلاء، وأجاب بنبرة فلسفية تقطر مرارةً وحكمة:

"يا يوسف، إن الوعود بين القوي والضعيف ليست إلا 'هباء' يئثر في ريح المصلحة. لقد نقض الميثاق يوم أن سلّمت المفاتيح، وما نراه اليوم هو الحقيقة التي حاولنا الهروب منها. سيسنيروس لا

يريدُ تغيير ديننا فحسب، إنه يريدُ 'محوناً' من ذاكرة المكان. إنَّ تحويل الجامع إلى كاتدرائية ليس فعلاً دينياً، بل هو 'فعلٌ استلابٍ' سياسي؛ يريدون أن يقولوا لنا إنَّ الأندلس قد ماتت، وإنَّ كلَّ زاويةٍ كانت تهمسُ بـ "الله أكبر" يجب أن تصمت للأبد."

أطبق يوسف يديه على رأسه وهو يسمع صوت النواقيس تُدقُّ من داخل مئذنة الجامع، وتساءل بيأس:

"فماذا يبقى لنا إذا سقط المسجد؟"

ردَّ أبو مروان بكلمةٍ هزت وجدان يوسف:

"يبقى لنا 'الصمودُ الصامت'. لقد حولوا الجامع إلى كاتدرائية، فليكن كلُّ قلبٍ منا مسجداً. إنَّ معركتنا اليوم ليست على الحجر، بل على 'الذاكرة'. سيسنيروس يملكُ الماءَ الذي يبيلُّ الرؤوس، لكنه لا يملكُ اليقينَ الذي يسكنُ الصدور. الفلسفةُ يا صديقي هي أنَّ الجسدَ قد يُجبرُ على الانحناء، لكنَّ الروحَ حرَّةٌ لا تقبلُ التعميد."

كان نقضُ العهود هو "الخطيئةُ التاريخية الكبرى" للملكين الكاثوليكين؛ فقد فُتحت أبوابُ الجحيم على المورسكيين. صودرت الأملاك، وحُرمت اللغة العربية، وأُجبر المسلمون على أكل ما حرم الله ليثبتوا نصرانيتهم. كانت هذه المرحلة هي فلسفة "الاقتلاع العنيف"؛ حيث أدركت غرناطة أنَّ البقاء تحت حكم هؤلاء هو "موتٌ بالتقسيت"، مما فجر الغضب الكامن في العروق، ممهداً الطريق لصرخة "البشرات" الأولى.

في ديسمبر من عام **1499** ميلادية، لم تعد غرناطة تطيقُ قناع الصبر؛ فقد بلغت غطرسة الكاردينال سيسنيروس مداها حين تجرأ جنده على انتزاع امرأة مورسكية من حي "البيازين" لتتصيرها قسراً. كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر الاحتمال. انطلقت

الصرخة من زقاق ضيق، لتردها جبال "البشرات" كصدى لزئير قديم. تحول حي "البيازين"، الرابض فوق الهضبة المقابلة للحمراء، إلى قلعة ملتهبة؛ أغلقت المتاريس، واستبدلت أدوات الفلاحة بالنصال، وصار كلُّ سطح بيتٍ منجنيقاً يقذف الحجارة والكرامة في وجه الغدر القشتالي.

في ساحة "المسجد الأعظم" بالبيازين، وقف القائد الشعبي مبارك، وهو حائِكُ حريرٍ ألقى بمكوكِ النسيج ليمسك بالسيف، وبجانبه الحكيم أبو مروان، يرقبان حشود الجند الذين بدأوا يتسلقون العقبات الصخرية نحو الحي.

تحدث مبارك ونبرة صوته تفيض بحماسة من لم يعد لديه ما يخسره:
"يا أبا مروان، انظر إلى هؤلاء الظلمة؛ ظنوا أن نزع مفاتيح الحمراء قد جعلنا عبيداً في ديارنا. لقد نكثوا العهود، وهتكوا الحرمات، واليوم نقول لهم إن البيازين ليست حارة للسكن، بل هي 'خندق' للدين. لن يدخلوا بيوتنا إلا فوق جثتنا، وسيعلم سيسنيروس أن الماء الذي رشه على جدران مساجدنا لم يغسل الإيمان من عروقنا. هل ترى تلك الجبال (البشرات)؟ إنها تنتظرنا لنحتمي بصدورها إذا ضاقت بنا الأزقة."

تأمل أبو مروان الحجارة التي كان النساء والأطفال يجمعونها فوق الأسطح، وأجاب بنبرة فلسفية حزينة ومجيدة:

"يا مبارك، إن الثورة هي 'الشهقة الطبيعية' للحرية حين يطبق عليها خناقُ الذل. نحن لا نقاتل اليوم لنستعيد ملك ابن الأحمر، بل نقاتل لنحمي 'حقنا في الوجود'. سيسنيروس أراد كسر إرادتنا، فمنحنا بظلمه 'وحدة' افتقدناها لقرون. الفلسفة يا بني هي أن الجسد الذي يُساق إلى الكنيسة بالسلاسل، هو جسدٌ ميت، والروح التي تنتفض اليوم في البيازين هي الروح التي لا تقبل التعميد بغير دم الشهادة. إن صمودنا هنا هو الصرخة التي ستخبر العالم أن

الأندلسَ لم تسلم روحها بعد.

ردّ مبارك وهو يرمي بحجرٍ ضخم نحو أول جندي يقترب:

"إما أن نعيش مسلمين بكرامة، أو نموت مسلمين بوفاء. لا وسطية في الهوية يا أبا مروان."

استمرت الثورة أياماً، واضطر الملك فرديناند للقدوم بنفسه لتهدئة الأوضاع بوعودٍ كاذبة جديدة، لكنّ النار كانت قد انتقلت إلى قلب جبال البشرات الوعرة. هناك، اعتصم المورسكيون بالكهوف والقمم، وحولوا الجبال إلى "مسجدٍ كبير" عصي على الاقتحام. كانت ثورة البشرات الأولى هي "الاختبار الأول لسياسة الاستئصال"؛ حيث أثبت المورسكيون أنّ الهوية لا تُباع بمرسوم ملكي. كانت فلسفة الغضبة هنا هي "فلسفة الرفض الوجودي"؛ فالموتُ تحت شمس البشرات أهونُ من العيش في ظلِّ صليبٍ يُفرضُ بالإكراه. وبانتهاء هذه الثورة، أدركت قشتالة أنّ "تحويل المسلم إلى مسيحي" لن يكون مجرد صلاة، بل ستكون حرباً ضروساً ستستمر مائة عام.

مع مطلع القرن السادس عشر، لم تعد غرناطة تُحكّم من "الحمراء" فحسب، بل صارت تُحكّم من أقبية "محاكم التفتيش" المظلمة. كانت هذه المحاكم ذراعاً كنسياً لا يكتفي بمطاردة الأجساد، بل يسعى لـ "استنطاق الضمائر". انتشر "المخبرون" كالجراثيم في أزقة البيازين، يتشممون الروائح ويسترقون السمع خلف الأبواب. كان يكفي أن يرى مورسكيٌّ يرتدي ثياباً نظيفة يوم الجمعة، أو يُشمّ من بيته ريحَ بخورٍ، أو يُلاحظ عليه امتناعٌ عن أكل لحم الخنزير، ليُساق إلى "ديوان التحقيق" بتهمة "الارتداد إلى دين محمد".

في زنزانية رطبة لا يزورها الضوء، تحت قصر "تريبونال"، كان أحمد (المسمى كذباً ألبرتو) مغلولاً إلى جدارٍ ينزّ ماءً وملحاً. دخل

عليه "المحقق" بجبته السوداء وصلبيه الخشبي الضخم، يسبقه وهج مشعل كأنه عين شيطان.

تحدث المحقق بنبرة باردة كبرودة الموت، وهو يقلب أدوات التعذيب أمام عيني أحمد:

"يا ألبرتو، لقد رآك الجيران تغسل يديك ووجهك قبل الفجر، ووجدنا في بيتك سجادة نظيفاً لا تطؤه الأحذية. لماذا لا تزال روحك تسبح في ظلام الرمال العربية؟ اعترف بذنبك، وتطهر بفضل الكنيسة، وإلا فإن هذه الآلات ستجعل عظامك تنطق بما يخفيه لسانك. نحن لا نطلب جسدك، بل نطلب 'خضوع قلبك' لملكنا وإلهنا."

رفع أحمد رأسه المثقل بالألم، وكانت عيناه تلمعان ببريق عجيب لم تطفئه العتمة، وأجاب بصوت يخرج من أعماق يقين فلسفي جريح:

"أيها المحقق، أنت تملك المفاتيح لهذه الزنازين، وتملك النار التي تحرق الجلود، لكنك لا تملك 'الأفق' الذي أسكنه. نعم، أغسل وجهي لألقى ربي بظاهر نظيف، كما أحاول أن ألقاه بباطن لم تلوثه ريح غدركم. الفلسفة يا سيدي هي أن عقيدتي ليست ثوباً أخلعه بتهديدكم، بل هي 'دمي' الذي يجري في عروقي. كلما زدتم في تعذيبي، زدتم في يقيني أن الحق لا يسكن في سياتكم. تستطيع أن تجبر لساني على نطق صلواتكم، لكنك لن تجبر قلبي على نسيان محرابه."

شاط غضب المحقق، وأمر الجلاد ببدء "جراحة التطهير"، وتمتم بوعيد مريير:

"سنهدم كل بيت يفوح منه ريح الشرق، وسنجعل من صراخكم عبرة لمن يظن أن التقية ستحميه. نحن نطهر إسبانيا من دنسكم، ولو اقتضى الأمر إحراق نصف الشعب."

رد أحمد والجلاد يشد على وثاقه:

"تحرقون الأجسادَ لتميتوا الذكرى، وما علمتم أنّ الرمادَ هو الذي
يخصبُ الأرضَ للثورةِ القادمة. نحن لسنا مجردَ ناس، نحن 'تاريخٌ'
يأبى الانمحاء."

كانت محاكمُ التفتيش هي "الوجه الأكثر قتامةً" للنهضة الأوروبية
الناشئة؛ حيثُ استُخدمت فيها أشنعُ أنواعِ التعذيب (مثل آلة التمطيط،
وكرسي المسامير، والإيهام بالغرق) لكسرِ إرادة المورسكيين. كانت
هذه المرحلةُ هي فلسفة "الإبادة المعنوية"؛ حيثُ أرادت الكنيسةُ
والدولةُ خلقَ إنسانٍ بلا ذاكرة وبلا هوية. وبسببِ هذا الرعبِ المنظم،
تحولت حياةُ المورسكيين إلى ملحمةٍ من الصمودِ السري، حيثُ صار
السكوتُ هو الكلام، والموتُ هو الولادة، ممهداً الطريقَ للحظةِ
الانفجارِ الكبرى في "البشرات" مرةً أخرى.

في عام **1500** ميلادية، كانت ساحة الرملة في غرناطة على موعدٍ
مع حريقٍ لم يسبق له مثيل في تاريخ المدن؛ حريقٌ لم يلتهم البيوت،
بل التهم "الذاكرة". بأمرٍ من الكاردينال سيسنيروس، صودرت آلاف
المخطوطات العربية من خزائن الحمراء ومساجد البيازين ودروس
العلماء. سُحب أكثر من ثمانين ألفَ مجلد (وفي رواياتٍ مليون مجلد)
لِيُلْقَى بها في وسط الساحة كأنها جيفٌ منبوذة. كانت هذه الكتبُ تحملُ
عرقَ النساخ، وأنفاسَ الفلاسفة، وخرائطَ النجوم، وعلاجاتِ الأبدان؛
كانت خلاصة ثمانية قرون من السيادة العقلية الإسلامية.

أضرمت النار، فتعالت ألسنةُ اللهب البرتقالية لتلغقَ أطرافَ السحاب،
وتصاعد دخانٌ أسودٌ كثيفٌ يفوحُ برائحة الورق العتيق والزعفران
والمسك الممزوج بالحبر. وقف الحكيم المورسكي كريم في زاويةٍ
قصية من الساحة، والدموعُ تجري على لحيته بصمتٍ يفتتُ الصخر.
وبجانبه كان تلميذه الشاب، الذي كان يرى في هذا الحريق ضياعَ

مستقبله.

تحدث كريم ونبرةً صوته تشبه حشرجة المحتضر، وهو يرى ورقةً
محترقةً طارت في الهواء تحملُ لفظ "الجلالة":

"يا بني، انظر إلى هذا المأتم.. اليوم لا يحرقون الورق، بل يحرقون
"عقولنا" التي استعصت عليهم. سيسنيروس يظن أنه إذا محا
مدادنا، سيمحو أثرنا من هذه الأرض. هؤلاء القوم يخشون "الكلمة"
أكثر من خشيتهم لل سيف؛ لأن السيف يقتل الجسد، أما الكتاب فيحيي
الأمة. إنَّ كلَّ شرارةٍ تتطايرُ الآن هي عمرُ عالمٍ أفناه في سبرِ أغوارِ
الوجود، يذوبُ في لحظةٍ حقدٍ همجي."

تأمل الشاب الفرسانَ القشتاليين وهم يدفعون الكتب بمذاودهم نحو
قلب النار، وتساءل بيأسٍ وجودي:

"يا أستاذي، كيف نكتبُ غداً؟ كيف نقرأُ تاريخنا وقد صار رماداً
تذروه الريح؟ لقد عُدنا أمةً بلا لسان وبلا ذاكرة."

أجاب الحكيم بوقارٍ فلسفيٍّ مفعمٍ بالإباء:

"يا بني، إنَّ الورقَ يحترق، لكنَّ "المعنى" قد استقر في الأرواح. لقد
حرقوا "تهافت التهافت" و"حي بن يقظان"، لكنهم لن يستطيعوا حرقَ
الطريقة التي نفكر بها. الفلسفة يا ولدي هي أن المنتصر حين يعجزُ
عن مجارةِ حضارةِ المهزوم، يلجأُ إلى إبادتها ليخفي عيبَ جهله.
هذا الرماد الذي يملأُ وجوهنا اليوم، سيكونُ عاراً يلاحقهم في
سجلاتِ الزمان؛ فالعالمُ سيذكر أننا كنا نقرأُ حين كانوا يقتلون، وكنا
نبني حين كانوا يهدمون."

ردَّ الشاب وهو يحاولُ التقاطَ قطعةٍ من رِقِّ نصفٍ محترق:

"لقد انطفأ سراجُ غرناطة يا سيدي."

أجاب الحكيم بيقين:

"بل غار السراج في الصدور. سيبقى العلم سرّاً نتداوله في الهمس،
وسنحفظ مآثرنا في صدورنا كما تحفظ الصدفة لؤلؤتها. غداً، سيعلم
العالم أنّ الذين حرقوا الكتب في ساحة الرملة، قد حرقوا معها
إنسانيتهم."

كان حرقُ الكتب في ساحة الرملة هو "الاغتيالَ الفكري الأكبر" في
الأندلس؛ فقد فقدت الأمة بوصلتها العلمية. تحول المورسكيون من
"أمة كتاب" إلى أمة تكابدُ لمحو الأمية الدينية واللغوية في الخفاء.
كانت هذه المرحلة هي فلسفة "تصحير العقول"؛ حيث أرادت الكنيسةُ
عزلَ الأندلسيين عن تاريخهم ليسهلَ ذوبانهم. لكنّ هذا الرماد
المتطاير استقرَّ في القلوب كنارٍ تحت الرماد، ممهداً الطريق لآخر
غضبةٍ منظمةٍ سيشهدها الجبل.

في ليلة عيد الميلاد من عام **1568** ميلادية، لم تكن الثلوج التي
تكسو قممَ جبالِ "البشرات" هي وحدها الباردة، بل كانت قلوبُ
المورسكيين قد تجمدت من فرطِ القهر الذي مارسهُ الملك "فليب
الثاني". صُودرت الأراضى، وحُرمت الحماماتُ العربية، وصارَ
نطقُ "العربية" جريمةً تُعاقبُ عليها المحاكم. وفي عتمة غابةٍ بقرية
"بنيار"، وتحت شجرة زيتونٍ عتيقةٍ شهدت فجرَ الفاتحين، اجتمعَ
وجهاءُ المورسكيين ليُبايعوا شاباً سليلَ الملوك، هو فرناندو دي
فالور، الذي خلعَ اسمه النصرانيّ في تلك اللحظة، ليُعلنَ نفسه "محمد
بن أمية"، ملكَ غرناطة وكورتها.

كان ابنُ أمية شاباً يفيضُ ملامحةً بحدّة النصل، يرتدي تحت ثيابه
القشتالية قميصاً من الحرير العربي، وفي عينيه تلمعُ أحلامُ الداخلِ
والناصر. وقفَ وسطَ رفاقه الذين عصبوا رؤوسهم بعصائب
خضراء، وبجانبه خاله وساعده الأيمن ابن عبو.

تحدث محمد بن أمية وصوته يترددُ في شعابِ الجبلِ كزئيرِ أسدٍ
محبوسٍ كُسر قيده:

"أيها الأحرار.. لقد ظنَّ الطغاةُ في الحمراء أنهم مَسخوا أرواحنا
حين غَيَّرُوا أسماءنا. اليوم، نخلعُ عن كواهلنا ذُلَّ 'خوان'
و'أنطونيو'، لنعودَ إلى أصلنا الكريم. إنَّ الجبالَ خلفنا ستمطرُ ناراً،
والوديانَ من تحتنا ستفيضُ دماً. لن نصليَ بعد اليوم في الخفاء،
ولن نهادنَ من أحرقَ كتبنا وهتكَ حُرمانتنا. نحنُ أمةٌ تُولدُ من جديدٍ
وسطَ هذا الجليد، فإما أن نستعيدَ غرناطة، وإما أن نجعلَ من هذه
الجبالِ ضريحاً عظيماً يليقُ بتاريخِ بني أمية."

تأمل ابن عبو حشودَ الفلاحين الذين استبدلوا المعاولَ بالرماح،
وأجاب بنبرةِ فلسفيةٍ مفعمةٍ بالإباء:

"يا ملكَ الأندلس، إنَّ هذه الثورةُ هي 'الزفرةُ الحقيقية' لا زفرةَ أبي
عبد الله. نحن لا نقاتلُ من أجلِ قصورٍ فقدناها، بل نقاتلُ لنُنقذَ
'الإنسان' الذي فينا من الضياع. فليبُ الثاني يملكُ الجيوشَ
والمدافع، ونحن نملكُ 'اليأس' الذي لا يهابُ الموت. الفلسفةُ يا
مولاي تقول إنَّ الأمةَ إذا خُيرت بين الذوبانِ أو الانفجارِ، فليس لها
إلا أن تتفجرَ كالحمم. سنُعلمُ أوروبا أنَّ الجمرَ تحت الرمادِ يملكُ
ذاكرةً أقوى من الحديد."

ابتسم ابن أمية وهو يرفعُ رايتهُ الخضراء، وردَّ بيقينٍ هزَّ أركانَ
الليل:

"فليكنَ الانفجارُ إذاً! سنُحيلُ قرى 'البشرات' إلى قلاعٍ لا تفتحُها
خيولهم. سنقاتلُ في كلِّ زقاق، وخلفَ كلِّ صخرة. اليوم نُعيدُ
للأندلس صوتها، وللإسلام في هذا الشمالِ هيبتَه. غداً، سيعلمُ العالمُ
أننا كنا أحياءً ننتظرُ هذه الساعة، وأنَّ المورسكيَّ ليس عبداً، بل
هو نسرٌ أمويٌّ لم ينحنِ إلا ليرتقي."

اشتعلت جبالُ البشراتِ بالثورةِ لعامينِ كاملين ، واستحالَ الجبلُ إلى

"دولة محاربة" أعجزت قادة إسبانيا العظام مثل "دون خوان النمساوي". كانت ثورة البشرات الكبرى هي "الشهقة البطولية الأخيرة"؛ حيث جُسدت فيها فلسفة "الموت بالهوية". ورغم الغدر الذي نال من ابن أمية ثم ابن عبو، ورغم القسوة المروعة التي انتهت بها الثورة بتهجير أهل الجبل وتشتيتهم، إلا أنها بقيت شاهدة على أن ثمانية قرون من الحضارة لا تُمحي بمرسومٍ ورقّيٍّ، وأن الروح الأندلسية بقيت تقاتل حتى آخر نبضة قلب في عروق أبنائها.

في التاسع من نيسان عام **1609** ميلادية، جف ريق الأمل تماماً؛ فقد وقع الملك "فليب الثالث" بجرّة قلمٍ صكّ الإعدام الحضاريّ الأبشع: "طرُد المورسكيين جميعاً من إسبانيا". لم يكن قراراً سياسياً فحسب، بل كان "اقتلاعاً للروح" من جسدٍ تشبث بالتراب لقرنٍ من الزمان. صدر الأمر بأن يرحل مئات الآلاف، شيوخاً وأطفالاً، نساءً ورجالاً، في غضون ثلاثة أيام، لا يحملون معهم إلا ما تسترُّ به الأجساد، تاركين خلفهم بيوتاً لا تزالُ تفوحُ بعطرهم، وزروعاً سقاها عرقُ أجدادهم لثمانية قرون.

في ميناء "دانية" بشرق الأندلس، كانت السفنُ القشتاليةُ ترسو كوحوشٍ خشبيةٍ تنتظرُ التهامَ ما تبقى من "الذاكرة". وقف الحكيم المورسكي إسلام العجوز (المسمى رسمياً روبرتو)، يرتدي ثياباً بالية، وفي يده قماشٌ لفَّ به "مفتاحاً" كبيراً من حديدٍ صديءٍ، وبجانبه حفيده إسماعيل، الذي كان ينظرُ إلى أمواج البحر برعبٍ الطير الذبيح.

تحدث الحكيم بصوتٍ يملؤه وقارُ الفجيعة، وهو يضع يده المرتجفة في جيبه ليتحسس مفتاح بيته في غرناطة:

"يا حفيدي، انظر إلى هذه الضفة للمرة الأخيرة؛ إنها ليست مجرد رملٍ وصخر، إنها 'نحن'. اليوم لا يطردوننا لأننا غرباء، بل

يطردوننا لأننا "الأصل" الذي يذكرهم دائماً بأنهم كانوا هنا ضيوفاً. هذا المفتاح الذي أحمله، ليس لباب من خشب، بل هو "مفتاح الذاكرة". سأحمله معي إلى المغرب، وسأورثك إياه، لتعلم يوماً أن جدك لم يرحل باختياره، بل رُحل لأنه رفض أن يكون غير نفسه."

تأمل إسماعيل الصغير مشهد الآلاف وهم يساقون نحو السفن بسياط الجند، وتساءل بمرارة طفولية:

"يا جدي، هل سيسكن الغرباء في غرفتنا؟ هل سيأكلون من زيتوننا الذي غرسناه؟ لماذا يكرهوننا ونحن نلبس مثلهم ونتحدث لسانهم؟"

أجاب إسلام بنبرة فلسفية تقطرُ شجناً عميقاً:

"يا ولدي، إنهم لا يكرهون وجوهنا، بل يكرهون "المعنى" الذي نحمله. يكرهون أننا نصلي في الصمت، ونغتسل بالضوء، ونحمل في صدورنا تاريخاً لم يستطيعوا كتابته. الفلسفة يا بني هي أن الجسد يغترب، لكنَّ الروح لا تُنفى. نحن نرحل اليوم لنزرع "الأندلس" في قلوبٍ أخرى خلف البحر؛ في تونس وفاس وتطوان. سيأكلون زيتوننا، لكنهم لن يذوقوا طعم بركته، وسيسكنون بيوتنا، لكنَّ الجدران ستبقى تهمسُ بالعربية في أحلامهم. نحن الخاسرون في المادة، وهم الخاسرون في التاريخ؛ فإسبانيا التي تطردنا اليوم، تطردُ معها عقلها ونبض جمالها."

صعد القومُ إلى السفن، وبدأ الشاطئ يبتعد. تعالت الصرخاتُ والزغاريذُ المكتومة ونواحُ النساء اللواتي فقدن أطفالهن في الزحام. كانت السفنُ تمخرُ العباب نحو شواطئ المغرب العربي، حاملةً "بذور الأندلس" لتُغرس من جديد في تربةٍ أخرى.

كان قرار الطرد الجماعي هو "الشهقة الأخيرة" في رواية الأندلس؛ فبمغادرة آخر سفينة، انطوت صفحة الوجود الإسلامي الظاهر والباطن في إبهار الحضارة الغربية. رحل الأندلسيون، وبقيت في إسبانيا آثارهم؛ مآذن صارت صوامع، وكلماتٌ عربية سكنت لسانهم،

ومفاتيح حديدية لا تزال معلقةً على جدران البيوت في الرباط وسلا
وفاس، تنتظرُ يداً تفتحُ باباً لم يعد موجوداً إلا في الخيال. كانت فلسفة
النهاية تقول: "إنَّ الحضارةَ التي تُطردُ بالسيف، تبقى حيةً بالمدادِ
والذكر، وإنَّ الأندلسَ لم تسقط لأنها فكرة، والأفكارُ لا تموت؛ إنها
فقط ترحلُ لتبني في مكانٍ آخر.. جنةً جديدةً."

الجزء الثاني

فرمان الفيكي

فرسان الهيكل..

فصول الجزء :

- أحلام تضيق بالواقع
- طريق الآلام
- التعميد بالدم
- القسم المقدس
- تنظيم فرسان الهيكل
- هيكل سليمان
- أسرار عزرا
- من المحراب إلى الميدان
- دم الفداء
- حطين
- النهاية

أحلام تضيق

بالواقع

في قلب إقليم "شومباني" الفرنسي، حيث تركعُ التلالُ في حضرة السماء وتتوضأ الغاباتُ بضبابِ الحكايا الغابرة، غفت قريةٌ لم تكن صنيعة ريشةٍ أو خيال، بل كانت نقشاً وعرأً خطته سواعدُ الفلاحين وأزميلُ الصبر على صخر الواقع العنيد. هي شامةٌ من طينٍ فوق وجه الأرض، كأنَّ الزمن قد كبا فيها وتعثر، فلبثت تتأرجحُ بين ترابٍ يسقي الحياةً وريداً وريداً، وقلاعٍ شامخةٍ لا تقفُ إلا على هيبة الموت. لم تكن بيوتها مجرد جدرانٍ قامت، بل كانت صرخةً نبتت من صميم الصخور الكلسية، محاطةً بغاباتٍ من البلوط والزان تلتفتُ حولها كستارٍ مسحور، تطلُّ من عتمته ذئابٌ تسرقُ بعوائها السكينة من القلوب الوجلة. وفي خاصرة هذه العزلة، ينسلُّ نهرٌ غامضٌ يجمعُ بين كرمِ الوهب ولؤمِ الغدر؛ يسكبُ في جوفِ الحقول صيفاً ترياقاً زلالاً، فإذا ما حلَّ الشتاءُ ثار ليمحو جراحاتِ الكدح، مخلفاً وراءه طيناً مخضلاً يزفرُ عبيرَ المطرِ والخلود.

هذا العناق مع الطبيعة القاسية انعكس على جدران بيوتها التي لم تُبن لتبهر الأبصار بل لتقاوم الأقدار، فجاءت سميكة من الحجر الخام، مسقوفة بقشٍ مائلٍ يثقله الثلج في كانون، ونوافذها ضيقة لا تسمح إلا بدخول خيطٍ رقيقٍ من الضوء، وكأنها تخشى أن يسرق الغرباء دفاء المواقد، بينما تقف في صدر ميدانها كنيسة حجرية ببرجها المربع كراعيةٍ تحرس قطيعاً من البيوت المتراسة حولها طلباً للأمان، ولا يكسر هيبة صمتها إلا قرع الأجراس الذي يعلن عن ولادةٍ متعثرة أو جنازةٍ مهيبية.

أما الذين سكنوا هذا المدى، فكانوا بشراً قُدوا من صخر الأرض ذاتها؛ رجالٌ ونساءٌ لفحت الشمسُ وجوههم حتى استعارت من لونِ التراب، وغدت أيديهم خشنةً كأرومةِ الشجر العتيق، لا تُبصرُ عقولهم من هذا الكون الفسيح إلا ما تنحسرُ عنه الرؤيةُ من فوق تلالهم المنسية. يسكنُ أرواحهم إيمانٌ فطريٌّ مغزولٌ بخيوطِ الخرافةِ الموروثة، ويطوون أعمارهم في كدحٍ يربطُ ليلهم بنهارهم، صاغرين

لسطوة المواسم ونداء الحصاد. وفي الحانات الضيقة، حيث يختلطُ الدخانُ بالزفير، تدورُ أحاديثهم الوجلة حول أسعار القمح التي تقررُ مصيرهم، أو أبناء الطاعون الذي يطرقُ أبواب القرى كسبح لا يرى. كان الفقرُ قَدَرَهُم المشترك، لكنه فقرٌ تجملُ بالرضا القسري في ظلِّ عيشٍ يقومُ على التبادلِ البسيط؛ فكيسُ الطحينِ ثمنٌ لزوجٍ من أحذيةٍ خشنة، وقارورةُ نبيذٍ حامضٍ تشتري ليلةً مبيتٍ دافئة، في أرضٍ يحرثونها بعرقهم ولا يملكون منها شبرًا، إذ تظلُّ إقطاعية يمتصُّ السيّدُ رحيقها، مخلقًا لهم من رغيفِ الخبزِ الأسودِ وحساءِ البصلِ ما يكفي فقط ليقبوا على قيدِ الجوع.. والوجود.

وسط تلك الرتابة الثقيلة، كانت ظلال العروش تطلُّ برؤوسها من وراء الأفق، لا تنطقُ إلا بلغةِ السيف، إذ لم تكن "الدولة" آنذاك فكرةً تمنحُ الأمان، بل كانت سطوةً تفرضُ الإذعان، وقوةً لا تعرفُ الرحمة. كانت القريةُ الصغيرةُ تقبَعُ دوماً في مرمى النيران، رهينةً لنزاعات النبلاء الذين يقتسمون الأرض والسماة كغنائم حرب، فبات جوُّها مشحوناً بزفراتٍ مكتومة ورغبةٍ غامضة في انعتاقٍ لا يجيء. فالحياةُ هناك كانت تننُّ تحت وطأةِ القسوة، والآفاقُ مخنوقةٌ بأسوار القلاع العاتية التي تترصدُ كلَّ شهيقٍ وزفيرٍ يخرجُ من صدور الضعفاء. هكذا ظلَّت القريةُ مسرحاً صامتاً، يلفُّه ترقبٌ مهيبٌ لحدثٍ جليل، زلزالٍ يرتجُّ له سكونُ الطين، ويشرعُ الأبوابُ الموصدة نحو عالمٍ أرحب، يتجاوزُ حدودَ الحقولِ المنهكة وقدَرَ الموتِ الرتيب.

في تلك الآونة، لم تكن فرنسا مجرد جغرافيا، بل كانت مرجلاً يغلي بمشاعر متناقضة، يختلط فيها الخوف من "يوم القيامة" بالرغبة في التكفير عن الذنوب. كانت الكنيسة هي الشمس التي تدور حولها كواكب الحياة والموت، وصوت البابا يتردد في الآفاق كأنه صدى لصوت السماء. ساد اعتقادٌ عميق بأن الأرض قد تلوثت بآثام البشر، وأن الطاعون والقحط ليسا إلا سوطاً إلهياً يؤدب العباد، مما جعل الناس يعيشون في حالة من "الهلع المقدس"، يفتشون عن طريق

يغسل خطاياهم ويفتح لهم أبواب الجنة الموصدة.

وعلى الضفة الأخرى من الحياة، كان المجتمع الإقطاعي يئن تحت ثقل طبقة من الفرسان والنبلاء الذين لم يعودوا يجدون ما يشبع نهمهم للسلطة والمال. ضاقت فرنسا بفرسانها؛ فالأرض لم تعد تكفي للجميع، وصراعات " الأمرء الإخوة الأعداء " على الميراث والحدود حولت القرى إلى ساحات حرب دائمة. كان هناك "فائض" من القوة" لا يجد له مصرفاً، وطاقةً قتالية مكبوتة تبحث عن عدو خلف الحدود، مما جعل المجتمع كغابة جافة تنتظر عود ثقاب واحداً لتنفجر في هجرة كبرى نحو الشرق.

في هذا المناخ المشحون، كانت القدس بمثابة العقدة التي تشابكت فيها كل حبال الآمال ، حيث امتزج النداء الديني بالضييق الاجتماعي؛ فالفقير رأى في "القدس" أرضاً تفيض لبناً وعسلاً تخلصه من ذل الإقطاع، والفارس رأى فيها فرصة للمجد والثروة، والكنيسة رأت فيها توحيداً لأوروبا الممزقة تحت راية الصليب. كانت القلوب قد سُحنت بالقصص عن "الأماكن المقدسة" التي يتهدها الخطر، حتى بات الصمتُ في الكنائس والأسواق صمتاً يسبق العاصفة، بانتظار تلك الصيحة التي ستخرج من حجرة البابا "أوربان الثاني" لتعلن أن "الرب يريد ذلك"، وتدفع بالآلاف، من النبلاء في قلاعهم إلى الفلاحين في قراهم، نحو رحلة لا عودة منها.. حيث اختلفت الغايات و النوايا و توحد اتجاه البوصلة في كل الايادي ..

"آرنولد دي روسو"، ذاك هو الغصن الفتى الذي نبت من جذور تلك القرية الصخرية، شابُّ فارع الطول، كأن قامته استمدت شموخها من شجر البلوط الذي طالما صرعه بفأسه. كان جسده بنياناً من عضلٍ صلب فتلته سنوات الكدح في الغابات، فغدا نصل ملامحه حاداً كوقع حديد القين، يزدان بوجهٍ نحتته الرياح والشمس حتى صار بلون النحاس العتيق. أما عيناه، فكانتا كبحرين من رمادٍ تشتعل فيهما جمرةٌ لا تنطفئ، نظرةٌ تخترق حجب الرتابة المحيطة به، ولا تشبه

في استكانتها عيون الفلاحين الذين أدمنوا النظر إلى التراب؛ بل كانت عيوناً ترقبُ الأفق، كأنها تبحث عن ممرٍ سريّ خلف التلال الموصدة.

كان آرنولد نجاراً وخطاباً، يداه اللتان تروضان جذوع الشجر الخشنة كانت تملك دقةً تثير الدهشة، فبينما كان يصنع للأهالي محاريثهم ومقاعدهم، كان خياله يصوغ من الخشب مقابض لسيوفٍ وهمية يلوح بها في خلوته. لم يكن آرنولد مجرد عاملٍ يعيش ليأكل، بل كان صمته غابةً من التساؤلات، وهدوؤه سكوناً يسبق عواصف التغيير. عُرف بأنفته التي لا تنكسر أمام سوط "الرق"، وبأن طباعه كانت مزيجاً غريباً من الرقة مع الضعفاء والصلابة أمام الجبابرة؛ فكان في حانات القرية صوتاً للعقل، وفي غاباتها وحشاً لا يرهب الذئاب.

عاش في كنف أمٍ أرملة لم تتجب غيره، حيث توفي والده وهو رضيع، فعزفت الأم عن الزواج بعده وفاء لزوجها وحباً بابنها، كي تحميه وترعاه بأشفار العيون.. لكن في الآونة الأخيرة باتت الأم ترقبُ قلق ابنها بعين الخوف، تلمس في ملمس ثيابه رائحة الرحيل، وتعلم أن ابنها الذي ورث عن أبيه الفأس والفقر، لم يرث عنه القناعة بلقمة العيش المغمسة بالذل. كانت أحلام آرنولد تتجاوز رغيف الخبز الأسود وشورية البصل الرتيبة؛ كان يحلم بكيانٍ يمنحه المعنى، وبقضية تغسل عنه غبار "التبعية" للإقطاع. في أعماقه، كان ثمة يقينٌ ينمو بأن طين القرية لن يدفن طموحه، وأن صراخ الأجراس في الكنيسة المربعة ليس إلا نداءً شخصياً له، يدعوه لخلع ثوب الخطاب وارتداء قدرٍ جديد، حيث تكون البطولة هي المبتدأ، والمجد هو المنتهى.

تحت شمس تموز التي لم تكن تشرق لتدفئ الأرض بل لتعصر أرواح الساكنين، كانت حقول القمح في تلك القرية تمتد كبحر من الذهب المحرم، متموجةً تحت سياط الحرارة التي تجعل الهواء يرتجف فوق السنابل. لم تكن السنابل تشق طريقها نحو السماء كعلامة على

الوفرة، بل كانت تبدو مثقلةً برؤوسها المنكسرة، كأنها تعتذر للفلاحين عن الجهد الذي يبذلونه في حمايتها، وهي تعلم أنها لن تستقر في جوف صغارهم.

في ذلك المدى الملتهب، انتشر الفلاحون كظلالٍ باهتة؛ أجسادٌ نصف عارية لفتحها الشمس حتى كادت تتشقق، وظهورٌ انحنى حتى ألفت الطين، يقبضون على المناجل بأيدٍ نازفة، ويتحركون بإيقاع رتيب يقطعه الأنين. لم يكن الحصادُ عُرساً، بل كان جنازةً طويلةً يُدفن فيها عرق الجبين ليحيا به من يسكن القلاع.

وسط هذا الصمت الذي لا يكسره إلا صرير المناجل، شقَّ الهدوء وقع حوافر خيلٍ صقيلة. كان أحد "أزلام" الإقطاعي، يرتدي بزةً جلدية لامعة تتناقض مع أسمال الفلاحين البالية، ويمسك سوطاً يلوح به في الهواء بزهوٍ مريض. توقف بجانب رجلٍ عجوز، كان جسده النحيل يرتجف كقصبه في مهب الريح، وقد غمر العرق تجاعيد وجهه العميقة حتى عميت عيناه، فترنح وكاد يغمى عليه تحت وطأة شمس الظهيرة التي بلغت ذروة بطشها.

سقط العجوز على ركبتيه، مستنداً إلى منجله، لاهثاً كذبيحةٍ استعصى عليها الموت. في تلك اللحظة، لم يجد "الزلمة" في قلبه متسعاً للرحمة، بل قهقهة بضحكةٍ باردة جمدت الدماء في العروق، ثم ترجل عن فرسه وركل العجوز في صدره ركلةً أسقطته قفاه على السنابل التي حصدها بدمه.

قال بلهجةٍ تمطرُ سخريةً ووعيداً: "قم أيها الجيفة! التعبُ هنا ممنوع.. أرضُ السيد لا تقبلُ الضعفاء. تذكر جيداً، إذا تأخرت في دفع ما عليك من ضرائب، فستكون راحتك التالية في قبرك، وهناك ستجد متسعاً من الوقت للنوم!"

كان "آرنولد" يراقب المشهد من بعيد، وقد انغرزت أصابعه في مقبض فأسه حتى ابيضت مفاصله. كانت تلك اللحظة، وتلك

الضحكة، هي المسمار الأخير في نعش انتمائه لتلك الأرض. رأى في ركلة العجوز ركلةً لكرامته الشخصية، وفي تهديد القبر حقيقة واقعه المرير.

في تلك الليلة، كان الضبابُ يلفُّ الحانةَ الخشبيةَ المتهاكّةَ ككفنٍ ثقيل، ورائحةُ النبيذِ الحامضِ تمتزجُ بدخانِ المداخنِ المكتومة. جلس "آرنولد" بين رفاقه، "إيتيان" المزارع الذي انحنى ظهره قبل أوامره، و"جيرار" الذي فقد عينًا في نزاعٍ تافهٍ على حدودٍ حقلٍ لا يملكه.

ضرب "إيتيان" الطاولةَ بيده الخشنة، وقال بصوتٍ يملؤه المرار: "إلى متى يا آرنولد؟ بالأمس أخذ رجالُ السيد 'بارون دي غري' آخرَ صاعٍ من القمح في مخزني، تركوا أطفالي يتقاسمون الهواء، بينما كلابه تقاتل على اللحم المشوي. نحن لا نزرع الأرض، نحن ندفن فيها أعمارنا ليحصدها غيرنا".

نظر "جيرار" إلى سقف الحانة المتهاك وأردف بفلسفة يائسة: "أتساءلُ أحياناً، هل خلقنا الربُّ لنكون سماءاً لهذه الأرض فقط؟ يخبرنا الكاهنُ أنّ الفقراء يدخلون الجنة، لكنه ينسى أن يخبرنا كيف ننجو من هذا الجحيم قبل أن نصل إلى هناك. القسوة ليست في الجوع وحده، بل في هذا الذلّ الذي نتنفسه. نحن هنا مجرد دواب تملكُ أسماء، ولدت لتسحب المحراث وتموت في خندقٍ منسي".

ظلَّ آرنولد صامتاً، يحدقُ في نيرانِ الموقدِ التي كانت تنعكسُ في عينيه الرماديتين كشراراتٍ محبوسة، متذكراً ذلك الزلمة الحقير و هو يركل العجوز في ظهيرة اليوم. ثم قال بصوته الرخيم الهادئ: "الأرضُ ليست قاسية يا رفاق، القسوة في القلوب التي تحجرت خلف أسوار القلاع. نحن نعيش في سجنٍ ليس له جدران، حدوده هي الخوف، وسجانه هو هذا الصمت الذي نبتلعه كل ليلة. إنَّ الله لم يخلق الإنسان ليكون محراثاً في يد إنسانٍ آخر، بل خلقه ليكون

خليفته في الأرض، ولكننا رضىنا أن نكون ظللاً في مملكة الغبار. هل سألتكم أنفسكم يوماً، لماذا يملك النبيل حق الحياة والموت، ونحن لا نملك حق الرغيف؟ هل دمه أرجواني ودمائنا ماء؟ إن الفقر ليس قدراً إلهياً، بل هو الخطيئة التي نرتكبها في حق أنفسنا حين نقبل بغير الحرية سقفاً".

تنهد "إيتيان" بعمق وقال: "لكن التمرد موتٌ يا آرنولد، والكنيسة تقول إن طاعة أولي الأمر من طاعة الرب".

أجابه آرنولد بعمق أكبر: "الطاعة تكون للحق، لا للسوط. إن الرب الذي أوْمُنُ به لا يرضى لعبدٍ أن يسجدَ لغيره تحت وطأة الجوع. نحن نعبدُ الخوف قبل أن نعبد الخالق، وهذا هو ضلالنا الأكبر".

فجأة، انفتح باب الحانة بعنف، ودخل رجلٌ يرتدي ثياب السفر الملطخة بالوحل، كان يُعرف بـ"بطرس"، وهو أحد الحجاج الذين يطوفون بين الأقاليم. وقف في وسط الصالة وأنفاسه تتلاحق، ثم صرخ بصوتٍ هزَّ أركان المكان: "أيها الرجال، هل سمعتم الأنباء؟ السماء قد فتحت أبوابها! في مجمع 'كليرمون'، نادى البابا أوربان الثاني بالخلاص. لقد أعلن أن الذنوب ستُمحى، وأن السيوف يجب ألا تقتل الإخوة بعد اليوم، بل تتوجه لتطهير بيت المقدس، لقد فتح باب الجهاد .. "

صمتت الحانة تماماً، حتى طقطقة الخشب في الموقدٍ بدت كدقات طبول. تابع "بطرس" وعيناه تلمعان ببريقٍ غريب: "الرب يريد ذلك! هكذا هتفت الآلاف. يقولون إن من يرحل إلى هناك سيملك أرضاً تفيض لبناً وعسلاً، ومن يموت فسيموت شهيداً في حضن الرب. لم يعد هناك سيدٌ وعبدٌ في هذه الرحلة، بل فرسانٌ تحت راية المسيح. إنها فرصة لغسل الأرواح من دنس الأرض، والتحرر من قيود السادة الذين استعبدوا أجسادكم. هناك في الشرق، الشمس تشرق على الأحرار فقط".

استطرد بطرس بصوتٍ منخفضٍ مهيب: "يقولُ البابا إنَّ طريقَ
القدسِ هو طريقُ العودةِ إلى الفردوسِ المفقودِ. مَنْ كانَ منكم لُصاً
فليصبح فارساً، ومَنْ كانَ فقيراً فليصبح غنياً بفضلِ الربِّ.

إنها القيامةُ الصغرى قبل القيامةِ الكبرى".

في تلك اللحظة، شعر آرنولد بشيءٍ ينفجرُ في صدره، كأنَّ جداراً
من الجليد قد انهارَ فجأة. شعر بجذوةٍ أملٍ كانت مدفونةً تحت رمادِ
السنين تشتعلُ لتصبحَ حريقاً. لم يعد يرى دخانَ الحانةِ أو وجوهَ رفاقه
المنكسرة، بل رأى خيولاً تسبقُ الريح، وصليباً أحمرَ يشقُّ غبارَ
الشرق، وسيفاً حقيقياً يحلُّ محلَّ فأسهِ المتعبة.

قبضَ آرنولد بيده القوية على حافة الطاولة حتى كاد خشبها يتصدع،
وهمس لنفسه بكلماتٍ لم يسمعها غيره: "إذن، ثمة طريقٌ للخروج
من هذا الوحل.. ثمة فرصةٌ لكي أكونَ رجلاً لا رعية. إذا كان الموتُ
قادمًا لا محالة، فليكن في سبيلِ شيءٍ أعظم من مجرد رغيفِ خبزٍ
مغمسٍ بالذلل و الهوان".

مضت تلك الليلة وحشيةً وطويلة، لم يكن فيها "آرنولد" يصارع
النوم، بل كان يصارع قيديين من حديدٍ وقيداً من حرير. استلقى على
سريره الخشبي الخشن، في غرفته الضيقة التي تفوح منها رائحة
الصنوبر المقطوع، يراقبُ رقص الظلال على السقف وكأنها أشباحُ
مصيره القادم.

في الجوار، كان يسمعُ أنفاسَ أمه الأرملة المتقطعة، تلك المرأة التي
لم يبقَ لها من حطام الدنيا سوى قامته، والتي قضت عُمرها تحرثُ
الصبر في قلبه كما تحرثُ الأرض؛ كيف يتركها لمخالب الجوع
والوحدة؟ ومن جهةٍ أخرى، كانت "صوفيا" تملأُ مخيلته، بابتسامتها
التي تشرق كشمسِ الربيع فوق حقول القمح؛ صوفيا التي وعدّها ذات
فجرٍ تحت شجرة البلوط العتيقة بأن يبني لها بيتاً لا يطرق الغمُّ بابه.

استحالت ساعات الليل إلى صراعٍ مريرٍ بينه و بين ذاته :

«أتخونُ اليَدَ التي أطعمتك الخبزَ مغمساً بدموعها يا آرنولد؟ كيف

لقلبك أن يطاوعك على ترك تلك الأرملة النبيلة تواجهَ شتاءَ العمر وحدها، بلا حطبٍ يدفئ عظامها ولا صوتٍ يؤنس وحشتها؟ هل هذا هو الإيمان الذي تدعيه، أن تهجرَ واجبك لتطارِدَ وهماً خلف البحار؟

وصوفيا... يا وجع قلبي المقيم. كيف لي أن أرحل وأتركها نهشاً لعيون النبلاء المتلصصة، أو زوجةً لفلاحٍ آخر يقيدُها بسلاسل الرتابة التي أحاول أنا الفرار منها؟ أليس البقاءُ بجانبها جهاداً من نوعٍ آخر؟ أن أبني، وأكدح، وأموت هنا في صمتٍ نبيل؟

ولكن... أيُّ حياةٍ هذه التي سأمنحها لهما؟ سأورثُ أمي ذلَّ الحاجة، وسأورثُ صوفيا أطفالاً يولدون عبيداً كما ولدتُ أنا. سأظلُّ ذاك الحطاب الذي ينحني للبارون "دي غري"، أقبلُ يده الملطخة بدمي لكي يمنحني حقَّ الوجود. هل خُلقتُ لأنحت الخشب لقصورهم وأقبر أحلامي في طين حقولهم؟

إنَّ البقاء هنا هو الموت الحقيقي يا آرنولد. البقاء هو الخيانة الكبرى لروحك التي استيقظت على صوت الأجراس. هناك، خلف تلك الجبال، يلوحُ نداءٌ سماوي يَعدُّ بتطهير كل شيء؛ بمسحِ ذلِّ السنين، وبتحويل هذا الفأس إلى سيفٍ يكتبُ التاريخ. يقولون إنَّ السيوف هناك تمنحُ الحرية، وإنَّ الدم المسفوك في سبيل القدس يغسلُ دنس الأرض.

ماذا لو عُدتُ فارساً؟ ماذا لو عُدتُ ومعِي من الكرامة ما يرفع رأس أمي إلى السماء، ومن الثروة ما يجعل صوفيا ملكةً في بيتها لا خادمةً في حقول الآخرين؟ أليس الرحيلُ هو قمة الوفاء لهما، حتى وإن بدا غدراً؟

يا رب، إنَّ صدري يضيقُ بهذه الجدران. إنني أشمُّ رائحة البخور

والبارود، وأسمع صهيل الخيل يناديني من المجهول. لا يمكن للنسر أن يعيش في جحر الأرانب وإن كان دافئاً.

ومع تسلل أولى خيوط الفجر الرمادية من نافذته الضيقة، لم يجد "آرنولد" الخلاص الذي منته به أحلام الليل. تجمّد في مكانه عند حافة السرير، بينما بدأت أصوات القرية تستيقظ؛ صياح الديكة، وصرير الأبواب المتهاكة، ووقع أقدام الفلاحين المتجهة إلى حقول النبلاء. كان الضوء يكشف عن يديه الخشنتين الملطختين برائحة الشجر، وعن قلبه الممزق إرباً بين "مطرقة الواجب" الذي يشده إلى الأرض، و"سندان الحلم" الذي يحلق به فوق السحاب.

تنفّس الصعداء بمرارة، وشعر بجسده يرزح تحت ثقلِ قدرين لا يلتقيان؛ قدر الابن البار والعاشق الوفي، وقدر الفارس المتمرد الذي يرفض الانحناء. أشرقت الشمس بالكامل، لكنها لم تضيء له درباً، بل زادت من وضوح قيوده، ليظلّ واقفاً في عتمة الحيرة، يرقب الفجر بعينين لم تغمضا، وعقلٍ لا يزالُ يسأل: «أيّهما أقتلُ في.. الرجل الذي أنا عليه، أم الفارس الذي أتوق أن أكونه؟».

لم تكن بقية تلك السنة مجرد فصولٍ تمر، بل كانت انحداراً مروعاً نحو قاع الجحيم. فبينما كان "آرنولد" يصارع حيرته، انفتحت بوابات الفناء على قرينه المنسية، حين تسلل "الموت الأسود" (الطاعون) مع رياح الخريف الباردة، ليرسم على أجساد البشر خرائط من الأورام والدمامل السوداء التي لا ترحم.

بدأ الوباء كهمسٍ خفي، ثم تحول إلى صرخة مدوية هزت أركان القرية. زحف الموت من بيتٍ إلى بيتٍ كدخانٍ سام لا يراه أحد؛ بدأت الأجساد تذبل، والعيون تغور في محاجرها، والجلود تتصبغ بزرقةٍ كئيبة. ساد صمتٌ جنائزي لم يقطعه سوى عويل النساء وصوت

عربات الموتى التي تجرها خيولٌ هزال. لم تعد الكنيسة تتسع للجنازات، فصار القرويون يدفنون أحبائهم في حفرٍ جماعية، والذعرُ قد غسل القلوب من الرحمة، فأصبح الأخ يفر من أخيه، والأم تخشى ضمّ وليدها. في تلك الأيام، صارت رائحة الموت، الممتزجة بالبخور المحترق ورائحة الخل، هي هواء القرية الوحيد.

كانت الضربة الأولى في قلب بيت "آرنولد"، حيث اختطف الطاعون أمه الأرملة التي ماتت وهي توصيه بالبقاء، وكأنها كانت تخشى عليه من الدنيا أكثر مما تخشى على نفسها من الموت. ولم يكد يفيق من ذهوله حتى لحقت بها "صوفيا"، ريحانته التي ذبلت في غضون ليلتين؛ ماتت صوفيا وهي تحرق في عينيه، مخلفة وراءها حُلماً لم يكتمل، ووعوداً تحت شجرة البلوط صارت الآن رماداً تذروه الرياح.

في غسق ليلةٍ شاتية، وقف "آرنولد" وحيداً أمام تلتين من التراب الرطب في زاويةٍ منسية من مقبرة القرية. كان جسده القوي يرتجفُ لا من البرد، بل من انكسارٍ لم يعرفه قط؛ لقد فقد القيد اللذين كانا يشدانه إلى الأرض و هذه أشبه بإشارة من يسوع تفتح له أبواب الرحيل مشرّعة ، لكن الثمن كان روحه التي تفتتت مع كل حفنة تراب ألقاها عليهما. سقط على ركبتيه، وغرس أصابعه في الطين البارد، وأطلق زفرةً مكتومة شقت سكون المقبرة.

رفع رأسه نحو السماء التي بدت خاليةً من النجوم، وصاح بصوتٍ مبجوحٍ يملؤه الإصرار والوجع : «لقد أخذكما الموتُ مني وأنا حائر، والآن لم يبقَ لي في هذا الوحل ما أخشى عليه. أقسمُ بدموع أمي التي بللت خبزي، وبوعود صوفيا التي لم تكتمل، أنني سأرحل.. ليس هرباً، بل عودةً إلى الذات. سأعودُ إلى هذا التراب يوماً لا كحطابٍ مكسور، بل كفارسٍ منتصر، يحملُ سيفاً يقطعُ دابر الظلم ورايةً ترفرفُ باسم الرب. سأجعلُ من موتكما وقوداً لنارٍ تظهرُ هذا البلد من واقعه المرير، ولن أهدأ حتى أغسل عار الفقر

بدم الشهادة أو بذهب النصر. انتظرا عودتي.. فأرنولد الذي
عرفتماه قد مات معكما، ومن قام الآن هو جنديُّ الرب الذي لا
يلين».

نهض أرنولد، ولم ينظر خلفه. كانت ملامحه قد تجمدت كأنها قُدت
من حجر القبور، وبدأت خطواته الثقيلة تشق طريقها نحو الشرق،
حيث كانت طبول الحرب الصليبية تُقرع في الأفق، معلنةً ولادة
الفرس من رحم المأساة.

طريق الآلام

لم يكن "آرنولد" يسير في طريقٍ موحشةٍ فحسب، بل كان يسبح في نهرٍ بشريٍّ جارف، يتدفق من أصقاع أوروبا نحو المشرق؛ قافلةٌ انضم إليها خليطٌ عجيب من الأرواح الهائمة، لم يجمعها هدفٌ واحد بقدر ما جمعها "الهروب" من واقع ضاق بأهله، فكان لكل رفيقٍ وجهةٌ في قلبه غير التي يخطوها بقدمه.

كان يمشي في طليعة هذا الزحام الطامعون في الفردوس من المؤمنين الصادقين، أولئك الفلاحون البسطاء الذين يحملون صلباناً خشبية وتقودهم يقينية طفولية بأن القدس بوابةٌ للسماء وليست مجرد مدينة، يقتسمون الصبر مع عائلاتهم الرثة الثياب، ويؤمنون أن لمس الأسوار المقدسة سيغسل أرواحهم من دنس الحياة. وبجانب هؤلاء، كان يسير صائدو الثروات من المرتزقة والنبلاء المفلسين، رجالٌ قُدت قلوبهم من حديد، لم تكن القدس في مخيلتهم صلاةً بل كانت ذهباً وتيجاناً وإقطاعياتٍ تفيض بالثروة، وهم الذين حولوا "طريق الآلام" إلى معسكرٍ حربيٍّ صغير يتدربون فيه على انتزاع المجد بدمٍ بارد.

ولم تخلُ القافلة من وجوهٍ وسمتها سجون الإقطاع، هؤلاء الهاربون من المشنقة من اللصوص والمجرمين الذين أعلن البابا غفران خطاياهم إن هم شدوا الرحال، فكانوا يمشون في أطراف القافلة بعيونٍ حذرة، يفضلون الموت تحت راية الصليب على الموت فوق منصات الإعدام في قراهم. ووسط هذا الصخب، برز الحالمون بالانعتاق من المتمردين الذين يشبهون "آرنولد"، شبانٌ لم تكن تستهويهم الغنائم بقدر ما كانت تخنقهم الرتابة، يسرون بصمتٍ مهيب يجمعون في صدورهم بين قدسية الهدف ورغبة عارمة في إثبات أنهم أكثر من مجرد أدوات للحرب.

كان المشهد يكتملُ بمرور المجاذيب والكهنة المتجولين، رهبانٌ تركوا أديرتهم ليعلنوا عن نهاية العالم، يمشون حفاةً ويزعمون أن الملائكة ترشدتهم، يمنحون الرحلة طابعاً غيبياً ويحولون ليالي البرد إلى جلسات من الوعيد والتبشير، يشعلون نار الحماس بوعود النصر

الإلهي كلما خبت العزائم. سار آرنولد وسط هذا الزحام المتناقض، يراقب كيف يصهر الجوع والطريقُ الجميعَ في بوتقةٍ واحدة؛ حيث يقتسم "القديس" كسرة الخبز مع "القاتل"، ويسقط كبرياء "النبيل" أمام حاجة "الفقير"، لتذوب الألقاب وتبرزُ المعادنُ الحقيقية للبشر تحت سياط التعب والمسير الطويل.

بهذه الرفقة المتناقضة، بدأ آرنولد يدرك أن طريقه نحو القدس لن يكون مفروشاً بالصلوات فحسب، بل بالأهوال التي ستختبر معدنه قبل أن يلامس سيفه الغمد.

كانت وجهة هذه الجموع الهائلة هي مدينة "القسطنطينية"، تلك الحاضرة الأسطورية التي تقف حارساً على بوابة الشرق؛ فقبل أن تطأ أقدامهم رمال بيت المقدس، كان عليهم بلوغ أسوار تلك المدينة العظيمة لتكون نقطة التجمع الكبرى تحت لواء الإمبراطور البيزنطي، ومنها سيعبرون مضيق "البوسفور" نحو الأراضي التي يسيطر عليها السلاجقة في آسيا الصغرى.

كانت القسطنطينية في خيال "آرنولد" ورفاقه هي الفردوس الأرضي الذي سيمنحهم الزاد والسلاح قبل الملحمة الكبرى، فكانوا يقطعون الفيافي والقفار في "طريق الآلام" وعيونهم ترنو نحو أسوارها المنيعة، معتبرين أن الوصول إليها هو نصف النصر، وأن ما بعدها ليس إلا عبوراً نحو المجد الأبدي.

ومع هذا الأمل البعيد، كانت الجغرافيا بطلّة قاسية في تلك الرحلة، فلم تكن الطرق مجرد مسارات، بل كانت خصماً شرساً يتربص بالأنفاس. واجهت القافلة غاباتٍ أوروبية كثيفة، حيث الرطوبة الدائمة تنهش العظام، والتراب يتحول إلى مستنقعات من الوحل الثقيل الذي يبتلع الأقدام المنهكة. ومع صعود الجبال، أصبح الهواء شحياً وبارداً كالنصال، تلسع الرياح الوجوه حتى تشقق الجلود، وتتحول الدروب الجبلية الضيقة إلى مصائد للموت، حيث أي عثرة

تعني السقوط في هاوية لا قاع لها.

لم يكن البرد وحده هو الجلاء، بل رافقه "الجوع" الذي صار رقيقاً مخلصاً للجميع؛ ففرغت الأكياس القليلة من القمح، وتحول البحث عن جذور النباتات أو لحاء الشجر إلى معركة يومية للبقاء. في تلك الليالي الموحشة، صار "الأنين" هو اللغة المشتركة بين الغريب والغريب، فما إن يحل الظلام حتى يغرس الجوع أنيابه في الأحشاء، وتتجمد الأطراف تحت أسمالٍ بالية لا تدفع برداً ولا تستر عورة.

ومع الضعف، زحفت "الأمراض" لتتم ما بدأه الجوع؛ ففتكت "الحمى" و"الديزنتاريا" بمئات الحجاج الذين لم تتحمل أجسادهم الهزيلة قسوة المسير. كانت القافلة تترك وراءها أثراً طويلاً من القبور الضحلة، وأحياناً جثثاً لم يجد الأحياء طاقة لدفنها، فتركت للذئاب التي بدأت تتبع أثر القافلة كظلالٍ جائعة. كان "آرنولد" يرى رفاق الطريق يتساقطون كأوراق الخريف؛ يرى الأم تموت وهي تحتضن طفلها المتجمد، والشيخ يلفظ أنفاسه وهو يتمتم باسم "أورشليم" التي لن تراها عيناه. وسط هذا الموت المجاني، كانت روح آرنولد تتصلب، وجسده الذي اعتاد شقاء الغابات يكتسب مناعةً وحشية، فصار يمشي بعينين غائرتين وقلبٍ صخري، يدرك أن كل خطوة يخطوها فوق جثث الضعفاء هي ثمنٌ يدفعه لكي يولد من جديد في أرض الميعاد.

كانت الغابة في تلك الليلة تننُّ تحت وطأة ريحٍ صرصر، والأشجار المتشابكة فوق الرؤوس تبدو كأصابع شيطانية تحاولُ خنقَ ما تبقى من ضوء القمر. استكانت القافلة المنهكة في بقعة ضيقة، حيث يختلط أنينُ المرضى بحشجة الجوع، وفجأةً، انشقَّ الصمتُ عن صرخة مزقت سكون الموت، وتبعتها قعقة سيوفٍ صدئة وصيحاتٍ وحشية لرجالٍ لم يأتوا للصلاة، بل للاقتيات على بقايا أرواح الضعفاء.

اندفع قطاع الطرق كذئابٍ جائعة من بين الظلال، ينهبون الأسمال

البالية ويذبحون من يقاومُ بدمٍ بارد. وقف زعيمهم، رجلٌ مشوّهُ الوجه يُدعى "روجر القاسي"، وهو يضحكُ بملءِ فمه بينما يرى الحجاج يتوسلون الرحمة. صرخ روجر وهو يرفعُ سيفه : "أين خبزكم وأين ذهبكم أيها الحمقى؟ الربُّ الذي تتبعونه قد نسيكم هنا، فليأخذ هو أرواحكم، ودعوا لنا ما تملكون!"

في تلك اللحظة، ومن خلفِ عربةٍ محطمة، برز "آرنولد". لم يكن يحملُ سيفاً صقيلاً، بل كان يقبضُ على "فأسه" العتيقة التي صحبتُهُ من الغاباتِ البعيدة، تلك الفأس التي عرفت كيف تصرعُ أعتى جذوعِ البلوط. تقدمَ بخطواتٍ ثابتة، وعيناهُ الرماديتان تشعانِ ببريقٍ مخيفٍ لم يألفه اللصوص.

صاح "إيتيان" المرتجف رعباً : "تراجع يا آرنولد! هؤلاء قتلةٌ محترفون، ونحن لا نملكُ إلا العجز!"

لم يلتفت آرنولد، بل ركز بصره على روجر وقال بصوتٍ هادئٍ كهدهوءِ القبر: "ارفعوا أيديكم عن هؤلاء المساكين. الطريق ضيقٌ بما يكفي، والموتُ لا يحتاجُ لمساعدةٍ من أمثالكم."

قهقه روجر ساخراً : "حطابٌ يظنُّ نفسه فارساً؟ عد إلى شجرك أيها الفلاح، قبل أن أصنعَ من عظامك حطباً لناري!"

ردَّ آرنولد وهو يرفعُ فأسه ببطء : "السيفُ في يدِ الجبانِ قطعةٌ حديد، والفأسُ في يدٍ من يملكُ قضيةً هي الموتُ المحقق. هؤلاء الناس ليس لديهم ما تسرقونه سوى جراحهم، فهل صار نهبُ الأوجاع مهنةً للرجال؟"

اندفع أحدُ اللصوصِ نحو آرنولد بضربةٍ طائشة، لكنه تفادها بخفةٍ نمر، وفي لمحِ البصر، هوت الفأسُ بقوةٍ هائلة لتشقَّ كتفَ اللص، فسقطَ يخورٌ في دمانه. صدمةُ المشهد جمدت الجميع. تقدم آرنولد خطوةً أخرى نحو روجر وقال : "أتدعي أن الربَّ نسينا؟ بل الربُّ أرسلني لأكونَ ميزانهُ في هذه الغابة. من منكم يريدُ أن يختبرَ عدالةً

الفأس؟"

استشاط روجر غضباً وهجم بسيفه، لكنَّ آرنولد، الذي صقلته سنواتُ مصارعةِ الأشجار، صدَّ الضربةَ بساعدِ الفأسِ الخشبي، ثم ركلَ روجر في صدره ركلةً قذفت به بعيداً. تراجع بقيةُ اللصوص وهم يرون هذا "المارد" الذي خرج من وسطِ الموتى ليدافع عنهم.

صرخ آرنولد في رفاقه الذين بدأت تدبُّ فيهم الروح : "ارفعوا رؤوسكم! لا يموت المرءُ إلا حين يقرُّ أنه ضحية. القدسُ لا تفتحُ أبوابها للعبيدِ المنكسرين، بل للذين ينتزعون حقهم في الوجود!"

فرَّ اللصوصُ هاربين في عتمةِ الغابة، تاركين وراءهم جثثَ قتلاهم وذهولَ الحجاج. ساد صمتٌ من نوعٍ آخر، صمتٌ ممزوجٌ بالهيبة. اقتربَ شيخٌ ضريزٌ من آرنولد، ولمسَ يدهُ الخشنة وقال : "لقد كنتَ الليلةَ سيفَ الربِّ الذي وعدنا به يا بني."

مسحَ آرنولد نصلَ فأسه بطرفِ ثوبه، ونظرَ نحو الأفق المظلم وقال بمرارة : "لستُ سيفاً لأحدٍ يا أبتاه.. أنا فقط رجلٌ تعبَ من رؤيةِ الضعفاءِ يُداسون. هيا بنا، القسطنطينيةُ لا تزالُ بعيدة، والطريقُ يحتاجُ إلى أحياءٍ لا إلى بكائين."

بعد تلك الليلة، لم يعد آرنولد في نظر القافلة مجرد حطابٍ عابرٍ سبيل؛ بل صار "صاحب الفأس"، الرجل الذي تتجه إليه الأبصار كلما تمايلت غابة أو نبج مجهول. بدأ يتشكل حوله فصيلٌ صغير، نواةٌ من الشبان الذين استردوا كرامتهم بمراقبته، كان منهم "إيتيان" الذي استبدل خوفه بعصا غليظة، و"جيرار" الذي صار ينام وعينه على الطريق.

لم يكن آرنولد يسعى للقيادة، لكنها كانت تسعى إليه بجاذبية القوة الهادئة. وفي ظهيرةٍ شاحبة، بينما كانت القافلة تعبر ممرأً ضيقاً في جبال "البوسنة"، تكرر اختبار الغابة، لكن هذه المرة لم يكن الخصم

بشراً يطعم في الذهب، بل كانت "ذئاب الجبل" التي لم تعرف طعاماً للحم منذ أسابيع.

خرج قطيعٌ ضخم من بين شجيرات الصنوبر، عيونهم صفراء تشع جوعاً وحشياً، وقد أحاطوا بمجموعة من النساء والأطفال الذين تخلفوا عن الركب لجمع الحطب بغية اضرام النار في زمهرير البرد. انشلت الحركة في عروق الجميع، وتجمد الرجال في أماكنهم، إلا آرنولد؛ فقد اندفع نحو القطيع ببرودٍ لا يهتز.

تقدم ذئبٌ ضخم، هو سيد القطيع، وانقضَّ بنباح مكتوم نحو حنجرة امرأة تصرخ. بلمح البصر، كانت فأس آرنولد قد شقت الهواء بحركة دائرية دقيقة، لتهبط فوق رأس الذئب في منتصف وثبته، فخرَّ صريعاً تحت قدميه دون أن ينبس ببنت شفة و الثلج يتشرب دمائه القانية. وقف آرنولد فوق الجثة، وبدلاً من التراجع، تقدم خطوة نحو بقية القطيع، ملوحاً بفأسه الملطخة بالدم، وأطلق صرخةً هزت جدران الجبل؛ صرخةً لم تكن صرخة إنسان خائف، بل كانت زئير كائن استعاد غريزة الصيد البدائية.

تراجعت الذئاب، مطأطئة الرؤوس أمام هذا الكائن الذي بدت رائحة الموت تخرج من مسامه، وفرّت نحو الأعلى. حينها التفت آرنولد إلى رفاقه الذين وقفوا مبهوتين، وقال بصوتٍ أجش: "الذئاب تشمُّ الخوف قبل أن تشمَّ اللحم. إذا أردتم الوصول إلى القسطنطينية، فعليكم أن تتعلموا كيف تنظرون في عيني الموت دون أن ترمش لكم جفن. الذئب والجوع واللص.. كلهم يهابون من يملك يداً لا ترتجف."

قال إيتيان وهو ينظر إلى الفأس بإعجاب: "لقد صرتَ تحكُم الغابة يا آرنولد، فأسك هذه فعلت ما لم تفعله صلوات القساوسة."

ردَّ آرنولد وهو يمسح دماء الذئب عن نصل خشب الفأس: "الربُّ

منحنا الأيدي لنحمي بها الأرواح، والصلوات بلا فعل هي أجنحة بلا طير. القسطنطينية تطلب رجالاً يعرفون كيف يروضون الوحوش، سواء كانت تسير على أربع أو على اثنتين."

عززت هذه الواقعة سطوة أرنولد الفطرية؛ فصار يُستشار في ترتيب الحراسات، وصار الشبان يقلدون مشيته وقبضته. لقد بدأ "أرنولد الحطاب" يختفي تماماً، ليظهر مكانه "أرنولد المحارب"، القائد الذي لم يرتدِ درعاً بعد، لكنه كان يرتدي هبة لا تخرقها النصال.

عند مشارف مدينة "نيقية"، وقبل أن تبلغ القافلة أسوار القسطنطينية العظيمة، كانت مخيمات الحجاج والفرسان تملأ الأفق كمدنٍ من خيام ممزقة. هناك، في ساحة مفتوحة تُستخدم لتدريب الفرسان النبلاء، وقف أرنولد يسقي خيله المتعبة بجانب بئرٍ قديمة، وقد وضع فأسه الشهيرة بجانبه على حجرٍ بارد .

بينما كان أرنولد يمسح الغبار عن وجهه، اقترب منه فارسٌ يمتطي جواداً أصيلاً، لكن ثيابه لم تكن تشي بالبذخ الذي يعهده في النبلاء؛ كان يرتدي درعاً بسيطاً ظهرت عليه آثار الصدأ من ملوحة البحر وتعب الطريق، فوقه عباءة رمادية خشنة. كان هذا الرجل هو "هوج دي باين".

كان هوج رجلاً في الأربعين من عمره، ذاقامة ربعية صلبة، ووجهٍ حفرت فيه المعارك والصلوات أخاديد عميقة. لحيته كانت قصيرة ومختلطة بالشيب، وعينه ... لم تكن عينا مقاتلٍ فحسب، بل عيني راهبٍ يبحث عن الحقيقة في ركام الفوضى. كانت نظراته هادئة، لكنها تملك ثقلاً يجعلك تشعر أنك أمام جبلٍ لا يتزحزح.

توقف هوج ونظر إلى الفأس الملقاة بجانب أرنولد، رفع بصره إلى أرنولد الذي كان يفوقه طولاً وقوة. ثم قال بصوتٍ عميقٍ ورزين :

"لقد سبقتك قصص هذه الفأس إلى معسكر الفرسان قبل وصولك يا فتى. يقولون إنك روضت بها ذئاب الجبل وكسرت بها غطرسة اللصوص في غابات البلقان .. هل أنت الحطاب الذي يتحدثون عنه؟"

وقف آرنولد باعتدال، ولم ينعكس رأسه كما كان يفعل أمام نبلاء قريته، ورد بثبات :

"أنا رجلٌ فقد كل شيء في غابات 'شومباني' ولم يبقَ له سوى هذه القطعة من الحديد ليحمي بها ما تبقى من روحه يا سيدي."

نزل هوج عن جواده، واقترب ببطء حتى صار في مواجهة آرنولد تماماً. لمس مقبض الفأس الخشبي الخشن، ثم نظر إلى يدي آرنولد المليئتين بالندوب وقال بابتسامة خفية :

"السيوف يشتريها الملوك لمن يملك الذهب، لكن الفأس التي تحمي الضعفاء تصنعها الإرادة. لقد رأيتُ فرساناً بدروع مذهبة يفرون أمام أول بادرة خطر، ورأيتُ في عينيك الآن ما أبحث عنه منذ غادرتُ فرنسا .. إيماناً لا يحتاجُ إلى زخرف."

أردف هوج وهو يضع يده على كتف آرنولد، في حركةٍ ولد معها في تلك اللحظة رباط مقدس سيمتد لسنوات :

"يا آرنولد، القدسُ تطلبُ السيوف، لكن الربَّ يطلبُ القلوبَ الصلبة. إن فأسك هذه قد أدت مهمتها في الغابات، لكنني أرى في كفيك قدراً أعظم. ما رأيك أن تستبدل هذا الخشب بسيفٍ يخدم قضية لا تموت؟"

شعر آرنولد لأول مرة أن ثمة من يرى فيه "الإنسان" لا "الخادم"، وأن ثمة نبلاً حقيقياً لا يحتاج لقصورٍ ليثبت وجوده. في تلك اللحظة، وسط غبار المخيمات وصهيل الخيل، وُلد الرابطة الأولى بين مؤسس جماعة فرسان الهيكل وأول فرسانه؛ رابطة لم يبنَ على رتبة عسكرية، بل على "اعترافٍ" متبادل بين روحين صهرتهما المعاناة.

في فجر اليوم التالي، وتحت سماء "نيقية" التي صُبغت بلون الأرجوان، اقتاد "هوج دي باين" الشاب آرنولد إلى ساحة رملية معزولة خلف الخيام. ألقى إليه بسيفٍ خشبي ثقيل، وزنه يضاهي وزن السيوف الحقيقية، بينما استل هو سيفاً مماثلاً.

وقف هوج بوضعية قتالية تنمُّ عن خبرة السنين، وقال بلهجة حازمة :

"الفأسُ يا آرنولد سلاحُ الهجوم الواحد، تعتمد على قوة الكتف وعنف الضربة. أما السيف، فهو امتدادٌ لروحك، يحتاج إلى خفة العين، ومكر القدم، وسرعة البديهة. الفأس تقتل، لكن السيف يحمي ويناور. الآن.. هاجم كأنك تهاجم شجرة بلوط تريد اقتلاعها!"

اندفع آرنولد بهياج فطري، مسدداً ضربةً رأسية عنيفة كادت أن تحطم السيف الخشبي لو أصابته، لكن هوج، بحركة انسيابية بسيطة، انحرف بجسده وترك الضربة تخطئ هدفها لتغرس نصل الخشب في الرمال.

"قويٌّ كالثور، لكنك مكشوفٌ كصحراء!" صاح هوج وهو يلمس كتف آرنولد بطرف سيفه بخفة. "القوة بلا انضباط هي مجرد انتحار بطيء. لا تضرب بقلبك، اضرب بعقلك."

تكررت المحاولات، وآرنولد يتصيب عرقاً، يشعر بأن السيف في يده جسمٌ غريب لا يطيعه كما تفعل فأسه. لكن مع مرور الوقت، بدأ يدرك الإيقاع؛ بدأ يلاحظ حركة كتف هوج قبل أن تتحرك يده، وبدأ يتعلم كيف "يمتص" الضربات بدلاً من صدها بعنف.

في الهجمة الأخيرة، فاجأ آرنولد معلمه؛ تظاهر بضربة علوية، وعندما رفع هوج سيفه للصد، انخفض آرنولد بسرعة مذهلة - و هي خفة اكتسبها من مراوغة الأشجار المتساقطة في الغابة - ووجه طعنة وهمية نحو خاصرة هوج، متوقفاً قبل ملامسته بشعرة.

ساد الصمت، ثم انفجر هوج ضاحكاً وهو يخفض سيفه، وعيناها تلمعان بتقدير حقيقي :

"لقد تعلمتَ الدرسَ الأهم في ساعة واحدة يا آرنولد. لقد طوعتَ وحشية الغابة لنبل السيف. الفأس منحتك القوة، لكن قلبك سيمنحك الفروسية."

مسح آرنولد العرق عن جبينه، ونظر إلى السيف الخشبي بين يديه كأنه يكتشف عضواً جديداً في جسده، وقال بصوت يملؤه الاحترام :
"سيدي، لقد كنت أظن أن الحرب هي القوة، لكنني أرى الآن أنها حكمة تُكتب بالحديد."

أغمَد هوج سيفه الخشبي في حزامه، وقال وهو يتطلع نحو الأفق حيث تلوح من بعيد أبراج القسطنطينية الذهبية :

"الحربُ يا بني هي الضرورة القبيحة، أما الفروسية فهي الفن الذي يجعل تلك الضرورة مقدسة. غداً سندخل المدينة العظيمة، وهناك سأعطيك سيفاً من فولاذ 'طليطلة'، لا يجعلك قاتلاً، بل ليكون عهدك مع الرب وحصنك للضعفاء."

بينما هما يغادران الساحة، كان آرنولد يشعر بأن طين قريته قد جفَّ تماماً عن روحه، وأن بذلة "الفارس" بدأت تُنسج في غيب الأقدار، تمهيداً للدخول الكبير إلى عاصمة الأباطرة.

مع بزوغ فجر اليوم التالي، انجلت الغمامة عن المشهد الذي لم يكن ليصدقه عقل "آرنولد" المجبول من طين "شومباني"؛ ففي الأفق، ارتفعت أسوار القسطنطينية كجبالٍ من مرمرٍ وذهب، تضربُ جذورها في مياه البوسفور الزرقاء وتتناطح السحاب بأبراجها التي لا تنتهي.

وقف آرنولد بجانب "هوج دي باين" أمام "بوابة الذهب"، تلك البوابة

التي كانت تعبرُ منها جيوش الأباطرة المنتصرة. شعر آرنولد بضآلة حجمه وهو يرفع رأسه نحو القناطر العملاقة المكسوة بالبرونز المذهب، والتي كانت تعكس أشعة الشمس بقوة تكادُ تخطفُ الأبصار. لم تكن مجرد مدينة، بل كانت كوكباً درياً سقط فوق الأرض؛ شوارعها المرصوفة بالرخام الأبيض، أعمدتها الشاهقة التي تحمل تماثيل الأبطال، والقصور التي تطلُّ شرفاتها على البحر كأنها تيجانٌ مرصعة بالياقوت.

همس آرنولد بصوتٍ مخنوق بالذهول: "سيدي هوج، هل هذه هي الجنة التي وعدنا بها القساوسة؟ أم أننا متنا في الطريق و هذا هو الفردوس؟"

ابتسم هوج وهو يراقب دهشة الشاب، وردَّ بنبرةٍ يملؤها الوقار: "هذا هو مجد البشر يا آرنولد، عظمة 'روما الجديدة'. لكن تذكر، خلف هذا الذهب والرخام، تسكنُ أرواحُ فانية تماماً مثلنا. الجمالُ هنا صنعه الأيدي، أما الذي نبحتُ عنه في القدس، فقد صنعه العنايةُ الإلهية."

وعندما وصلا إلى قلب المدينة، انتصب أمامهم صرْحٌ "آيا صوفيا". تجمدت أقدام آرنولد وهو يحدق في تلك القبة العظيمة

التي بدت وكأنها معلقة بخيوطٍ غير مرئية من السماء. دخل خلف هوج إلى القاعة الكبرى، فاستقبله عقبُ البخور العتيق وضياءُ آلاف القناديل التي تنعكسُ على الفسيفساء المذهبة. كانت الجدرانُ تنطق بصور القديسين والملائكة، والأصواتُ الرخيمة للتراتيل اليونانية تملأُ الفضاء بجلالٍ رهيب.

شعر آرنولد برغبةٍ تسري في جسده؛ فالحطاب الذي لم يعرف من "بيت الرب" سوى كنيسة قرية الحجرية الصغيرة، وجد نفسه الآن في حضرة عظمةٍ لا تُوصف. سجد على الرخام البارد، وأحسَّ لأول مرة بضخامة المهمة التي تنتظره.

التفت إليه هوج وقال وهو يضع يده على مقبض سيفه : "انظر جيداً يا بني، هذه المدينة هي حارسة الشرق، لكنها أيضاً مدينة الفتن والذهب. لا تدع الأضواء تعمي بصيرتك، فنحن لسنا هنا لننعم بالبذخ، بل لنعبر من هذا الجسر نحو رمال الجهاد. هذا الجمال زائل، أما العهد الذي ستقطعه على نفسك في القدس، فهو الذي سيبقى."

في تلك اللحظة، وسط روعة آيا صوفيا، أدرك آرنولد أن رحلته الحقيقية قد بدأت الآن؛ فالعالم أكبر وأعقد بكثير مما تخيله في حانته الصغيرة، وأن الفارس الذي سيولده هذا المخاض، يجب أن يكون صلباً كحجارة هذه الأسوار، وطاهراً كالنور الذي يملأ هذه القبة.

التعميد بالدم

تحت جناح ليلة ليلاكيّة سبقت مخرّ العباب نحو مجهول البوسفور، وفي زاوية قصية غارقة في العتمة من أروقة القصر الإمبراطوريّ الباذخ، استدعى "هوج دي باين" تلميذه وضلعه المتين آرنولد. لم يكن الحيزُ هذه المرة ساحةً للنزالِ وصليلِ النصال، بل كان عُرفَةً ضيقةً مسكونةً بهيبة التاريخ، تفوحُ من زواياها رائحةُ المخطوطات العتيقةِ الممزوجةِ بعبيرِ الشمعِ المحترق، وكأنَّ جدرانها تختزنُ زفيرَ القرون.

وضع هوج يدهُ الثقيلةَ فوق كتفِ آرنولد، وضغطَ عليها بوقارٍ غابت عليه رصانةُ الملوكِ وجديةُ الرهبان، ثم همس بنبرةٍ كأنها حفيفُ الشجر: "آرنولد، القسطنطينية مدينةٌ تبني أسوارها من الحجر، لكنها تبني سياساتها من الأسرار. الإمبراطور 'ألكسيوس' منحنا الزاد، لكنه يخشى بأسنا بقدر ما يخشى أعدائنا. لقد وصلتني أنباءٌ عن 'خريطة' أو وثيقةٍ قديمة، يُقال إنها محفوظة في ديرٍ منسي بضواحي المدينة من الجهة الشرقية، تتحدث عن سرايب سرية تحت 'هيكل سليمان' في القدس؛ سرايب لم تطأها قدمٌ منذ ألف عام."

ارتسمت على وجهِ آرنولد أماراتُ التعجبِ والدهشة، فواصل هوج حديثه بعينين تبرقانِ بومضِ الطموح: "الفرسان الآخرون منشغلون بالذهب والخيول، لكنني أريد تلك الوثيقة. إذا كانت موجودة فعلاً، فهي بوصلتنا الحقيقية حين نقتحم أسوار بيت المقدس. أريدك أن تتسلل إلى ذلك الدير الليلة كحاجٍ بسيط؛ فأنت تملك قوة الجندي وعين الحطاب التي تلمح ما لا يراه الآخرون. هناك ستلتقي براهب يوناني عجوز، امنحه هذا الخاتم و سيفهم مباشرة من أنت، فيسلمك المخطوطة.. لقد منحني والدي هذا الخاتم في أول شبابي و قال إن قدر لي أن أصل القدس يوماً فعلي أن أحظى بتلك المخطوطة، لأن قدر سلالتنا أن نحمي السرّ"

لم يتردد آرنولد لبرهة؛ بل استلَّ سيفه بوقار، وجثا على ركبته فوق

الرخام البارد مصدراً قعقةً خفيفةً لدرعه، وقال بنبرة صلبة كالجرانيت: " أنا في خدمة الرب و لو قادني دربه إلى الموت "

انفرجت أسارير هوج عن ابتسامةٍ مفعمةٍ بالثقة، وأردف: " أنت فارس الهيكل الحقيقي يا أرنولد.. اذهب ، و لا تستخدم سيفك في مهمتك إلا إذا صار الموتُ هو البديل الوحيد."

انغمس أرنولد في جوفِ القسطنطينية، مخترقاً أزقتها الملتوية التي كانت تمورُ بروائحٍ متناقضة؛ عطر التوابل الشرقية النفاذ يصارعُ نتانةً المجاري القديمة المترسبة في حنايا الحجر. كانت المهمةُ اختباراً فريداً لحواسه؛ فالحطابُ الذي اعتادَ مجابهةَ الضواري في الغابة، وجدَ نفسه يتعلمُ فنَّ الذوبانِ في الظلالِ ومراقبة الصمت. تسللَ بخفةٍ نمرٍ عبر الأسوارِ الداخلية، مراوغاً دوريات الحرس الإمبراطوري "الفارانجيين"؛ أولئك العمالقة الشماليين ذوي الفؤوسِ المزدوجة، حتى انتهى به المسيرُ إلى ديرٍ صخريٍّ ناءٍ، يقفُ كحارسٍ كئيبٍ يطلُّ على مياهِ البوسفورِ السوداء التي تبتلعُ الضوء، ولم يخالجه أدنى شكٍ أنه قد بلغَ غايته.

داخل الدير، استدلَّ أرنولد إلى قبوٍ رطبٍ تحت الأرض، يغمره ضوءٌ شحيحٌ من قنديلٍ واهنٍ يصارعُ للبقاء. هناك وجدته؛ راهباً يونانياً طاعناً في السن، تجاعيدٌ وجهه كأنها أخاديدٌ حفرها الزمن، يبدو جسده الهزيلُ وكأنه قطعةٌ نبتت من حجارة القبو الصماء. لم ينبس أرنولد ببنت شفة، بل مدَّ يده بوقارٍ وقدم "الخاتم"؛ تلك العلامة السرية التي تختصرُ كلَّ الكلام.

ارتجفت يد الراهب وهو يستلمُ الخاتم، ونظر في عيني أرنولد نظرةً طويلةً سبرت أغواره، ثم نهضَ ببطءٍ وغابَ في عتمة الممرات، ليعودَ بعد قليلٍ حاملاً لفافةً من الجلدِ العتيقِ المائلِ للسواد. سلمها لأرنولد وقال بصوتٍ باردٍ وعميق، كأنه صدىٌّ قادمٌ من جوفِ قبر: "خذها يا بني، واحذر .. فما تحمله بين يديك أثقل من الجبال،

وسيكون لعنةً على من لا يدرك قدره.

عاد آرنولد قبل أن ينبلج الفجر، مخبئاً اللقافة الثمينة تحت قميصه الخشن المبلل بندى الليل، وشعوراً غريباً بالرهبة والقداسة يتلبسه. لم يكن يدرك في تلك اللحظة أن تلك اللقافة هي النواة الأولى لسرّ "فرسان الهيكل" العظيم، وأن رحلته التي بدأت من أجل تحرير الأرض، قد تحولت في ليلة واحدة إلى رحلة أزلية من أجل حراسة "السر".

مع تباشير صبيحة اليوم التالي، كانت ساعة الحقيقة تدوي في أروقة الروح قبل أن تعلنها الأجراس، وانفتحت بوابات التاريخ الصدئة على مصراعيها لتلد أولئك الفرسان نحو قدرهم المخطوط بمداد النار. عند مرفأ "القرن الذهبي"، حيث تعانق مياه المتوسط أحلام الأباطرة، كانت السفن البيزنطية الضخمة تتهادى فوق مياه البوسفور الفيروزية، كأنها خيول خشبية أسطورية رابضة على وجه اليم، تنتظر بشوق مكبوح نقل الأبطال من ضفة الأمان الوادعة إلى ضفة الموت والقيامة.

وقف "آرنولد" على متن إحدى تلك السفن، يرقب بعينين غائرتين تراجع مآذن القسطنطينية الذهبية وأسوارها التي لا تُطال، وشعر بأن تلك اللحظة هي الفاصل الرهيب بين عمريين؛ فخلفه كانت أوروبا تتوارى بكل أوجاعها، مخلفة وراءها غبار قريته المنسية، ورائحة قبر أمه البارد، وطين العبودية الذي لطالما أثقل خطاه، وذكرى حب "صوفيا" الذي صار جرحاً مقدساً في خاصرة الذاكرة. أما أمامه، فكانت تلوح شواطئ آسيا الصغرى القاسية، أرض السلاجقة الضارية، حيث الشمس لا ترحم الجباه والرمال تترصد الغرباء لتبتلع آثارهم.

بجانبه، كان "هوج دي باين" ينتصبُ صامداً كالطودِ العظيم، يحدقُ في الأفقِ السديميِّ البعيد، وقد أطبقَ كفه فوق صدره حيثُ تكمنُ اللفافةُ السرية، يحرسُها بحذرٍ كأنها قطعةٌ من قلبه النابض. التفتَ هوج إلى آرنولد، ونطقَ بصوتٍ يقطرُ جلالاً ومهابة: "انظر جيداً يا آرنولد.. تلك المياه التي نعبرها الآن هي الحدُّ الفاصلُ بين من كنا ومن سنكون. بمجرد أن تطأ أقدامنا تلك الرمال، لن نعودَ حطابين أو نبلاء، سنكونُ فقط 'سيوفاً' في يدِ الأقدار. هل أنت مستعدُّ لمواجهةِ قدرك؟"

ردَّ آرنولد، بينما كان لفحُ النسيمِ المالحِ يداعبُ وجهه المحروق، ونبرته تنمُّ عن يقينٍ زلزاليٍّ: "سيدي، لقد تركتُ خلفي أرضاً لم تمنحني سوى الوجد، وأنا الآن أعبرُ مياهاً لا أعرفُ قرارها، لكنني أشعرُ بأن قلبي قد صار أصلبَ من درعي. لقد وُلدتُ في الغابة، لكنني سأبعثُ من جديد في الصحراء."

كانت السفنُ تمخرُ العبابَ نحو الشرق، ومع كلِّ ميلٍ تقطعه، كان آرنولد ينسلخُ أكثرَ عن جلده القديم، ليرتدي ملامحَ المحاربِ الذي لا يلين، بينما يغمزه شعورٌ بأنَّ هذه الرحلة ليست عبوراً لمضيق، بل هي عبورٌ نحو الأبدية.

ما إن لامست مقدمةُ السفينة ضفافَ آسيا الصغرى، حتى كان آرنولد أولَ من وثبَ نحو المجهول، كأنه يسابقُ ظلَّه ليعانقَ قَدْرَه. غاصت قدماه في الرمالِ اللاهبة التي بدت وكأنها زفيرُ الأرضِ المحرقة، وشعرَ بحرارةٍ وحشية لم تألفها حواسه من قبل؛ حرارةٌ لاهبة تسالت عبر جلود أحذيته الخشنة لتبتُّ في عروقه رسالةً واضحة: أن قواعدَ العيش هنا قد تغيرت للأبد. لم تعد الأشجارُ في هذا المدى تمنحُ الظلالَ الوادعة، ولا الأنهارُ تجري ببرودةِ جبال "شومباني"؛ هنا، الأرضُ لا تنطقُ إلا بلغةِ النار، والمدى غابةٌ من الصخرِ والسراب.

وعلى وقع تصادم الدروع الفولاذية وصهيل الخيل الذي شقَّ سكونَ
المشرق، اصطفتَّ الفرسانُ فوق رمال الشاطئ في تشكيلٍ مهيب.

نظر آرنولد نحو الأفق الممتد، حيث كانت أعمدة الغبار تتصاعدُ من
بعيدٍ كأشباحٍ ثائرة، مشيرةً إلى تحركاتٍ خيالةٍ السلاجقةِ السريعة. في
تلك اللحظة، أدرك بيقينٍ حاد أن كلَّ ما فات من "طريق الآلام" لم
يكن سوى نُزْهةٍ تمهيديةٍ لما هو آت؛ لقد طُويت صفحةُ التيه، وبُسِطت
أمامهم ساحةُ "المواجهة الكبرى".

انقضت غبارُ الرحلة عن أولى ساحات الاختبار الحقيقي، حيث لم
تعد الحربُ قصائدَ تُرتل في الكنائس، بل غدت واقعاً يقطرُ دماً
ويتمزجُ بالعرق. كانت الشمسُ تصهرُ الدروعَ فوق صدور الرجال،
والأفقُ يرتجفُ تحت وقع سنابك الخيل، حين ظهر "السلاجقة" فجأةً
كأسرابٍ من الصقورِ الكاسرة؛ خيولهم رشيقَةٌ خفيفة، ونبالهم تمطرُ
الموتَ من بعيدٍ بيقينٍ قاتلٍ قبل أن تسمحَ للسيوفِ بالالتحام.

كان آرنولد يشدُّ لجامَ جواده الأول، يشعرُ بثقلِ درعه الذي بات كفرنٍ
يغلي وسيفه الصقيل الذي منحه إياه "هوج". وقف في قلب التشكيلِ
الحديدي، يراقبُ بذهولٍ تلك الغمامةَ السوداءً من السهام التي حجبت
ضياءَ الشمس، وسمع صرخاتِ الرفاق الذين تساقطوا كأوراقِ
الخريف قبل أن يلمسوا خصماً. في تلك اللحظة الحرجة، صاح هوج
دي باين وهو يرفع سيفه عالياً، وصوته يدوي فوق ضجيج الموت :
"أثبتوا يا جند الله! لا تدعوا دعر السهام يفتر همتكم .. تقاربوا،
اجعلوا دروعكم سداً منيعاً، وانتظروا لحظة الانقراض!"

وفجأةً، اخترق سهمٌ طائشٌ عنقَ الفارسِ الراكع بجانب آرنولد، فسقطَ
يتخبطُ في دمائه دون أن ينبس بكلمة. شعر آرنولد ببرودة الموتِ
اللافتة تلامس وجهه، لكنَّ غريزة "الحطاب" القديمة استيقظت في
أعماقه بضراوة؛ تلك الغريزة التي صقلتها الغابات الموحشة وعلمته
أن الطبيعة لا ترحم الضعفاء والمهزوزين. قبض على مقبض سيفه

بقوة حتى ابيضت مفاصل أصابعه، وعندما شق زئير الأوامر بالهجوم عتمة الخوف، اندفع آرنولد نحو الأمام كالسيل العارم الذي انحبس خلف السدود طويلاً، ليعلن بدء الملحمة.

انفجر الميدان عن التحام وحشي تلاشت فيه ملامح البشر لتطغى غريزة البقاء؛ حيث اختلط صليل الفولاذ بحشريات الموت وصهيل الخيل المذعورة. وفي قلب تلك الفوضى الضاربة، وجد آرنولد نفسه وجهاً لوجه مع قدره المتجسد في فارس سلجوقي، التف بلثام غامض لم تبرز منه سوى عينيّن تلمعان بذكاء قتاليّ حادّ، كأنهما عينا صقر يرقب فريسته. استلّ المحارب الشرقيّ سيفاً يمانياً مقوساً، يخطف الضوء بصله الرقيق، ثم انقضّ بسرعة البرق الخاطف.

في تلك اللحظة التي تجمد فيها الزمن، تردّد في روع آرنولد صدى كلمات "هوج" في ساحات التدريب: "لا تضرب بقلبك، اضرب بعقلك". وبحركة انسيابية صقلتها الغابة قبل الدروع، تفادى الضربة القاتلة، ثمّ استجمع كلّ بأس ماضيه؛ وبالقوة ذاتها التي كان يشقُّ بها عناد جذوع البلوط، هوى بسيفه في ضربة جانبية ساحقة، أطاحت بصلب خصمه في الهواء، قبل أن يتبعها بطعنة نافذة حسمت الموقف وأسكنت صخب الخصم للأبد.

كانت المعركة تتلظى حوله كفرن من الحديد المشتعل، وآرنولد يقاتل بشراسة مذهلة أربكت صفوف الأعداء؛ لم يكن قتاله قتال نبلاء البلاط الذين يتبعون قواعد المبارزة الأنيقة، بل كان يقاتل بضراوة رجلٍ أحرق خلفه كلّ المراكب، يحمي رفاقه بجسده الذي غدا سداً منيعاً، ويفتح الثغرات في صفوف السلاجقة بصيحات زلزلت أركان الميدان.

وبعد ساعاتٍ من النزال المرير الذي صهر النفوس، تراجع السلاجقة نحو المدى، مخلفين وراءهم ساحة غارقة بالأرجوان. وقف آرنولد وسط ركام الأجساد والسيوف المحطمة، يلهث كذئب جريح، سيفه

يقطرُ قانياً، ودرعه يحملُ ندوبَ عشراتِ السهامِ والضربات. في تلك اللحظة، اقترب منه "هوج دي باين"، وكان الغبارُ قد رسمَ على وجهه خارطةً من تعبِ الملحمة، ونظرَ إليه بتقديرٍ صامتٍ عميق، ثمَّ قال: "اليوم يا آرنولد، عُمِدتِ بالدمِ لا بالماء. لقد رأيتُ في سيفك روح الفأس التي حدثتني عنها؛ صلبةً وصادقةً. الآن، لم تعد حطاباً يطاردُ حلمه، بل صرتَ محارباً يكتبُ قدره."

مسحَ آرنولد نصلهً بطرفِ عباءةِ فارسٍ سقطَ في الوغى، ونظرَ بقلبٍ يشتعلُ وجرأً نحو الشرقِ القريب، حيثُ لا تزالُ مآذنُ القدسِ تناديه من وراءِ الغبار، وقالَ بصوتٍ أجشٍّ كأنه خارجٌ من جوفِ الأرض: "سيدي، لقد تعلمتُ اليوم أن الموتَ في سبيلِ الحقِ ليس مرّاً كما كنتُ أظن .. المرارةُ الحقيقية هي أن تعيشَ عبداً .. اليوم فقط و أنا في جفن الردى شعرتُ أنني حر لأول مرة."

ضربتُ خيامَ الحملةِ الصليبيةِ أوتادها أمامَ أسوارِ أنطاكية المنيعة، تلك المدينة التي لم تكن مجردَ حصنٍ دفاعي، بل كانت مardاً من الحجرِ يستعصي على الموتِ ويُناطحُ السحابَ بأسواره التي تلتفتُ حول جبل "سيلبيوس". هناك، انكسرَ إيقاعُ الحربِ السريع، واستحالتِ المعاركُ إلى اختبارٍ وحشيٍّ للصبرِ استطالَ تسعةَ أشهرٍ عجاف؛ لم تكن النصالُ فيها هي الخصمَ الأوحده، بل كان الجوعُ هو الجلاذ الذي نهشَ الأجسادَ بضراوة، حتى غدا الفرسانُ أشباحاً واهنةً تسكنُ داخلَ دروعِ فضفاضة.

كانتِ السماءُ تجودُ ببردٍ قارصٍ وشقاءٍ مقيم، بينما تحولتِ الأرضُ تحت أقدامهم إلى مستنقعاتٍ لزجةٍ من الوحلِ الممزوجِ برائحةِ الجثثِ المنسية. وفي خيمةٍ رثّةٍ يعزفُ الريحُ على أطرافها لحنَ الفناء، جلس "آرنولد" يرقبُ في صمتٍ رفاقه وهم يقتاتونَ على قديدِ جلودِ أحذيتهم ويلوكونَ لحاءَ الشجرِ المرّ؛ رأى "إيتيان" الذي كان كالجبلِ يذبلُ

وينحني كغصنٍ مقطوع، وسمعَ صرخاتِ الأمعاءِ الخاويةِ وهي تعلقو
بمرارةٍ فوقَ ترانيمِ الصلاةِ الخافتة. وفي تلك الليالي السديمية، تسللَ
اليأسُ إلى القلوبِ كأفعى رقطاء، وبدأ همسُ الردةِ والفرارِ نحو
أوروبا يترددُ كفحيحٍ بين الفرسانِ الذين نصبَ يقينُهم.

انتصبَ "آرنولد" وسطَ أولئك الرجالِ المنهارين، وبالرغمِ من أنَّ
عظامَ وجهه قد برزتْ بحدةٍ تحتَ جلدهِ الشاحب، إلا أنَّ عينيه كانتا
تقدحانِ بلهيبٍ لم ينطفئ، وصاحَ فيهم بصوتٍ أجشٍّ مزَّقٍ سكوتَ
اليأس: "أهذه هي الفروسية التي قطعتم من أجلها البحار؟ هل جنتم
لتأكلوا الخبز أم لتنتزعوا المجد؟ إنَّ أنطاكية هي الباب، و من يفرّ
من الباب فلن يرى نور القدس أبداً. انظروا إلى جراحكم ، إنها
أوسمةٌ لا يملكها من بقي خلف المدفأة في بيته!"

وفي تلك اللحظة التي كادَ فيها الحماسُ أن ينفجر، مثَّلَ أمامهم "هوج
دي باين"؛ كان التعبُ المهيبُ قد رسمَ خطوطه فوق وجهه المتغضن،
ونظرَ إلى آرنولد بامتنانٍ لمسَ نياطَ قلبه لموقفه البطولي، ثمَّ التفتَ
نحو الجميع بصوتٍ واثق: "لقد وجدنا ثغرة! أحد حراس الأبراج،
وهو رجلٌ يدعى 'فيروز'، مستعدٌ لفتح الطريق الليلية. لكننا نحتاج
إلى عصابةٍ من الرجال لا تخشى الموت لتسلك الأسوار في عتمة
الليل."

قدّم آرنولد بلا تردد، يتبعه فصيله الصنديد الذي اختاره وصقله في
غابات "شومباني". وفي ليلةٍ كحليةٍ لا يُضيءُ عتمتها سوى نصلِ
الشجاعةِ اللامع، تسلقَ آرنولد الحبالَ المرتجفةً تحتَ وابلٍ من
الأمطارِ الغزيرة؛ كانت أصابعه التي اعتادت قهرَ أشجار البلوطِ
العاصية هي المفتاحِ السريِّ للنصر. وما إن لامست قدماه قمةَ البرج،
حتى استلَّ سيفه وأطاحَ بالحراسِ الصامتين بضرباتٍ خاطفةٍ لم تترك
أثراً للصوت، فاتحاً الأبواب العظيمةً لجحافلِ الفرسانِ الذين دفعهم
الجوعُ نحو جنونِ الاقتحام.

اجتاحت الحملة المدينة في موجة كاسحة من الغضب والحماس، لكن الفرحة كانت قصيرة الأنفاس؛ فما إن أطبقوا قبضتهم على أنطاكية، حتى وجدوا أنفسهم سجناء داخل أسوارها، محاصرين بجيش جرار كالبحر الزاخر يقوده "كربوغا" من الشرق.

هناك، في قلب أنطاكية الجريحة، وبعيداً عن جحيم القتل وصخب الحصار، ركع آرنولد بجانب "هوج" في كنيسة القديس بطرس العتيقة؛ كان يضمُّ إلى صدره "اللفافة السرية" التي انتزعها من غياهب القسطنطينية كأنها قلبه الثاني. التفت إليه "هوج" وهمس بنبرة تفيض يقيناً صوفياً: "الآن يا آرنولد، لسنا بحاجة إلى المعجزات، بل إلى الإيمان بأننا قد اخترنا هذا القدر. إذا متنا هنا، فسنموت ملوكاً في عالم آخر."

كان الفجر فوق أنطاكية مثقلاً بالرماد، حين فُتحت البوابات العظيمة لتلفظ بقايا "جيش الله" نحو سهل يغصُّ برايات "كربوغا" التي لا ينتهي مداها. خرج الصليبيون كأشباح خرجت من أجدانها؛ دروعهم صدئة، وخيولهم تترنح من فرط الهزال، لكن عيونهم كانت تفيض ببريق انتحاري لم يره الشرق من قبل.

في قلب هذا الزحام المهيب، كان "آرنولد" يشدُّ لجام حصانه المنهك، وقد عصب رأسه بخرقة من كتان، بينما كان "هوج دي باين" يتقدم الفصيلة، يرفع "الحربة المقدسة" التي زعموا أنهم وجدوها تحت أنقاض الكنيسة، وكأنها شعلة من نور وسط ظلام اليأس.

بدأت المعركة بزلزال من سهيل الخيل، واندفع الفرسان الصليبيون في تشكيلٍ مثلثٍ حاد، شقوا به قلب جيش السلاجقة كإزميلٍ يشقُّ الصخر. آرنولد لم يكن يقاتل بأسلوب المبارزة الرقيق، بل كان يفرغ في سيفه كلَّ جوع الحصار ومرارة الانتظار؛ كان يضرب النصال

فيحطمها، ويخترقُ الدروع فيمزقها، وصيحاته كانت تعلو فوق ضجيج الحديد، كأنها زئيرُ غابة "شومباني" الذي استيقظ فجأة في قلب الصحراء.

صف كربوغا رماة النبال، فانهمر المطرُ الأسودُ فوق رؤوس الفرسان، لكنَّ آرنولد لم يتراجع؛ رأى السهام تنغرسُ في درعه كالأشواك، فلم يزدد إلا ضراوة. التحم بجماعةٍ من "المماليك" المحيطين بقائد الجيش، فصار يلوح بسيفه في حركاتٍ دائريةٍ خاطفة، يطيح برؤوسٍ وأطرافٍ، والدماء تتطايرُ فوق وجهه لتغسل غبار الحصار.

في ذروة القتال، زعم البعضُ أنهم رأوا خيولاً بيضاءً تنزلُ من السماء يمتطيها فرسانٌ لا يطالهم السلاح، لكنَّ الحقيقة في عين آرنولد كانت تكمن في "الروح" التي استعرت في صدور رفاقه؛ فقد تحول الجوعُ إلى طاقةٍ وحشية، واليأسُ إلى يقينٍ مطلق بالنصر. اندفع هوج وآرنولد كالإعصار نحو خيمة كربوغا، مما بث الرعب في قلوب السلاجقة الذين لم يتخيلوا أن جيشاً "ميتاً" يمكنه أن يقاتل بهذا البأس.

انفرط عقد الجيش المحاصر وبدأت الهزيمة الكبرى. طارد آرنولد وجنوده الفلول الهاربة عبر السهل، فاستحالت المعركةُ إلى ملحمةٍ من المطاردة غطت الأرض بجثث الخصوم. وقف آرنولد في منتصف الميدان، وجسده يرتجفُ من فرط الأدرينالين والارهاق، سيفه مثلَّم ودرعه محطم، لكن قلبه كان يخفقُ بانتصارٍ لا يصدقه عقل.

مسح الدم عن عينيه بيده الخشنة، ونظر إلى هوج الذي كان يغرس راية التنظيم الأولى في أرض المعركة. كانت جثث الخيول والبشر تغطي السهل تحت شمس الظهيرة الحارقة، ورائحة الموت تمتزج برائحة النصر المالح. في تلك اللحظة، أدرك آرنولد أن المعجزات لا تسقط من السماء بدون ثمن، بل تصنعها الأيدي التي ترفض

الاستسلام حتى وهي تحتضر..

وقف آر نولد مساءً فوق شرفات أنطاكية، يمسحُ غبار الملحمة والدم المتخثر عن جبينه، بينما كانت عيناه تخرقان المدى نحو الجنوب. هناك، حيث تتراقصُ رمالُ الصحراء، لم يبقَ بينه وبين حلمه المشتعل سوى بضعة فراسخ.. نحو القدس، المدينة التي تناديه بلسان الوحي وصوت الأقدار.

لم تكن الرحلة من أنطاكية إلى القدس مجرد زحفٍ لجيشٍ غازي، بل كانت "هجرة كبرى" فوق أرضٍ يختلطُ في تربتها عبقُ القداسة بنيرانِ العدا. انطلقت تلك القافلة الناجية من براثن حصار الموت، يتقدمها "آرنولد" و هوج دي باين يطوون الفيافي والمدن الساحلية كأنهم يعبرون بين دفتي كتابٍ عتيق؛ مروا بلاوديكي "اللاذقية" المزدانة بزرقه اليم، و تورتوزا "طرطوس" الحجرية، ثم تريبوليس "طرابلس" و بيريتوس "بيروت" وصولاً إلى ساجيت "صيدا" العريقة. كانت أسوار تلك الحواضر المنيعه تراقبُ بصمتٍ وجلٍ زحف هؤلاء الغرباء الذين صهرتهم شمسُ الشرق اللافحة حتى استعارت بشراتهم لونَ النحاس العتيق، واستحالت نظراتهم إلى نصالٍ فولاذية لا تعرف الانكسار.

كانت الجغرافيا تتبدلُ مع كلِّ إشراقِ فجر؛ فمن رطوبة السواحل المالحة التي تغسلُ حوافر الخيول المنهكة بمياه المتوسط، إلى الممرات الجبلية الوعرة حيث تنتصبُ أشجار الزيتون المعمرة

كأشباح من الرماد والفضة، تلوح بأغصانها كأنها تباركُ مسيرهم أو تنذرهم بويلات البلاء. لم يكن الجوعُ قد كفَّ عن نهش أمعائهم، لكنَّ "جوع الروح" لرؤية الأقصى والقيامة صار هو الزاد الذي لا ينفد؛ فكان آر نولد يرقبُ رفاقه يمشون حفاةً فوق الصخر المتلطي دون أن

يُنْتَوَا، وَيَسْمَعُ تَرَانِيمَهُمُ الْكَنْسِيَّةَ وَهِيَ تَدْوِي فِي عَمَقِ الْوُدْيَانِ، فَتَصْدَحُ الْجِبَالُ بِصَدَىِّ مَهِيْبٍ كَأَنَّ جِيُوشَ السَّمَاءِ تَرَدَّدُ خَلْفَهُمُ الْقِسْمَ.

وَفِي هَجْعَةِ اللَّيْلِ، حِينَ يَسْكُنُ ضَجِيحُ الْمَعْسَكِرِ، كَانَ أَرْنُولْدُ يَنْفَرِدُ بِنَفْسِهِ تَحْتَ قَبَةِ السَّمَاءِ، يَحْدَقُ فِي النُّجُومِ الَّتِي بَدَتْ فِي آفَاقِ فِلَسْطِينِ أَقْرَبَ مَنَالًا وَأَشَدَّ تَوْهَجًا، وَيَتَحَسَّسُ "الْفَافَةَ السَّرِيَّةَ" الْمَخْبَأَةَ بِعُنَايَةٍ تَحْتَ دَرْعِهِ؛ تِلْكَ الْأَمَانَةُ الَّتِي أَوْدَعَهَا إِيَّاهَا "هُوجٌ" يَقِينًا مِنْهُ أَنَّ الْحَطَابَ الشَّابَّ أَقْلُ عَرَضَةٍ لِعَيُونِ الْمَتْرَبْصِيْنَ مِنْ قَائِدِ الْحَمَلَةِ. كَانَ أَرْنُولْدُ يَشْعُرُ بِثِقَلِ تِلْكَ الْجُلُودِ الْعَتِيْقَةِ فَوْقَ صَدْرِهِ، أَمَانَةُ ضَاقَتْ بِهَا الْكَلِمَاتُ وَاتَّسَعَتْ لَهَا الرُّوحُ. اخْتَبَرَ الطَّرِيقَ فِيهِمْ كُلَّ ذَرَّةٍ جَلْدٍ؛ مِيَاءَ غَائِرَةٍ، وَحَرَارَةَ تَذِيْبِ نِيَاطِ الْقُلُوبِ، وَكَمَائِنُ تَبْرُزُ مِنْ بَيْنِ الصَّخُورِ كَأَفْعَى الرَّمَالِ الْغَادِرَةِ، لَكِنَّ يَقِينًا غَامِضًا كَانَ يَنْمُو مَعَ كُلِّ فَرَسَخٍ يَطْوُونَهُ، حَتَّى بَاتَتْ رَائِحَةُ الْبُخُورِ وَالتَّرَابِ الْمَبْلَلِ بِالْوَحْيِ تَدَاعَبُ أَنْوْفَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَلَامَسَ عَيُونُهُمُ الْأَفْقَ.

وَعِنْدَمَا انْجَلَتْ تَلَالُ "الرَّمْلَةِ" وَظَهَرَتْ فِي الْمَدَى مَشَارِفُ "بَيْتِ لَحْمٍ"، سَرَتْ فِي أَوْصَالِ أَرْنُولْدِ قَشْعَرِيْرَةٌ بَارِدَةٌ رَغْمَ لَهِيْبِ الظَّهِيْرَةِ؛ فَالْحَلْمُ الَّذِي انْتَزَعَهُ مِنْ طِينِ قَرِيْتِهِ، وَالْوَعْدُ الَّذِي قَطَعَهُ فَوْقَ الْقُبُورِ الْمَهْجُورَةِ، وَالثَّمْنُ الْبَاهِظُ الَّذِي دَفَعَهُ فِي جَحِيْمِ أَنْطَاكِيَّةِ، صَارَ كُلُّ ذَلِكَ الْآنَ عَلَى بُعْدِ تَلَّةٍ وَاحِدَةٍ. لَمْ يَعْذِرْ وَيَرَى وَعَثَاءَ الطَّرِيقِ خَلْفَهُ، بَلْ صَارَ يَرَى "النُّورَ" الَّذِي يَشْعُ مِنْ بَيْنِ صَخُورِ الْقُدْسِ، مَدْرَكَاً أَنَّ كُلَّ خَطْوَةٍ عَثْرَاءَ فِي هَذَا الْمَسِيرِ الطَّوِيلِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا صَقْلًا لِرُوحِهِ قَبْلَ اللَّحْظَةِ الَّتِي سَيَقْفُ فِيهَا عَارِيًّا أَمَامَ التَّارِيخِ.. وَأَمَامَ اللَّهِ.

القسم المقدس

بعدَ مَسِيرَةٍ دَهْرِيَّةٍ عُمِدَتِ بِالدِّمِّ وَالدَّمُوعِ، وَفِي فَجْرِ يَوْمِ لَاهِبٍ مِنْ صَيْفِ عَامِ **1099**، انْقَشَعَتْ غَلَالَةُ الضَّبَابِ عَنِ الْأَفْقِ كَأَنَّهَا سِتَارٌ يُرْفَعُ عَنِ مَسْرَحِ الْقَدَرِ، وَارْتَجَفَتْ صَرخَةً وَاحِدَةً انْطَلَقَتْ مِنْ آلاَفِ الْحَنَاجِرِ الْمَبْحُوحَةِ، هَزَّتْ أَرْكَانَ الْوَادِي : "أورشليم! أورشليم!"

كَانَتْ أَسْوَارُ الْقُدْسِ تَنْتَصِبُ فِي الْمَدَى بِجَلَالِ طَاغٍ وَمَهَابَةِ إلهِيَّةٍ، تَتَحَدَى شَمْسَ الصَّيْفِ الَّتِي صَبَتْ لَهْيِبِهَا فَوْقَ الرُّوَابِي دُونَ رَحْمَةٍ، بَيْنَمَا كَانَتْ الْقَبَابُ الْمَشْرُوبَةُ نَحْوَ السَّمَاءِ تَعَكْسُ الضِّيَاءَ بِبَرِيقٍ أَخَذَ، كَأَنَّهَا قَطَعَ مِنْ لَجِينِ السَّمَاءِ سَقَطَتْ وَاسْتَقَرَّتْ بِوَقَارٍ فَوْقَ هَامَاتِ تِلْكَ التَّلَالِ الصَّخْرِيَّةِ الْوَعْرَةِ. فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَبَغْتَةً، انْهَمَرَتْ دَمُوعُ "آرنولد" لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْذُ أَنْ فَارَقَ ظِلَالَ غَابَاتِ الْبَلُوطِ فِي بِلَادِهِ الْبَعِيدَةِ؛ لَمْ يَكُنْ نَشِيخٌ عَجِزٌ أَوْ رَعْدَةٌ خَوْفٍ، بَلْ كَانَ انْهَمَارًا لِمَرَارَةِ السَّنِينِ الَّتِي تَجَرَّعَهَا كَأْسًا وَرَاءَ كَأْسٍ، وَشَعُورًا طَاغِيًا بِأَنَّ رُوحَ أُمِّهِ وَطَيْفَ "صُوفِيَا" الرَّاحِلِ قَدْ تَحَرَّرَا مِنْ طِينِ "شُومْبَانِي" لِيَحْلُقَا الْآنَ كَحَمَائِمٍ بَيْضَاءٍ وَادْعَةٍ فَوْقَ تِلْكَ الْأَسْوَارِ الْمُنِيْعَةِ.

اسْتَدَارَ "آرنولد" بظَهْرِهِ نَحْوَ صَخْبِ الْمَعْسَكِ الَّذِي يَغْلِي بِضَجِيجِ الْمَنْجَنِيْقَاتِ وَزَفْرَاتِ الْجُنُودِ، وَارْتَقَى قِمَّةَ "جَبَلِ الزَّيْتُونِ" لِيَكُونَ فِي حَضْرَةِ الْقُدْسِ وَحْدَهُ، بَعِيدًا عَنِ ضَوْضَاءِ الْبَشَرِ. هُنَاكَ، حَيْثُ تَهْمَسُ الرِّيحُ بِأَسْرَارِ الدَّهْوَرِ بَيْنَ أَغْصَانِ الزَّيْتُونِ الْعَتِيْقَةِ - تِلْكَ الْأَشْجَارُ الَّتِي شَهِدَتْ صَلَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَمَهْمِ - وَقَفَ شَامَخًا يَرْسُلُ نَظْرَاتِهِ كَالذَّبَالِ نَحْوَ الْأَسْوَارِ الَّتِي تَلْمَعُ تَحْتَ لَهْجِ الشَّمْسِ كدَرَعِ ذَهَبِيٍّ صَقِيلٍ. كَانَ يَتَأَمَّلُ الْقَبَابَ الَّتِي تَعَانَقُ السَّحَابَ بَزْهُوٍ أَرْلِيٍّ لَا يَحْدَهُ حَدٌّ، وَيَشْعُرُ بِخَفَقَاتِ قَلْبِهِ تَتَسَارَعُ فِخْرًا وَهُوَ يَرَى خِيَامَ الْحَمَلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ وَهِيَ تَمَلَأُ الْأَفْقَ؛ ذَلِكَ "الْوَبَاءُ الْأَبْيَضُ" الْمَهِيْبُ الَّذِي جَاءَ لِيَغْسَلَ وَجْهَ الْأَرْضِ مِنْ ذَلِّ الْقُرُونِ وَرُكُودِ الزَّمَانِ.

أَمَّنَ "آرنولد" فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الْقُدْسِيَّةِ أَنَّ كُلَّ خَطْوَةٍ دَمُويَّةٍ قَطَعَهَا، وَكُلَّ عَثْرَةٍ فِي دُرُوبِ التِّيهِ مِنْ غَابَاتِ "شُومْبَانِي" إِلَى صَحْرَاءِ آسِيَا الْوَسْطَى وَصَوْلًا إِلَى هَذِهِ الرُّوَابِي الْمَقْدِسَةِ، لَمْ تَكُنْ إِلَّا قَرْبَانًا مَبْذُولًا

لهذه اللحظة الخالدة. رأى في تلك الخيام المترامية إرادة صلبة واحدة لا تُقهر، وصورةً لجيشٍ لم يجمعه الطمعُ بالمطلق، بل حشدهُ وصهرهُ في بوتقةٍ واحدة حلمٌ أعظمٌ وأسمى : حلمُ استعادةِ الفردوسِ المفقودِ وإعادةِ مفاتيحِ السماءِ إلى أصحابِها.

بدأت خيالاتُ المستقبلِ المشرقةِ تداعبُ مروجَ بصيرتهِ، فرأى القدسَ في رؤاهُ وهي تشرعُ أبوابها الدهريةَ لتتحولَ إلى منارةٍ سامقةٍ تسترشدُ بها شعوبُ الأرض، وشاهدَ طيفَ نفسهِ ورفاقهِ التسعةِ وهم يغرسون رايتهُم الظافرةَ فوقَ ذروةِ "هيكلِ سليمان"، ليُرسوا دعائمَ نظامٍ مهيبٍ لم تعهدهُ القرونُ من قبل؛ نظامٍ يتخذُ من حمايةِ الضعيفِ عقيدةً، ومن صونِ الأسرارِ التي تضيقُ بحملها عقولُ البشرِ محراباً مقدساً.

في تلك اللحظة السامية، لم يكن بريقُ الذهبِ هو ما يُداعبُ جفونه، بل كان يصبو إلى ما هو أسمى وأبقى؛ كان يحلمُ بأن يُثبتَ لنفسه أنَّ موتَ والدتهِ النبيلةِ و محبوبتهِ الرقيقةِ الذي حرره من قيودِ الأرضِ التي حكمتها الطغاة في بلده ، لم يذهب هباءً منثوراً في مهبِّ الريح، بل أزهَرَ نصراً مؤزراً سيحفرهُ التاريخُ في ذاكرتهِ الأبدية.

تحسَّسَ اللفافةَ السريةَ المستكنةَ تحتَ درعِ الفولاذي، فشعرَ بحرارتها تسري في عروقه كأنها نبضُ العالمِ الجديد، وبوصلةَ القدرِ التي لا تُخطئُ وجهتها. وفي غمرةِ هذا اليقين، ارتسمت على ثغره ابتسامةٌ واثقة، ابتسامةُ رجلٍ لم يعد يرهبُ الموتَ أو يخشى الردى؛ فقد أدرك في أعماقه أنَّ روحَهُ قد اجتازتِ الأسوارَ الحجريةَ مسبقاً، واستقرت في قلبِ الخلودِ قبل أن تلمسَ أقدامُهُ ثرى المدينة.

لم يلبث جلالَ المشهدِ و روحانية الحالة أن تواریا خلفَ سُحبِ الغبارِ
الكثيفة التي أثارها طواحينُ الحربِ.

وصلت الحملة الصليبية إلى القدس وهي في الرمق الأخير من
صلابتها المادية ، حيث تحول "الخلاص" الموعود إلى صراع مرير
مع الفناء. لم يكن العدو المعتصم خلف الأسوار المنيعة هو الخصم
الوحيد، بل كانت الطبيعة والظروف اللوجستية هي الجراد الذي نخر
عظام الجيش، حتى أصبح مشهد "الفارسين على جواد واحد" حقيقةً
ميدانية مؤلمة قبل أن يصبح شعاراً رمزياً للتنظيم لاحقاً؛ فخيول
أوروبا الضخمة، التي اعتادت المروج الباردة، تساقطت كأوراق
الخريف تحت شمس فلسطين اللاهبة، وتسبب الجفاف في نفوق
الآلاف منها، مما حول النبلاء إلى مشاةٍ بانسين يجرون دروعهم
الثقيلة فوق الرمال، وأجبر الرفاق على اقتسام الظهور لضمان
استمرار القتال.

وزاد من هول المأساة "عطشُ الصخر"، بعد أن عمد الوالي الفاطمي
في فلسطين إلى تسميم الآبار و ردم العيون المحيطة بالمدينة، فصار
ثمن شربة الماء يفوق ثمن الذهب، وهزلت أجساد الرجال حتى بدت
كأنها هياكل عظمية مكسوة بالحديد. كان الانقطاع عن خطوط الإمداد
قد جعل كل رغيّف خبز يابس يُعد معجزة، ورأى آرنولد الفرسان
وهم يبيعون دروعهم مقابل لقمة عيش أو يذبحون خيولهم الهزيلة
ليقتاتوا على لحمها. تحت وطأة هذا العوز، تلاشى التمييز بين النبيل
والفقير، وصار البقاء رهيناً بمدى قدرة الفارس على إثارة أخيه
بقطرة ماء أو بمقعدٍ فوق السرج المتهاك، في اختبارٍ قاسٍ للمعدن
والروح جعل من تلك الأجساد الجائعة قوةً استثنائية لا تخشى الموت
لأنها لم يعد لديها ما تخسره.

رغم كل تلك الظروف القاسية ، بدأ الحصارُ الخانقُ يضربُ أطنابهُ
حول المدينة، وارتفعت أبراجُ الخشبِ العملاقة تناطحُ الأسوارَ

كانها عمالقة من حطبٍ وجلد.

وفي ليلةِ الخامسِ عشرَ من تموز، كان آرنولد يقفُ في قلبِ البرجِ الخشبيِّ المتأرجحِ الذي يقوده الفارس "جودفري"، والسهامُ المشتعلةُ تمطرهم من كلِّ حدبٍ وصوب كأنها شهبٌ غاضبةٌ أرسلتها السماء. وبمجردِ أن سقطَ الجسرُ الخشبيُّ من قمةِ البرجِ لِيستقرَّ فوق حافةِ السور، كان آرنولد أولَ من وثبَ نحو الموت، لا كفارسٍ أرسنقراطيٍّ نبيل، بل كأعصارٍ هائجٍ يقتلعُ كلَّ ما يعترضُ طريقه.

دارت حربٌ ضروسٌ بين فرسانِ الحملةِ ومقاتلي القدس الأشداء، وسالتُ الدماءُ شلالاتٍ في الأزقةِ التاريخية، وفي تلك اللحظةِ من الفوضى العارمةِ التي اختلطَ فيها صراخُ البشرِ بصهيلِ الخيل، ظهر "هوج دي باين" من وسطِ الدخانِ الكثيف، درعه الأبيضُ الذي كان يلمعُ بالأمسِ صار ملطخاً بالأحمرِ القاني، وعيناهُ تعكسانِ هولَ الفجيعةِ التي حلتْ بالمدينة. قبضَ هوج بقوةٍ على ذراعِ آرنولد، الذي كان يندفعُ في القتلِ بجنونٍ لا يهدأ، وصاحَ فيه بصوتٍ هزتْ نبراتهُ أركانَ الروح : "لا تدعِ الغضبِ يعمي بصيرتك يا آرنولد! نحن لم نأتِ لنبيدِ البشر، بل لنحمي هذا المكان. اتبعني.. هدفنا ليس الذبح، بل "الأساسات!"

توقفَ آرنولد والدمُ يغلي في عروقه، ونظرَ إلى معلّمه وكأنه يستفيقُ من كابوسٍ طويل، ثمَّ انصاعَ لإشارتهِ مخلفاً وراءهُ جحيمَ الشوارع، ليتجها معاً نحو سِرِّ دُفنٍ تحت بلاطِ التاريخِ لآلافِ السنين.

خلفَ الأبوابِ الخشبيةِ العظيمةِ للمسجدِ الأقصى، الذي لفتهُ الضبابُ والقداسةُ فاتخذهُ الملكُ "بلدوين الثاني" عرشاً لمملكتهِ وأطلقَ عليه "قصرَ سليمان"، سادَ صمتٌ غريبٌ يكادُ يُسمعُ لهُ وجيب، صمتٌ ينسلُّ بين الأعمدةِ ليناقضَ صخبَ النصالِ وجنونَ القتلِ الذي يغلي في الخارج. دلفَ "هوج دي باين" بخطواتٍ وئيدةٍ رصينة، يتبعهُ

"آرنولد" ورفاقهم الستة: جودفري دي سانت أومير، باين دي مونتديدير، أندريه دي مونبار، أرشامبو دي سانت أغنان، غونديمار، روسال.

كانوا يجرون خلفهم عباةتهم الملطخة بغبار القفار ودم الملاحم، ولم يكن اختيار "هوج" لهؤلاء الرجال ضرباً من العيب؛ بل انتقاهم بعناية خبير يصطفي نصلاً لمهمة انتحارية لا رجعة منها. اختار "أندريه" لحكمته التي تضاهي وقار الكنيسة، و"جودفري" لزهده الذي لا يلين أمام الذهب، و"باين" لبأسه الضاري في الوغى، أما "آرنولد" — ذلك الحطاب الذي نُحتت ملامحه من صخر الغابات — فقد كان هو "الساعد" الذي يُحسنُ فكَّ مغاليق الأرض وخشب الحكايا، والقلب الطاهر الذي لم تلوثه بعد أطماع النبلاء وبهرج التيجان. كان هوج يرى فيهم ميزان الوجود الجديد: "العقل الذي يخطط"، و"الساعد الذي يحفر"، و"الروح التي تحرس السر".

توقف هوج في قلب الرواق الجنوبي، حيث تتعانق الظلال مع خيوط الضوء الشاحب المتسلل من الشرفات العلوية، وبوقار يشبه تلاوة الصلوات الأخيرة، أخرج "اللفافة السرية" من بين طيات درعه. تحلق الفرسان حوله كأنهم قطع من الأعمدة الرخامية الضخمة الشاخصة في المكان. بسط هوج الجلد العتيق فوق قاعدة عمود مرمري، وهمس بصوت متهدج يرتعش لهيبة اللحظة: "انظريا آرنولد.. انظروا جميعاً. هذه الرسوم لا تصف ما نراه فوق الأرض، بل تصف ما هو مدفون تحتها. هذا القصر الذي نجلس فيه، وهذه الجدران التي تحيط بنا، ليست إلا قشرة تخفي في أحشائها هيكل سليمان العظيم. لقد اخترتكم لأنكم الوحيدون الذين يملكون الصبر لانتظار النور في العتمة، والقوة لردع الموت إذا ما استيقظت تحت هذه البلاطات."

اتجهت أبصارهم جميعاً، بلهفة مشوبة بالرعب، نحو بقعة محددة في

الأرضية، حيث رُصت البلاطات الرخامية بنسق هندسيّ يوحي بأنّ
يداً قديمةً قد أحكمت إغلاقها قبل آلاف السنين لتُخفي خلفها ما لا
يطيقه عقل. جثا آر نولد على ركبتيه، يلمس بيده الخشنة برودة الرخام
الأزلي، فشعرَ برعشة كونية تسري في جسده؛ فالحطاب الذي ألف
عتمّة غابات "شومباني"، وجدَ نفسه الآن يلامس قلب العالم النابض.

تابع هوج وعيناه تلمعان ببريق باطني : " الملوك يتقاتلون على
العروش، والحجاجُ يبحثون عن الغفران، أما نحن.. فنحن من الآن
فصاعداً حراسُ هذا القبو."

في تلك اللحظة، ومع تلاقي نظرات الفرسان التسعة، وُلد العهدُ
الحقيقي؛ ميثاقٌ لم يُكتب بمداد المحابر، بل بالتراب الذي ينتظرُ قرعَ
معاولهم، وبالسرّ الذي سيعيشون ويموتون من أجله. وفي تلك القاعة
التي هجرها الدفء لقرون، وقف الرفاق التسعة في حلقة دائرية،
يطوّقهم صمتٌ مهيبٌ كأنه صمتُ الأجداث، ورهبةٌ مقدسةٌ نفذت من
الدروع لتستقرّ في شغاف القلوب. لم تكن هناك شموعٌ تضيءُ
وحشتهم، ولا صلبانٌ ذهبيةٌ تبهرُ عيونهم؛ كان الضياء الوحيدُ هو
"إيمانهم العاري"، والقنديلُ الذي يرشدهم هو "خوفُ الله" المتغلغلُ
في المسام. وضع آر نولد يده التي أدمتها الفؤوسُ وصقلتها النصالُ
فوق يدٍ "هوج"، ثمّ تلتها بقية الأيدي السبعة لتتنصهرَ جميعاً في قبضةٍ
واحدة. وهناك، في كبد الظلمة، تعاقدوا على ميثاقٍ غليظ؛ أقسموا
"قسم الفقر" الذي يجردهم من حطام الدنيا، و"قسم العفة" الذي
يطهرُ الأبدان، و"قسم الطاعة" الذي يربطُ أرواحهم بمشيئة الخالق
وحدها.

لقد اختزلَ الوجودُ في نظرهم إلى نصلٍ وعهد، فتعاقدوا مع السماءِ
ألا يملك الواحدٌ منهم من حطام الدنيا الفاني سوى سيفه الذي يذودُ به
عن الحق، وأن يسكبوا دماءهم رخيصةً فوق ثرى الأرض المقدسة
في سبيلِ صون الأرواح العابرة نحو بيت المقدس؛ فغدوا حراساً
لمجاهل السبيل، وسنداً يقوى به عودُ المستضعفين الذين أرهقهم تيه

الطريق.

في تلك اللحظة المفصلية التي اهتز لها وجدان التاريخ، انسلخت عن "آرنولد" بقايا ذلك الجندي التقليدي الذي كان يبحث عن النجاة الفردية في ركاب جيش عابر، ليولد من مخاض الإيمان والحديد "فارس هيكل" حقيقياً؛ رجلاً مرصوداً لخدمة سرّ أزلي لا يدرك كنهه بصر ولا يحيط به عقل سواه هو ورفاقه التسعة. وبينما كانوا يقفون في سكونهم المهيب، كانت الأرض تحت أقدامهم المنهكة تطوي في أحشائها المظلمة ما هو أثمن من تيجان القياصرة، وأبقى أثراً في ميزان الخلود من بريق الذهب الزائف.

كانت القدس في عام **1099**، حين استقر غبار الزحف الفرنجي للحملة الصليبية الأولى فوق تلال يهودا، لا تبدو مجرد مدينة من حجارة، بل تاجاً سماوياً يتربع فوق فوهة بركان تاريخي. كانت نسيجاً منسوجاً من خيوط ثلاث ديانات، لكنها في تلك اللحظة تحديداً كانت حصناً من العزلة، يلهث تحت وطأة قدر يقترب بخطى ثقيلة. كانت القدس متاهة من الجلال العمودي والتهاك الأفقي. أسوارها الكلسية التي تكتسي بلون العسل تحت شمس المتوسط الضارية، كانت تطوق عالماً يتعانق فيه المقدس والديني في عناقٍ أبدي وقلق. انقسمت المدينة إلى أحياء متميزة؛ حارات المسلمين، واليهود، والأرمن، والنصارى، كلٌّ حيٍّ منها كان عالماً قائماً بذاته، تفصل بينها أزقة ضيقة مسقوفة تفوح منها رائحة البخور، والغبار الجاف، وزفير القلق العتيق.

سياسياً، كانت المدينة حارساً وحيداً للخلافة الفاطمية في المشرق. فبعد استردادها من السلاجقة قبل عامٍ واحدٍ فقط، كانت القدس ترزح تحت حكم الوالي الفاطمي "إفتخار الدولة"، الذي كان يقبض عليها

بيد من حديد ويائسة في آن واحد. طهرّ الوالي المدينة من سكانها المسيحيين المحليين، خشية الخيانة من الداخل مع ظهور الفرسان المدرعين خلف التلال. كانت الحامية مزيجاً من الرماة السودانيين والخيالة العرب، يطوفون فوق "برج داود"، يراقبون المدى لا انتظاراً للمطر، بل ترقباً للمعانِ الفولاذِ الصليبي. روحياً، كان الهواء في القدس كثيفاً، يكادُ يكونُ ملموساً بصلواتِ القرون. في حارة اليهود، كان همسُ المزاميرِ يرتفعُ من معابدِ صمدت منذُ المنفى الروماني. وفي الحرم الشريف، كانت قبة الصخرة تتلألأُ بزرقه سماوية متحدية، بينما وقف المسجد الأقصى - المقرُّ المستقبليُّ لـ"آرنولد" ورفاقه - شاهداً على الأمجادِ الأموية. ومع ذلك، كان قلبُ التوتريّ يكمنُ في كنيسة القيامة، بدهاليزها المظلمة والمقدسة، شاهدة صامتة على الحجاج الذين خاطروا بالموت من أجلِ نظرةٍ واحدةٍ نحو القبرِ الفارغ.

أما سكانُ القدس فكانوا جبلةً صلبة، وجوههم محفورةٌ بوقارٍ من يعيشُ عند ملتقى الإمبراطوريات. التجارُ في الأسواقِ يساومون على الحريرِ والتوابلِ الشامية بعيونٍ زائغةٍ نحو التحصينات، بينما يتجادلُ العلماءُ في المدارسِ حولِ الفقهِ واللاهوتِ بينما بدأت أصواتُ المنجنقاتِ الصليبية تترددُ في المدى. كانت مدينةً من "الأحياءِ الموتى"؛ بشرٌ يدركون أنه عندما تنفجرُ العاصفةُ أخيراً، لن تفرقَ الحجارةُ بين التقيِّ والآثم. وعندما أبصرَ "آرنولد" المدينة لأول مرة لم يرَ هدفاً سياسياً أو نقطةً جغرافية؛ رأى سراياً متلألئاً من الذهبِ والعظام، مكاناً يبدو أن الإله قد انزوى فيه، تاركاً سيوفَ البشرِ الضامنة وحدها لتقررَ مصيره.

الأرض في المشرق عبر التاريخ لا تمنح الأمان طوعاً، لذا كان على "فرسان الهيكل" انتزاعه من صميم صخورها الصماء. هناك، حيث تتلاقى تلال الجليل مع زبد البحر المتوسط، انطلقت صرخة البناء الأولى؛ لم تكن مجرد جدران تُرفع، بل كانت "إرادة" تُصاغ من الحجر لترويض التاريخ.

تولى "آرنولد" مهمة الإشراف على تشييد تلك القلاع الأسطورية، ولم يكن ليبلغ هذه الدقة المعمارية لولا تحالفه مع نقابات "البنائين الأحرار" أو كما يطلق عليهم "الماسونيون". هؤلاء لم يكونوا مجرد عمال أجر، بل كانوا ورثة نظام غامض نشأ في رحم العصور القديمة، ويُرجعون جذورهم إلى "أديرة البناء" التي شيّدت المعابد الكبرى في مصر وبابل، وصولاً إلى "حيرام أبي"، المهندس الأسطوري الذي أرسله ملك صور لبناء هيكل سليمان الأول. لقد تأسست نقاباتهم كأخويات سرية لحماية "أسرار المهنة"؛ حيث لم تكن الهندسة عندهم مجرد أرقام، بل كانت لغة إلهية تربط بين الأرض والسماء. وبحلول العصور الوسطى، صاروا يُعرفون بـ"الأحرار" لأنهم كانوا الحرفيين الوحيدين المعفيين من قيود الإقطاع، فمنحهم الملوك والبابوات حرية التنقل عبر الممالك لبناء الكاتدرائيات والقلاع.



من هؤلاء المعلمين، ورث آرنولد والفرسان مهارات تتجاوز رص

الحجارة؛ تعلموا "الهندسة المقدسة"، وكيف يُنطقون الصخر باستخدام "الزاوية والقائم والفرجار". لقد منح الفرسان للبنائين الحماية والتمويل، ومنح البناؤون للفرسان مفاتيح العمارة التي جعلت من حصونهم كياناتٍ عصيةً على الزمن، وكأنَّ سرَّ البناء الأول قد انتقل إلى أيدي هؤلاء الرهبان المحاربين عبر طقوسٍ تشاركوها في خلواتِ البناء البعيدة عن أعين العامة ..

كانتِ القلاعُ الأولى، مثل "صفد" و "عثليث" و "الكرك"، تولدُ من رحمِ الجبالِ كأنها نتوءاتٌ طبيعية، تلتفُّ حول القممِ كتيجانٍ من فولاذٍ وحجر، تراقبُ الأفقَ بعيونٍ لا تنام.

ولم يكن هذا الهوسُ بالبناءِ ترفاً عابراً، بل كان ضرورةً وجوديةً فرضتها الجغرافيا المشتعلة؛ فقد أدرك الفرسانُ أنهم ثلَّةٌ قليلةٌ في بحرٍ متلاطمٍ من الأعداء، وأنَّ السيطرةَ على المدنِ الكبرى لا تعني شيئاً ما لم تُحرس المسافاتُ الفاصلةُ بينها. كانت القلاعُ "أقفالاً" حجريةً تُغلقُ الممراتِ الجبليةَ الحساسة، وتؤمنُ طرقَ التجارة والحجِّ من غاراتِ السلاجقة والفاطميين الذين لم يتقبلوا وجودَ الغرباء. لقد كانت هذه الحصونُ بمثابة "قواعدَ لوجستية" متقدمة، تمنحُ الفرسانَ القدرةَ على المناورةِ والكرِّ والفرِّ دون الحاجةِ لانتظارِ مددٍ بعيد، ولتكونَ ملاذاً أخيراً لا يُقتحم، يحفظُ أرواحهم وأسرارهم إذا ما دارت عليهم دوائرُ الزمان. لم تكن القلاعُ مجردَ ثكناتٍ عسكرية فحسب، بل كانت مدناً معلقة؛ بأسوارٍ مزدوجةٍ لا يطأها المنجنيق، و أبراجٍ دائريةٍ تراوَعُ السهام، و سراديبٍ مخفيةٍ تحت الأرضِ تبتلعُ الأسرارَ والمؤن.

كان آرنولد يقفُ فوق أعلى شرفةٍ في قلعة "عثليث" الناشئة، يراقبُ كيف يرتطمُ موجُ البحرِ بأساساتها المنيعه، ويشعرُ بأنَّ كلَّ حجرٍ يضعه هو مسمارٌ جديدٌ في نعيشِ الفوضى. كان يرى في انحناءاتِ العقودِ وقوةِ القناطرِ انعكاساً لنظامهم الصارم؛ فالقوةُ لا تكمنُ في

ضخامة البناءِ فحسب، بل في التناغمِ العجيبِ بين العناصرِ. صارت
تلك القلاعُ "صماماتِ أمانٍ" تحرسُ دروبَ الحجاجِ، ومنازلَ من
هيبةٍ تُلقي بظلالِها الثقيلةِ على كلِّ من تُحدثه نفسه بالاقترابِ.

تنظيم

فرسان الهيكل

في أروقة مجمع "تروا" (*Council of Troyes*) عام **1129**، وتحت ظلال الكاتدرائيات الباردة في فرنسا، كان التاريخُ يُكتب بمدادٍ من نور و نار. هناك، لم تكن الأقلامُ تخطُّ مجرد كلمات، بل كانت تصيغُ روحاً جديدةً لم يعهدها المشرق أو المغرب من قبل؛ روح "سيف الرهينة".

تولى المهمة العقلُ المدبرُ للكنيسةِ آنذاك، الراهبُ المفوه "برنارد من كليرفو"، الذي لم يرَ في فرسان الهيكل مجرد جنود، بل رآهم "مليشيا المسيح" التي ستغسلُ خطايا أوروبا. عكف برنارد، بمعاونة "هوج دي باين"، على صياغة ما عُرف بـ "القاعدة اللاتينية"، وهي الدستورُ الصارمُ الذي تألف من اثنين وسبعين بنداً، نُحتت لتكون سياجاً يحمي الفارس من غواية الدنيا وشرور نفسه.

كانت الكلماتُ تسيلُ على الورق بصرامةٍ رهيبية؛ فقد نصَّ الدستور على أن الفارس لم يعد يملك جسده أو إرادته. فُرض عليهم الصمتُ المطبق في قاعات الطعام، والاكتفاءُ بوجبتين فقط، والابتعادُ عن مباحج الصيد واللهو التي يغرق فيها النبلاء. كانت "القاعدة" تمنعهم من لمس الذهب أو الفضة حتى في زينة خيولهم، وأمرتهم بقص شعورهم قصاً عسكرياً وترك لحاهم تنمو لتكون علامةً على الوقار والتميز.

لكنَّ الجوهرَ الحقيقي لهذا الدستور كان في فلسفة "الشهادة المزدوجة"؛ حيث أُنقذ برنارد العالم بأن القتل في سبيل الحق ليس "جريمة قتل" بل هو "إبادة للشر" (*Malecide*)، وأن الفارس الذي يسقط في الميدان لا يموت، بل يولد من جديد. ومن هنا، تحولت ممارسة القتال إلى طقسٍ تعبدية، وصار السيفُ رفيقاً للمسبحة، والعباءة البيضاء الخالية من الزخرف رمزاً للطهارة التي يجب أن تسبق كل طعنة.

كان "آرنولد" يرقبُ وصول هذه البنود إلى القدس بذهولٍ وخشوع؛ فقد أدرك أن عهد "الحطاب المتمرّد" قد انتهى تماماً، ليحل محله عهد "الرهينة العسكرية". لم يعد يقاتلُ من أجل حلمٍ شخصي أو انتقامٍ قديم، بل صار جندياً في آلةٍ إلهيةٍ محكمة، يحكمها قانونٌ لا يفرق بين الملك والفقير، ويجعل من طاعة "السيد الأكبر" طاعةً للخالق نفسه. لقد منحهم هذا الدستور "الشرعية"، ليصبحوا بذلك أول جيشٍ "عابر للحدود" في التاريخ، محصنين بقانونٍ كتبه راهبٌ لم يحمل سيفاً قط، لكنه منح سيوفهم قوةً زلزلت العروش.

و لم يتوقف تطور تنظيم فرسان الهيكل عند إقرار سيف الرهينة ، فبحلول عام **1139**، وقع الحدث الذي زلزل أركان السلطة في أوروبا والمشرق على حد سواء، حين أصدر البابا إنوسنت الثاني مرسوماً بابوياً تاريخياً يُعرف باسم "العطية الكاملة" (*Dumne Datum Optimum*). لم تكن هذه مجرد وثيقة، بل كانت إعلاناً باستقلال "فرسان الهيكل" عن كل قيود البشر، لتصبح الجماعة دولةً عابرة للقارات، لا تخضع لملك أو أمير أو حتى لأسقف محلي، بل ترتبط بعرش البابا مباشرة.

في قلب قاعة العرش بقلعة "الهيكل" بالقدس، حيث كانت الجدرانُ الحجرية العتيقة تلوذُ بصمتٍ مهيبٍ يقطعهُ صريرُ المشاعل، وقف هوج دي باين كطودٍ راسخ، يتلو على تلاميذه الثمانية بنود المرسوم البابويّ الجديد الذي سيُغيّر مجرى التاريخ، وكان صوتُهُ ينسابُ بوقارٍ مفعمٍ بنشوة النصر، ليملاً ردهاتِ القصرِ بسطوة اليقين : "آرنولد، منذ هذه اللحظة، لم نعد مجرد حراس للطريق. لقد منحنا البابا الحق في بناء كنائسنا الخاصة، وجمع ضرائبنا، وتعيين كهنتنا. نحن الآن فوق القوانين التي تكبل النبلاء؛ لا ضريبة علينا، ولا سلطة لملكٍ فوق رقابنا."

في تلك اللحظة، اتسعت عينا أرشامبو بذهولٍ شابهُ الخوف، وهو

يتأملُ في أبعاد تلك الكلمات التي منحتم قوةً تفوقُ خيالَ البشر، فسألَ بنبرةٍ متهدجةٍ يملؤها القلقُ على مستقبلِ هذا الكيانِ الوليدِ : "سيدي، ألا يخشى البابا أن نضع لأنفسنا عالماً لا يطاله أحد؟ إن الملوك الذين اقترضوا منا المال، والأساقفة الذين نأخذ منهم السيادة، لن ينظروا إلينا بعد اليوم بعين الرضا.. لقد صرنا هدفاً لسهام الغيرة قبل سهام الأعداء."

انفرت أساريُّ هوج عن ابتسامةٍ ثقةٍ غامضة، ابتسامةٍ رجلٍ يرى ما وراء الأفق، وردَّ بصوتٍ هاديٍّ يحملُ حكمةَ الدهور : "الغيرة هي الثمن الذي تدفعه القوة يا بني. لقد منحونا هذا الاستقلال لأننا الوحيدون الذين لا يملكون وطناً سوى الهيكل، و لا عائلة سوى السيف. الملوك يخشوننا الآن لأننا نملك ما لا يملكون: نملك "المال" الذي يمول حروبهم، و"الحصانة" التي تكسر شوكتهم. لقد صرنا دولة بلا حدود، ممتدة من موانئ فرنسا إلى تلال الجليل."

أطرقَ آرنولدُ برأسه ملياً، وغرقَ في لحظةٍ تأملٍ عميقةٍ وهو يدركُ أنَّ التنظيمَ قد تحولَ إلى ماردٍ عابرٍ للممالك، ثم أردفَ بكلماتٍ خَرَجَتْ كأنها قراءةٌ لمصيرٍ مجهول : "إذن، صرنا 'دولة داخل الدولة'.. نحمل صليب الرب، لكننا نملك موازين الذهب."

عندها، حدقَ هوج في عينيه بنظرةٍ حازمةٍ كالنصل، و رد بلهجةٍ لا تقبلُ التأويل، محذراً من غدرِ الزمانِ وشهوةِ القياصرة : "الذهب هو الدرع الذي يحمي الفولاذ، والفولاذ هو الذي يحمي السر. تذكر يا آرنولد، إنَّ استقلالنا هو حصننا الحصين، ولكن احذر، فكلما ارتفع البناء، زادت الرغبة في هدمه. سيأتي يومٌ يطمع فيه الملوك في حريتنا هذه، وفي ذلك اليوم، لن ينقذنا إلا وفاء إخوتنا للعهد."

بهذا الاستقلال، تحول فرسان الهيكل إلى أقوى تنظيم مالي وعسكري في العصور الوسطى؛ فامتلكوا الأراضي، والأساطيل البحرية، والنظام المصرفي الأول من نوعه، وأصبح "آرنولد" يرى كيف أن

"الخطاب" الذي كان بالأمس يرتجف أمام "زلمة" الإقطاعي، صار اليوم ينتمي لكيان يرتجف أمامه الأباطرة.

ثم تهافتت المراسيم أكثر على تنظيم فرسان الهيكل ، ففي عام **1147**، وتحت سماء باريس المثقلة بوعود الحملة الصليبية الثانية، منح البابا إيجين الثالث التنظيم هويته البصرية الأبدية، تلك التي ستجعل قلوب الأعداء ترتجف بمجرد رؤيتها على تلال الرمل.

في ساحة كنيسة "سان دوني" المهيبة، وبحضور ملك فرنسا لويس السابع، وقف "هوج دي باين" وخلفه ثلثة من الفرسان، يتقدمهم آرنولد بصدرٍ شامخة. تقدم البابا، وبيده صليب قماشي قرمزي بلون الدم الطازج، ووضعه فوق جهة القلب على عباءة مؤسس التنظيم هوج البيضاء، معلناً أن الفارس الذي يوهب لله يجب أن يحمل رمز الفداء على صدره أينما ارتحل ثم كرر الفعل مع البقية.

في تلك اللحظة التاريخية المهيبة، وتحت قبة السماء التي شهدت ولادة الهوية الجديدة، أدار البابا وجهه نحو الفرسان الذين وقفوا في دُهولٍ شابته الرهبة، وأصابهم تتحسس بوجل ذلك الصليب القرمزي النابت لتوه فوق بياض ثيابهم كجرح مقدس، فانطلق صوته مفعماً بيقين يزلزل الوجدان : "هذا الصليب يا أبنائي، ليس رتبة تُعلّق، بل هو ميثاقٌ بالدم. لونه الأحمر يذكركم بأنكم لا تملكون الحق في الفرار من المعركة، فدمائكم ملكٌ للأرض التي تحرسونها، وبياض ثوبكم هو كفنكم الذي تلبسونه فخراً قبل أن تُواروا الثرى."

أطرق أندريه برأسه قليلاً، وهو يمرر أنامله الخشنة فوق نسيج الصليب القاسي، وشعر كأن حوافه تحفر طريقها نحو سويداء قلبه، فتمتم بكلمات خرجت كزفير النار : "أبانا ، لقد كنا أشباحاً بيضاء تجوب الصحراء، والآن صار لنا قلب ينبض بالدم. أشعر أن هذا

الرمز أثقل من درعي الفولاذي، وكان كل من يراه سيطالبي بدمي
ثمناً لحمايته."

في تلك الأثناء، ارتسمت على مِحيا هوج دي باين ابتساماً امتزج
فيها الرضا بعزيمة لا تلين، وكأنه يرى في عيني تلميذه ملامح
العصر الجديد، وأردف معقّباً بوقارٍ رصين: "هذا هو ثمن التميز.
منذ اليوم، لن يراك الناس كبشر، بل سيرون فيك 'نظاماً' و'عقيدة'.
الصليب فوق القلب يعني أن مشاعرك الشخصية قد ماتت، ولم يبق
سوى نبض الواجب. هل أنت مستعد لأن تصبغ هذا البياض بدمك
يوماً لتبقي الصليب مرفوعاً؟"

حينها، شمخ آرنولد بقامته، ورفع رأسه نحو الشمس الساطعة التي
باركت جبهته الشامخة، وانطلق صوته هادراً كالإعصار ليملاً
جَنَبَاتِ المكان هيبّةً وجلالاً: "لقد صبغت يدي بدم الشجر في
'شومباني' و بدم السلاجقة في 'أنطاكية'، ولن يهدأ لي بال حتى
أصبغ هذا الصليب بوفائي الأخير. إذا كان هذا هو وسم الرب على
صدري، فليكن هو آخر ما تراه عيناى قبل الموت."

بمباركة هذا المرسوم البابوي الذي ختم بخواتم السماء قبل محابر
الأرض، انسلخ أولئك الرجال عن طينهم البشري ليرتقوا إلى مصاف
الكيانات التي تعلو فوق الممالك وتتخطى حدود الأباطرة؛ فلم يعودوا
مجرد محاربين يبتغون نجاهاً، بل غدوا "فرسان الصليب الأحمر"،
ذلك الجيش الأسطوري الذي لا يلين نصله، والرهنة الصوفية التي
لا تتحني إلا لخالفها.

استحال مشهدهم فوق سهوات خيولهم المطهمة إلى ملحمة بصرية
تَهْرُ لها الوجدان، حيث كانت عبااتهم البيضاء الناصعة ترفرف
خلفهم كأجنحة ملائكة هبطت لتؤدب الأرض، يتوسطها ذلك الصليب
القاني الذي يسكن صدورهم كجمرة من نار لا تخبو. كانت تلك
الصورة المهيبة، بتباين بياض الطهر مع حُمْرة الفداء، هي الأيقونة

الخالدة التي رُسمت بمدادِ الهيبةِ في ذاكرةِ الزمان، ليبقى اسمُهم
محفوراً في صخرِ التاريخِ للأبد؛ قوةً غامضةً تجمعُ بين صرامةِ
الراهبِ وبطشِ المحاربِ، ونوراً يشقُّ عتمةَ الحروبِ ببريقِ الصليبِ
الذي صارَ عنواناً للمجدِ والرهبنةِ في آنٍ واحدٍ.

لقد غدوا منذُ تلكِ اللحظةِ "حرّاسَ المستحيلِ"، يمشونَ بين الناسِ
كأشباحٍ مقدسة، عيونُهم ترنو نحو القدسِ وقلوبُهم معلقةٌ بالسِرِّ
المدفونِ، تاركينَ خلفهم ملوكاً يرتجفون من فكرةِ جيشٍ لا يملكُ وطناً،
لكنه يملكُ مفاتيحَ القلوبِ والخزائنِ والقدَرِ.



في جوفِ الليلِ، حين يلفُّ الصمتُ جدرانَ كنيسةِ الهيكلِ بالقدسِ،
تبدأ طقوسُ الانضمامِ كأنها استدعاءٌ من عالمِ الموتى؛ فالمرشخُ لا

يدخلُ كفارسٍ مزهو، بل كطالبٍ خلاصٍ يقرعُ الأبوابَ ثلاثاً في عتمةِ الرواق، سائلاً الرفاقَ "خُبِرَ التنظيمَ وماءهُ وثوبه" لا غير. يُقادُ الشابُّ في موكبٍ شاحبٍ تضاءُ فيه شموعٌ سوداء، ليركعَ أمامَ "السيدِ الأكبر" الذي يواجهُه بأسئلةٍ تسبرُ غورَ الروح .

و في تلك الليلة وقف هوج دي باين في كنيسة الهيكل كطودٍ مهيب، يرتدي عباءته البيضاء التي لم يعبت بها سوى صليبٍ أحمر صغير. كان أمامه شابٌ نبيل، فرّ من بريق قصور فرنسا بحثاً عن خلاصٍ روحه، يُدعى "روبرت". كان الشاب يرتجف، لا خوفاً من السيف، بل من هيبة الطقس الذي سيجرده من كل ماضيه.

دنا هوج من المرشح الواجف، وكانت نظراته الحادة كنبال السيوف تخترق أعماق الروح لتسبرَ ما استترَ من وهن، ثم انبعث من صدره صوتٌ رخيّم عميق، له رنينٌ الرخام تحت وقع الحديد، ليبدأ تلاوة طقوس الانعتاق من الدنيا والولوج في نظام فرسان الهيكل : "أيها الأخ، أتعلم ما تطلب؟ إنك تطلب أن تكون عبداً لإخوتك، وأن تموت عن العالم لتبحث عن الحياة في حدّ السيف."

انحنى روبرت بجسده المثقل بالرهبة، فارتطمت ركبته بالبلاط البارد، وقال بصوتٍ متهدج يرتعش كخيطة دخانٍ في مهبّ الريح : "سيدي، لقد نبذتُ اسمي وثروتتي، وجئتُ أطلبُ الرداء الأبيض."

توقفت الكلمات في الفضاء لحظةً، بينما كان هوج يهزُّ رأسه ببطءٍ مهيبٍ كأنما يزنُ مصيرَ الرجلِ بميزانِ الغيب، ثم أردفَ بنبرة حازمة تقطرُ صرامة : "الرداءُ الأبيض ليس زينة، بل هو كفنٌ تلبسه وأنت حيّ. انظر إلى يديك.. هل أنت مستعدٌ لأن تضعهما في القيد إذا ما أمرت؟ هل أنت مستعدٌ لتجوع حين يكون الطعامُ وفيراً، ولتسهر حين ينام العالم؟ إنَّ قانوننا يا بني لا يعرف الرحمة لمن يلتفت وراءه. إذا انتهيت النوم، سنسهرك، وإذا انتهيت الخمر، سنسقيك الخل."

انطبق الصمتُ على المكانِ ثقيلًا خانقًا، كأنما توقفت أنفاسُ المساء ترقبًا، ثم شقَّ هوج ذلك السكونَ بسؤاله الحاسم الذي لا يقبلُ المواربة: "ماذا تركت خلفك في فرنسا؟"

أطرق روبرت رأسه خجلًا من حنينٍ لا يزالُ يعبثُ بمشاعره، وأجاب بصدقٍ مرير: "تركتُ أرضاً شاسعة، وامرأةً كانت تنتظرني، وقلباً كان يحلم بالمجد."

استلَّ هوجُ الكلماتِ كمن يستلُّ نصلًا من جرح، وردَّ بحدّةٍ مشوبةٍ بحكمةِ الشيوخ الذين صهرتهم التجارب: "إذن، اقتل ذلك الرجل الذي تركته هناك! هنا، لا يوجد 'روبرت النبيل'.. هنا يوجد 'فارس الله' الذي لا يملكُ حتى لجام حصانه. إنَّ سيفك الذي ستحمّله لن يدافع عن كرامتك الشخصية، بل عن كرامة الصليب. هل تقسمُ أن تكون فقيرًا لا تملكُ غير سيفك، وعفيفًا لا تسكنُ النساء خيالك، وطائعًا كالميت بين يدي غاسله؟"

رفع روبرت بصره نحو المذبح، وكانت عيناه تلمعان بدموع اليقين التي غسلت ما تبقى من أدران الماضي، وهتف بقلبٍ مؤمن: "أقسمُ بدم المسيح، وبشرفِ هذا المذبح."

في تلك اللحظة القدسية، استقرت يدُ هوج الثقيلة فوق رأس الشابِّ كأنها مسحُ القدر، ثم التفت بنظرةٍ مفعمةٍ بالوقارِ إلى آرنولد الذي كان يرقبُ مشهدَ الولادة الجديدة بصمتٍ جليل، وقال: "آرنولد، أعطه العباءة الخشنة. لقد مات روبرت، ووُلد اليوم أخٌ جديد لنا."

خطا آرنولدُ خطواته الوئيدة، وحملَ العباءة البيضاء الناصعة ليلقيها فوق كتفي الشابِّ كأنما يلقي عليه غطاءً من السكينة، ثم انحنى وهمسَ في أذنه بكلماتٍ لم يسمعها سواه، كلماتٍ كانت عصارة سنينٍ التيه ومراراتِ الغربة: "مرحباً بك في جحيمنا المقدس يا أخي.. هنا ستجدُ الرب، ولكنك ستفتقده في كل مرة تلمسُ فيها مقبض سيفك، فكن جديرًا بهذا الثقل."

انتهى الطقسُ بقبلةِ السلامِ على الوجنتين، وتحول الشابُّ من إنسانٍ له تاريخ، إلى رقمٍ في آلةِ الرهينةِ العسكرية، جندياً صامتاً يحكمه الدستور الذي كتبه "برنارد"، وسيفاً مرصوداً لخدمة السرِّ الذي يحرسه آرنولد في أعماق الهيكل.

كانت الريحُ السافيةُ تصفرُّ في أروقة "قصر سليمان" كأنها نياحُ الدهور، حين وقف آرنولد يرقبُ من خلف شرفةٍ عالية قافلةً من الحجاج المنهكين وهم يخطون داخل ساحة الهيكل بوقارٍ مكسور. كانت أسماهم الممزقة تحكي ملاحم الوجع، وعيونهم الغائرة تفيضُ برعبٍ لم تمحه قداسة الوصول، بينما تخلت أيديهم عن كل متاع إلا من عصيِّ ترحالٍ نخرها السفر.

اقترب منه هوج دي باين بوقارٍ مَن يمسك بزمام الأقدار، حاملاً في يده لفافةً من الورق السميك التي تنبعث منها رائحة الغموض، وقال بنبرة هادئة ولكنها تحملُ ثقلاً استراتيجياً زلزل سكون المكان: "انظر إليهم يا آرنولد.. لقد عبروا البحر والجبال ليوصلوا أرواحهم إلينا، لكنهم تركوا ثرواتهم نهباً للصوص الطريق أو طعمةً لغبار الفيافي. ما فائدة السيف الذي تحمله إذا كان المحميُّ يصل إلينا محطماً؟"

كان آرنولد يمسحُ درعه بطرف ثوبه في حركةٍ آلية شابتها الحيرة، فردَّ قائلاً: "وما السبيل يا سيدي؟ نحن لا نملكُ جيشاً يكفي لمرافقة كل حاج من موانئ فرنسا إلى أبواب القدس."

ابتسم هوج ابتسامةً غامضة كالأغاز الشرق، وفتح اللفافة التي كانت مغطاةً برموزٍ مشفرة وأختامٍ شمعية معقدة كأنها طلاس سحرية. "الن نحمي أجسادهم في الطريق فحسب، بل سنحمي "أرواح أموالهم". منذ اليوم، سيودع الحاجُ ذهبه في بيوتنا في أوروبا، ويستلم هذه الرقعة الصغيرة. وعندما يطأ أرض القدس، سأعطيه ذهبه من خزاننا هنا.. سننقل المال بالكلمات لا بالقافلة."

لمس آرنولد الورقة بذهول، وأحسَّ بقوةٍ خفيةٍ تتبعثُ من أليافها، قوةٌ تفوق بأس السيوف. "إذن، سنصبحُ أسيادَ الروح و المادة يا سيدي؟ الملكُ يملكُ الأرض، ونحن سنملكُ 'الثقة' التي تحرك المال عبر البحار."

في الأيام التالية، استحال مقرهم إلى ما يشبه خلية نحلٍ صامته لا تهدأ؛ حيث رأى آرنولد الرهبانَ المحاربين وهم ينضوون عن دروعهم ليتحولوا إلى محاسبين دقيقين، يزنون الذهب بموازين الرهبة ويخطون الرموز السرية بمداد اليقين. صار "الخطاب" القديم يشرفُ بنفسه على تأمين الخزائن الحجرية التي نُحتت في أحشاء الهيكل المظلمة، وأدرك يقيناً أن القوة لم تعد تتبع من طول النصل المصلت فحسب، بل من صمت الصناديق الحديدية الرابضة في العتمة.

ولكن، عندما كان يخرجُ للتدريب في ساحة "المسجد الأقصى"، كان الذهبُ يتوارى ليحلَّ محله الفولاذ الصقيل. كان آرنولد يصرخُ في المتطوعين الجدد وهو يلوح بسيفه كبرقٍ خاطف: "في هذا التنظيم، لا يوجد انسحاب! إذا رأيتم ثلاثةً أمامكم، فأنتم الأغلبية لأن الربَّ معكم! لا تضرب لتميت، بل اضرب لتُنهى الشر."

رأى آرنولد كيف تحول هؤلاء "الرهبان" إلى صخرٍ أزلي لا يتزحزح؛ يرتدون دروعاً ثقيلة تحت عبااتهم البيضاء النقية، ويتحركون ككتلةٍ فولاذية واحدة، صامتين كالأحجار الغابرة، وفتاكين كالقدر المحتوم. في إحدى الدوريات، واجهوا فصيلةً من المرتزقة، ورأى آرنولد كيف أن صرخةً واحدة من "جودفري" كانت كفيلةً بجعل الخصوم يلقون سلاحهم رعباً من تلك "الأشباح البيضاء" التي لا تطلب فدية ولا تساوم على خوف.

التفت آرنولد نحو هوج في نهاية ذلك النهار الملحمي وقال بنبرةٍ شابها القلق: "سيدي، لقد صنعنا وحشاً مقدساً.. نملكُ ذهب الملوك

وبأس الشياطين، فهل سيحتلمُ العالمُ وقارنا هذا طويلاً؟"

أجابه هوج وهو يرسل نظراته نحو الأفق البعيد حيث تغرب الشمس
خلف تلال القدس : "العالمُ سيحترمنا ما دام يحتاجُ إلينا، وسيكرهنا
ما دام يخافُ منا.. المهم يا آرنولد، أن يبقى "السر" الذي نحفرُ لأجله
مخبأً خلف هذا الذهب وهذا الفولاذ."

هیکل سلیمان

القدس .. بعيد انتظار الحملة الصليبية ..

كان الليل فوق القدس غلالةً من الصمت المشوب بالرهبة، حين انسحب آرنولد ورفاقه الثمانية من صخب الحراسات الظاهرة إلى عتمة "قصر سليمان" (المسجد الأقصى). لم تكن هذه الليلة للصلاة أو الراحة، بل كانت لمصافحة جوف الأرض. في زاوية قصية من الرواق الجنوبي، حيث تنحسر الأضواء وتطول الظلال، وضع آرنولد معولته الثقيل فوق البلاط الرخامي البارد، وهو يشعر بأن نبض الأرض تحت قدميه يتسارع ترقباً.

أشعل هوج دي باين قنديلاً واحداً ضئيلاً، وضعه في فجوة عمود قريب، ثم نظر إلى آرنولد وأوماً برأسه إيماءة صامتة كانت بمثابة إذن باقتحام التاريخ. رفع آرنولد ذراعيه القويتين اللتين صقلتهما غابات "شومباني"، وهوى بالمعول بكل ثقله على حافة البلاطة المرمرية الضخمة. كان الصوت الذي انبعث من الارتطام مكتوماً وعميقاً، كأنما هو زفرة من صدور الأسرار المدفونة في الأسفل. ومع كل ضربة، كان آرنولد يشعر بمقاومة الحجر الذي استعصى على الضوء لآلاف السنين، حتى بدأت الشقوق تتلوى كأفاع من غبار، وانزاحت البلاطة لتكشف عن فوهة سوداء باردة تنبعث منها رائحة "الزمن الرطب".

جثا هوج على ركبتيه، وقرب القنديل من الفتحة، فبدا له درج حجري منحوت في الصخر ينحدر عميقاً نحو المجهول. همس بصوت يملؤه التوجس: "آرنولد.. هذا هو الباب الذي لم يفتحه ملوك الأرض منذ خروج سليمان. الهواء هنا يفر بأسرار لا تقوى عليها العقول. هل تشم رائحة البخور القديم؟ إنه لا يزال عالقاً في مسام الصخر."

مسح آرنولد العرق المتصبب عن جبينه، وهدق في العتمة القابعة تحت قدميه برهبة مشوبة بالتقديس، وردّ بكلمات خافتة: "سيدي، أشعر أن الأرض تفتح لنا أحشائها بامتعاض. هذا الدرج لا يقود

إلى قبوٍ فحسب، بل يقودُ إلى عالمٍ تركناه وراءنا حين توقفنا عن سماع صوتِ السماء. يداي ترتجفان، لا من المنظر، بل من وزر ما نفعله."

في تلك اللحظة، تقدّم أندريه دي مونبار ووضع يده على كتف آرنولد، وقال وهو يرقبُ الفوهة المظلمة: "تذكروا يا رفاق، نحن لا ننبشُ قبراً، بل نستردُّ أمانة. ما تحت هذه البلاطات هو "الأساس" الذي ستقومُ عليه دولتنا، والسرُّ الذي سيجعلُ من صليبنا الأحمر رمزاً يتجاوزُ حدودَ الفهم البشري."

نزل آرنولد الدرجات أولاً، يحملُ في يده شعلةً وفي الأخرى نصله المصّلت، وكلما توغلَ خطوةً في "طريق الأسرار السفلي"، كان يشعرُ بأنَّ جدرانَ الدرج تضيقُ عليه، كأنها تحاولُ حماية ما فيها من فضول الغرباء. وعندما استقرت قدماهُ على أرضية السرداب أخيراً، ارتفعَ في الفضاء صوتٌ حفيفٍ غامض، كأنَّ الريحَ قد تسللت معهم لتبحثَ عن ضالتها في غياهب الخنادق.

وغل آرنولد في أحشاء السرداب، يتبعه هوج دي باين وبقية الرفاق السبعة؛ حيث انتشر ضياء مشاعلهم ليمزق ظلمات رابضة منذ دهور. كان الهواءُ يزدادُ ثقلاً وكأنه يرفضُ ما أقدموا عليه، والجدرانُ الصخريةُ الرطبةُ تضيقُ أكثر فأكثر حتى كادت تلامسُ أكتاف الفرسان العريضة، لتعلنَ عن قرب نهاية السرداب المفتوح وبداية اللغز الموصد.

توقف آرنولد فجأة حين اصطدمت شعلته بجدارٍ سدّ الطريق.. لم يكن جداراً من صخرٍ فجّ، بل لوحاً عظيماً من المرمر الأسود، نُقشت عليه رموزٌ غريبة مبعثرة في كل زواياه. لم تكن صلباناً مألوفة، ولا أيقوناتٍ للقديسين، بل نجوماً خماسية و سداسية و سباعية و ثمانية، خطوطاً هندسية متداخلة، أحرفاً آراميةً وعبريةً قديمة تلمع تحت

الضوء كأنها أعينٌ قططٍ تترصدُهم في العتمة ، و رموز لنجوم و أقمار و كواكب .

جثا غونديمار الخبير بالرموز الدينية و التاريخية وقرّب نوره من النقوش، فارتجفت يدهُ وهو يتمتم : " سيدي هوج.. هذه الرموز لا تتحدثُ عن مملكةِ الأرض، بل تصفُ هندسةَ الكون. إنها لغةُ البنائين الأوائل الذين جمعوا بين العلمِ والوحي."

علّق جودفري دي سانت أومير و هو يمسح الغبار عن زاوية الجدار : "انظروا إلى هذه الدوائر المتقاطعة، إنها تشبه تلك التي رأيناها في القسطنطينية، لكنها هنا تبدو وكأنها المنبع. هل يعقل أن يكون سر الهيكل مشفراً في هذا الحجر؟"

أما باين دي مونتديدير فقال بنبرةٍ شابها القلق وهو يقبض على مقبض سيفه : "لا يهم إن كانت هندسة أو وحيًا، ما يثير ريبتي هو أن هذا الجدار وُضع ليمنع أحداً ما من العبور. ثمة هيبة في هذا المكان تجعل دمي يبرد في عروقي، وكأن الحجارة تهمس لنا بالرحيل."

تقدم آرنولد بتؤدة و لمس الرموزَ بأصابعه الخشنة، فشعر بكهرباءٍ خفية تسري في مسامه، سأل بصوتٍ يملؤه الخشوع : " أيعقلُ أن يكون ما نبحثُ عنه أقدمَ من الصليبِ ذاته؟ "

أجابه هوج وهو يرسلُ نظراته خلف آرنولد إلى الممر المظلم : "الصليبُ هو الباب، يا آرنولد، لكنّ هذه الرموز هي الأساسُ الذي قام عليه الباب. لقد ورثنا السيوف، لكننا هنا لنرثَ الحكمةَ الضائعة. احذروا.. فالحجرُ هنا ينطقُ بلغةٍ قد تزلزلُ إيمانَ من لا يملكُ قلباً كالفولاذ."

ساد صمتٌ مطبق، انقطع فيه حتى دوي أنفاسهم المتلاحقة. تجمد آرنولد في مكانه، فقد تراءى له خلف الوميض الباهت للمشعل ظلٌّ يتحركُ برشاقةٍ لا تشبه حركة البشر، وصوتٌ خشخشةٍ خفيفة كأنها

احتكاكُ ثوبٍ حريريٍّ بالحجرِ الصلد. قبض على مقبض نصله
المُصلت، وهمس محذراً: "سيدي هوج.. ربما لسنا وحدنا هنا. ثمة
أنفاسٌ أخرى تشاركنا هذا السرداب، وعيونٌ ترقبنا من وراء
الصخر."

هز هوج رأسه نافياً: " لا أعتقد يا أرنولد .. إنها الريح لا أكثر ..
لكن غموض المكان يلقي بظلاله على عقولكم "

وقف الفرسان التسعة أمام جدار المرمر الأسود كأنهم أمام سدٍ منيعٍ
من صمت التاريخ. تقدم أندريه دي مونبار، الذي قضى لياليه في
القسطنطينية يدرس مخطوطات الهندسة القديمة، وقرب شعلته من
النقش المركزي؛ كان النقش يمثل "ميزاناً ذا كفتين" تعلوه "النجمة
السباعية"، وتحت كل كفة هناك تجويف دائري غائر في الصخر.

استغرق أندريه في تفكيرٍ مطولٍ و كأنه يحاول أن يتخيل آلية إغلاق
البوابة وفقاً لدراساته السابقة و النماذج التي رآها من قبل، ثم ابتسم
أخيراً و قال بنبرةٍ يملؤها اليقين: "هذا الجدار لا يحميه القفل
والمفتاح، بل يحميه قانون "التوازن الإلهي". انظروا إلى هذه
الثقوب تحت الكفتين؛ إنها قنوات ضغط تعمل بوزن المادة. لن يفتح
هذا الجدار إلا بوزنٍ متساوٍ يوضع في اللحظة ذاتها."

طلب أندريه من أرنولد و جودفري أن يقفوا أمام كل كفة، أخرج من
حقيبته "مكيالين" نحاسيين مألوما برمال أرضية النفق الناعمة حتى
تساويا تماماً في الوزن. ثم قال محذراً: " عليكما إفراغ الرمال داخل
الثقوب في وقتٍ واحد، لا يسبق أحدهما الآخر بنبضة قلب، وإلا
ستغلق التروس الداخلية للأبد على ما أعتقد."

بتركيزٍ شديد، وبإشارة من أندريه، سكب الفرسان الرمال. و ما إن
انتهيا حتى تحركت الكفتان الرخاميتان نحو الأسفل ببطء، مما أدى
إلى تحرير "مزلاجٍ مائي" مخفي خلف الجدار. سُمع صوتٌ اندفاع

مياه في قنوات ضيقة خلف الصخر، وهو نظام هيدروليكي قديم يعتمد على ضغط السوائل؛ حيث أدى وزن الرمال إلى دفع مكابس حجرية ضخمة تحت الأرض، قامت بدورها برفع أثقَالٍ موازنة كانت تُبقي الجدار ثابتاً.

فجأة، اهتزت الأرض اهتزازاً طفيفاً، وبدأ الجدار المرمرى الضخم، الذي يزن أطناناً، بالدوران حول محورٍ حديدي مركزي، لم ينزلق الجدار يميناً أو يساراً، بل استدار حول نفسه بزاوية تسعين درجة، ليتحول من سدٍ منيع إلى "رواقٍ" مفتوح من الجانبين كل جانب يحمل كفة من الميزان، كاشفاً عما وراءه من غموض.

التفت أندريه إلى آرنولد وقال وهو يمسح العرق عن جبينه :
"الهندسة يا آرنولد هي لغة الله في خلقه.. لقد فتحنا الباب بالعقل،
والآن سنحتاج إلى مساعدك وروحك لما هو آت."

تخطى الفرسان الجدار الدوّار، ليجدوا أنفسهم في قاعةٍ دائرية فسيحة، جدرانها مغطاة بصفائح من النحاس الذي لم ينل منه الصدا، تعكس ضياء مشاعلهم لتبدو القاعة وكأنها تشتعل بنورٍ ذاتي. في أرجاء المكان، ترصفت خزائن حجرية مفتوحة، نُضدت فيها أشياء تخلع القلوب بجمالها وغرابتها .. إنهم الآن رسمياً داخل هيكل سليمان لأول مرة منذ قرون طويلة خلت ..

رأى أرشامبو "تحفاً ذهبية" ضخمة عليها نقوشٌ بابلية، وبجانبيها "لفائف من النحاس الرقيق" كُتبت عليها خرائط لمواقع مجهولة في الأرض. في حين وقف باين دي مونتديدير مبهوراً أمام مجموعة من "السيوف العتيقة" التي لا تشبه سيوف الفرنجة، نصالها مرصعة بأحجارٍ كريمة زرقاء، يقال إنها سيوف ملوك "يهودا" القدامى.

ولكن ما خطف أنفاس الجميع، كان في صدر القاعة؛ حيث استقر "تابوتٌ من خشب السنط"، وبجانبيه كأس معدنية وقطعة قماش مطوية

تفوح منها رائحة مسكٍ وعنبرٍ لا يزول. شعر آرنولد بأن الزمان هنا قد تكتّف، فكل قطعة في هذه القاعة لم تكن مجرد كنز، بل كانت صلة وصلٍ فيزيائية مع أنبياءٍ طالما سمع عنهم في قصص الكنيسة، لكنه الآن يلمس أثرهم بيده.

بينما كان الفرسان غارقين في لُجّة الانبهار، يتهامسون أمام كفنٍ نُسج من نور وأوانٍ صاغتها يدُ التاريخ، استشعر آرنولد بحسّه الفطري حركةً مريية خلف صفوف الأعمدة الرخامية التي لم تصلها أضواء مشاعلهم. لم تكن حركةً عنيفةً توحى بالصدر، بل كانت انسياباً هادئاً كأنّ الهواء ذاته قد تجسد في صور بشرية. فجأة، ومن خلف الأعمدة، انفتحت بوابةً حجريةً مجهولة لم يلمحها الفرسان، بوابةً نُحتت ببراعة لتكون جزءاً لا يتجزأ من جدار القاعة، وخرج منها ثلاثة رجال يرتدون أثواباً داكنة، بملامح شرقية عتيقة بدت وكأنها نُحتت من صخر القدس ذاته.

انتفض الفرسان، استلّ آرنولد نصله، في حين صاح باين محذراً: "هل هذا فخّ! ثمة مدخلٌ آخر للهيكَل لم يذكره المخطوط!"، لكنّ هوج دي باين رفع يده أمراً بالهدوء حين رأى الغرباء يتقدمون بصدورٍ عارية وأيديٍ مفتوحة، لا يحملون نصلًا ولا درعًا.

تقدم كبيرهم، رجلٌ تجاعيد وجهه تحكي قصة ألف عام، وتحدث بلغةٍ عربيةٍ فصحي مشوبة بلهجةٍ آرامية قديمة، تولى أندريه دي مونبار ترجمتها بذهول: "أخمدوا نيران سيوفكم، يا سادة الغرب.. نحن لسنا أعداءً ولا غزاة، نحن 'حراس الظل'، الأوصياء الصامتون الذين لم تغض لهم عين منذ أن أُغلق هذا المكان بختم سليمان. نحن السلالة التي نذرت دماءها لخدمة 'الزمان'، ولسنا هنا لمنعكم، بل لنرى إن كنتم أنتم الورثة الذين بشرت بهم النبوءة. لقد تبعكم رجالنا في السرداب ثم عادوا ليبلغونا"

خيم صمتٌ مهيب قطعته كلمات هوج المتسائلة : "حراس الظل؟ منذ متى وأنتم تحمون هذا السرّ؟ ولماذا لم تظهروا إلا الآن؟"

أجاب الشيخ وهو يخطو نحو مركز القاعة بوقارٍ ملكي : "تاريخنا يمتد لثلاثة آلاف عام، قبل أن تُبنى هذه الأسوار بقرون. نحن نقابة البنّائين الأوائل الذين فقهوا أسرار المادة والروح. كنا مع الأنبياء حين استودعوا أسرارهم هنا، وكنا مع الملوك حين أرادوا حمايتها. لقد انتظرنا ألف عام خلف تلك البوابة التي لا تفتح إلا من الداخل، لنرى مَنْ منكم سيمتلك العقل ليفك لغز الميزان والرماد، والروح ليدخل هذا المكان بوقار الرهبان لا بجشع اللصوص. أنتم اليوم لا تقفون في مخزنٍ للذهب، بل تقفون في 'قلب الزمن'، ونحن هنا لنشرح لكم ما عجزت عقولكم عن فهمه."

خيم وجومٌ ثقيلٌ على أرجاء القاعة، كأنّ الهواء تجمّد في صدور الفرسان وهم يرقبون الشيخ الذي تقدّم بهيبة طاغية، وعرفّ عن نفسه باسم "عزرا السامري"، آخر سدنة الهيكل القديم. توقف "عزرا" أمام الإناء المعدني البسيط، وأشار إليه بيده المرتعشة قائلاً بنبرةٍ تقطرُ رهبةً :

"هذه الكأس التي ترونها، ليست مجرد وعاءٍ لشراب؛ إنها الرمزُ الأنثويُّ الأقدس، إنها تشيرُ إلى مريم المجدلية، الكأس التي احتوت سلالة يسوع المسيح وزوجته في سرّ الوجود."

انتفض هوج دي باين كأنما أذع بنار، واختلجت ملامحه بغضبٍ ممزوج بالرعب، وصاح بحدة : "كفّ عن هذا الهراء أيها الشيخ! أتقول إنّ للمسيح زوجة؟ هذا كفرٌ يزعزعُ أركان الصليب الذي نحمله!"

لم يطرف لـ "عزرا" جفن، بل نظر إلى هوج بعينين عميقتين كبئرٍ سحيق، وقال بهدوءٍ يزلزلُ اليقين : "سيد هوج.. تمهّل ولا تدع جهلك بالحقائق يغلبُ بصيرتك. إذا كان للإله في علاه 'كأسٌ مقدسة'

تفيضُ منها الحياة، فكيف تتعجب أن يكون لصورتِه المتجسدة على الأرض كأسه الخاصة التي تحفظُ نسله؟ المادةُ أيها الفارس لا تنفصلُ عن الروح، والسرُّ الذي تحميه المجدلية هو سرُّ استمرار النور في عروق البشر.

ساد صمتٌ مخيف، تراجع فيه هوج خطوةً إلى الوراء وهو يتصيب عرقاً، بينما انتقل عزرا نحو قطعة القماش المطوية بقديسية : "أما هذا الكفن، فهو الثوبُ الذي لُفَّ به جسد يسوع بعد أن أنزل عن الصليب ميتاً؛ لقد تُرك في المغارة عقب قيامته من الموت شاهداً على انتصاره على قتلته ، وبقي هنا ليحفظَ أثرَ النور الذي لا يبلى." رفع عزرا مشعله نحو السقفِ المقبب، فلاحَ لهم نقشٌ عظيمٌ يتوسط القبة؛ كانت "النسبة الذهبية - فاي" محفورةً بذهبٍ باهت، ويعلوها رقم (7) ضخماً بخطِّ غائر.

أشار عزرا نحو السقف وقال : "ارفعوا أبصاركم إلى السماء .. تلك هي ساعة الكون. الرقمُ سبعة يشيرُ إلى عُمُر الرحلة البشرية فوق هذا الثرى؛ سبعة آلاف سنة هي أجلُ الأرض. لقد انقضى منها أربعة آلاف عامٍ من لدن آدم حتى ظهور المسيح، وما تبقى لنا اليوم هو أقلُّ من ثلاثة آلاف عامٍ قبل أن تُطوى الصحف. النسبة الذهبية التي ترونها هي الميزانُ الذي يحددُ انحناءَ الزمن واقترابَ النهاية."

ثم خفض عزرا إصبعه ليشير إلى رمزٍ آخر نُقش بدقةٍ متناهية أسفل النسبة الذهبية، كان رقم (8) ينسابُ بانحناءاتٍ لا نهائية، وأكمل بصوتٍ يحملُ رنيناً ميثافيزيقياً : "أما هذا الرقمُ ثمانية القابع تحت ميزانٍ 'فاي'، فهو يشيرُ إلى اليوم الثامن؛ يومُ الخروج من حيزِ الزمانِ إلى فسحةِ الأبد. إنه يرمزُ إلى الحياة بعد الموت، تلك الغاية التي تتجاوزُ السبعة آلاف سنة، حيثُ ينتهي حسابُ البشر ويبدأُ خلودُ الروح ، لذا فهو يمثل رمز اللانهاية. كل ما نفعله هنا هو حراسةُ ما تبقى من هذا الوقت لنعبرَ بسلامٍ إلى ذلك اليوم الثامن."

سقطت الكلمات على مسامع الفرسان كأنها مطارق من حديد؛ وقف أندريه مشدوهاً، وجودفري يتمتم بصلواتٍ لم تعد تجد طريقها إلى لسانه ، و هو يرى نهاية الحياة على مرمى حجر ، و رغم ذلك ينشغل الخلق بالمال و الذهب و المتعة و الحروب، أما آرنولد فقد شعر بأن الأرض التي يحفر فيها ليست إلا قشرة رقيقة تخفي خلفها حقيقة أضخم من الكنيسة ومن الممالك ومن الحرب ذاتها. كانوا في حالة ذهول تام، كأنهم استيقظوا فجأة ليجدوا أنفسهم ليسوا محاربين في جيش، بل حراساً لنهاية العالم.

وقف عزرا السامري في قلب القاعة، مشيراً بيده الوجلة نحو الصندوق المهيب المصنوع من خشب السنط والمغلف بصفائح الذهب الخالص، وقال بصوت يتهدج خشوعاً : " هناك أمامكم يربض تابوت العهد، ميزان الحضور الإلهي ومستودع الميثاق الأول الذي لم تلمسه يد منذ غياب الأنبياء. في جوفه المظلم، تستقر لوحا الشهادة اللذان نُقشت عليهما كلمات الرب (الوصايا العشر) بلهيب النار، وبجانبيهما تقبع عصا هارون التي أزهرت في القفر لتعلن أن الحياة تتبع من الجماد، وقسط المن الذي لا يفسد، شاهداً على زمن التيه. إن هذا التابوت ليس مخزناً للآثار، بل هو 'محرك الزمان' الذي يضبط إيقاع السبعة آلاف سنة؛ فمحتوياته هي شهادة الله على عهده مع البشر، والشاروبيم الذهبيان اللذان يظللان الغطاء بأجنحتهما يحرثان الفراغ ليمنعا أي طاقة غريبة من الاقتراب. من يملك هذا التابوت يا سادة ، لا يملك الذهب، بل يملك صلة الوصل المباشرة مع المشيئة التي سيرت آدم والمسيح، واليوم، صار هذا الثقل العظيم أمانة في أعناقكم إلى أن يُقضى الأمر."

ظلَّ عزرا السامري يشرح للفرسان أسرار هيكل سليمان حتى انبلجت خيوط الفجر الأولى، وكانت كلماته تنساب كالأنهار الغامضة

في عتمة الهيكل، فكشفت لهم عن المكانة المهولة لهذا المكان الذي لم يكن يوماً مجرد بناءٍ من حجر، بل كان "مرصداً كونياً" نُحتت موازينه بدقة تجعل من حركة النجوم وضبط الزمان خادماً له. غاص بهم في دهاليز الغموض، مبيّناً كيف أنّ زوايا الهيكل وأعمدته ليست إلا صدىً لترددات الخلق، وأنّ كلّ من حاول تدنيس هذا السرّ من الجبارة قد ابتلعتة لعنة التاريخ. في تلك الساعات الطويلة، تبددت صورة الهيكل القديمة في عقولهم، ليحلّ محلّها يقينٌ مرعبٌ بأنهم يسكنون فوق "قلب العالم النابض"، وأنّ جدران مصلاهم هي الغلاف الرقيق الذي يحمي البشرية من الانفجار العظيم للحقائق المستورة.

ومع اقتراب الساعة التي يمتزج فيها سواد الليل بزرقه الفجر، قادهم هوج نحو المخرج بصمت جنائزي، فخرجوا من رجم الأرض إلى صحن المسجد الأقصى والقدس تغطّ في نومٍ شاحب. حين وطئت أقدامهم الرخام الخارجي، بدت وجوههم في ضوء الفجر الرماديّ غريبة كأنهم عادوا من رحلة استغرقت ألف عام؛ كانت أعينهم زائغة تلمع ببريق المعرفة التي تُثقل كاهل الجبال، وخطواتهم بطيئة كأنّ أجسادهم لم تعد تقوى على حمل الروح التي استنارت فجأة. لم يلتفت أحدٌ منهم للآخر، بل كانوا يتنفسون هواء الصباح البارد كأنهم يكتشفون الحياة لأول مرة، مدركين أنّ السيف الذي يتدلى على صدورهم قد صار منذ اللحظة "أداة ثانوية" أمام العبء الذي استقرّ في ضمائرهم.

توقف هوج دي باين عند عتبة الجناح الخاص، والتفت نحو عزرا الذي كان يتوارى في ظلال المدخل السري، ثمّ نظر إلى رفاقه الثمانية وقال بنبرة خافتة لكنها حازمة كالقدر: "منذ هذه اللحظة، نحن رهبان الحقيقة قبل أن نكون فرسان الحرب. ما رأيتموه تحت الأرض لا يُقال، وما سمعتموه لا يُكتب. غداً سنبدأ مع عزرا تدريبات من نوع جديد؛ لن نتدرب على صدّ السيوف فحسب، بل على كيفية حماية عقولنا من الجنون أمام هذا السر. سنغلق جناحنا هذا، ولن

يدخله مخلوق سوانا، وسنكون نظاماً داخل النظام، نحفر في الأرض ونبنى في السماء.. أغلقوا فوهة النفق و أعيدوها كما كانت محصنة بالصخر و الرخام .. هذا الهيكل يجب أن يبقى بعيداً عن أعين المتطفلين و أيدي اللصوص و أسلحة الحاقدين ، و سنكتفي ببوابة حراس الظل "

أوماً آر نولد برأسه، وكان يتحسس ملمس يديه الخشنتين اللتين لمستا كفن النور، وشعر بأن طين قريته قد تلاشى تماماً ليحل محله غبار الهيكل الأزلي. انصرف الفرسان إلى خلواتهم، والقدس تستيقظ على صياح الديكة وصلوات الحجاج، دون أن يدري العالم أن تسعة رجال قد خرجوا لتوهم من خنادق الغيب، ليغيروا مسار التاريخ إلى الأبد.

أسرار عزرا

لم تكن تلك العزلة مجرد انكفاء خلف الأبواب الموصدة، بل كانت انصهاراً عنيفاً للأرواح في أتون الغيب. ضرب هوج دي باين ميثاق الصمت على "جناح الهيكل"، فاستحالت الردهات التي كانت تضح يوماً بوقع حوافر الخيل إلى محراب هامد يسكنه الوجل. انقطع الفرسان التسعة عن ضجيج القدس وعن مآدب النصر الباذخة، وصاروا يتنفسون هواءً ثقيلاً معبأً بغبار القرون ورائحة المخطوطات التي نُبشت من جوف الأرض. كان "آرنولد" يشعر بجدران القبو تضيق عليه كأنها أضلاع عملاق حي، فما عادت أحاديث الحرب والسيوف تغري أذناه، بل غرق في حالة من "الاغتراب المقدس"؛ حيث بدت له شمس القدس في الخارج باهتة أمام الضياء المرعب الذي انبعث من أسرار الهيكل المدفونة.

تأكلت ملامح "الخطاب" فيه، وغارت عيناه في محاجرهما كأنهما ثقبان ينظران إلى الأبدية، وساد بين الرفاق نوعٌ من التواصل بالإشارة والهمس، كأن الكلمات البشرية العادية صارت تافهة أمام جلال ما يعاينون. كانت حالتهم النفسية مزيجاً من النشوة الروحية والذعر الوجودي؛ فكلما كشف لهم عزرا عن "ميزان الزمان"، شعروا بأن كواهلهم تنوء بحمل مصير البشرية جمعاء. كان اليقين الجديد ينهش يقينهم القديم، فتزلزلت ثوابثهم وصاروا يمشون في أروقة الهيكل كأطياف شاحبة، لا يفرقون بين ليل ونهار، كأنهم عبروا برزخاً لا عودة منه. لقد ماتوا عن العالم قبل أن يغادروا أجسادهم، ليولدوا من جديد كأوعية بشرية لسر لا يطيقه فكر، يحرسون "الزمان" بقلوب يرتجف فيها الخوف من الله، ويشتعل فيها الشوق ليوم الخروج نحو "اليوم الثامن" الأخير.

على مدار الليالي التي أعقبت ميثاقهم الأول مع "عزرا السامري"، تحول المسجد الأقصى برحابه الوادعة إلى محراب كوني يجمع الشتات؛ حيث كان الشيخ ينسل في الهزيع الأخير كأنه صدى من غابر الأزمان، ليلتقي بالفرسان التسعة في خلوة يغشاها جلال

صامت، تحت حراسة النجوم التي كانت تطلُّ بأعينها الثاقبة من خلف الشرفات العالية المشرعة على أبدية السماء. هناك، في منأى عن صراع العروش وهياج النصال، كان عزرا يغرسُ في وجدانهم بذور الحقائق المستورة، فاستحالت عتمة المحاريب إلى محفلٍ للغيب، يلقنهم فيه كيفية فكِّ بلاسم "سفر التكوين" المكتوب بأبجدية النور، ويشرخُ أمام بصيرتهم ثنانيا الأبعاد وحنايا التاريخ في تجلٍ لم تشهده عقول البشر من قبل.

ارتقى عزرا بمدارك الفرسان، فجاوز بهم رصد الأجرام الجامدة ومداراتها الصماء، ليبلغوا رصد "معاريج الأصفياء"، وتتبع نفحات الوحي المتغلغلة في مسام الصخر العتيق. غدا الهيكل في منظوره وتصويره أرفع من مجرد صرح مشيدٍ بمرمرٍ وطين؛ بل تجلى أمامهم كـ "بوابة نورية" وقنطرة علوية، تتلاشى عند اعتبارها الفواصل المادية، وتتعانق في رحابها أرواح الأرض بملكوت السموات السبع

أشعل عزرا ذات يوم في مسجد قبة الصخرة مجمرَةً صغيرةً يفوح منها عطرُ "المُرِّ والقرفة" – و هي أخلاط الطيب ذاتها التي نزل بها الوحي على موسى – و قال بصوتٍ يكاد يكون همساً: "اعلموا يا سادة الصليب، أن الأنبياء لم يرحلوا عن هذا المكان قط، بل تركوا "ظلالهم النورانية" في زوايا الهيكل. لكل نبيٍّ من لدن آدم حتى المسيح "مقامٌ روحي" هنا؛ ففي الركن الشمالي تسكن هيبَةُ إدريس (أخنوخ) الذي رُفِع مكاناً علياً وعلم الناس لغة القلم، وفي المركز يفيض جلال إبراهيم الذي جعل من هذا الجبل محجاً للقلوب قبل أن تُبنى الأسوار"

توقف عزرا قليلاً، ثم أشار بيده نحو الصخرة المشرفة التي يتوسطها المسجد، وتابع بنبرة يملؤها التقدير لسرِّ لا يدركه رفاقه: "ولا تنسوا يا أبنائي أن هذه البقعة كانت الخاتمة لرحلة الأرض والبدائية لرحلة السماء؛ فمن هنا، وفي ليلة صامته، أُسري بنبي الشرق "محمد"

من المسجد الحرام إلى هذا البيت المقدس، ومن فوق هذه الصخرة التي نقف عليها، كان "معراجة" نحو السماوات العلاء. إن أهمية هذا الجبل تكمن في كونه الميناء الوحيد الذي اجتمعت فيه أرواح جميع الأنبياء خلفه في صلاة واحدة، ليؤكد أن الدين واحد وإن تعددت الشرائع. هذا المكان هو "سدرة المنتهى" الأرضية، حيث ترفع الأفعال وتتنزل الأقدار، ومن يسيطر على الهيكل، يسيطر على البوابة التي عبر منها خاتم المرسلين إلى الملكوت الأعلى.

شرح لهم عزرا سرّ "الكاروبيم" (الملائكة الحارسة) المشتعلة فوق التابوت، مؤكداً أنها ليست تماثيل من ذهب، بل هي "بوابات طاقة" تحمي الحضور الإلهي (السكينة). قال لآرنولد و قد غمره الوجل : " إنَّ الأنبياء كانوا يستخدمون هذا الهيكل كـ "معراج" للروح؛ فمن خلال الصيام والصمت وتلاوة الأسماء العظمى، يمكن للفارس أن يتصل بـ "العقل الكلي". هذا المكان يحفظ "الأثر المادي" للوحي؛ فالحجر الذي لمسهُ سليمان لا يزال ينبض بدعائه الذي سخر به الجن والريح، والماء الذي اغتسل به زكريا يحمل سرّ العطاء من العقم "

ثم كشف لهم عن مفهوم "الزمن النبوي"؛ وكيف أن الصلاة في محراب الهيكل لا تُقاس بالدقائق، بل بمدى صعود الروح في درجات اليقين. وأردف : " سأعلمكم كيف تطهرون أجسادكم لتمسي "هياكل صغرى" تحاكي هذا الهيكل الأكبر؛ فالفارس الحقيقي لا يقاتل بقوة عضلاته، بل بمدد يستنزله من أرواح الأنبياء الرابضة هنا. إن بقاءكم هنا هو "اعتكاف" في حضرة الغيب، ومن يخرج من هذه الخلوة سيكون قد ذاق من كرم سليمان، وحكمة داود، وفداء المسيح ورحمة محمد "

في تلك الليلة، لم يشعر آرنولد بأنه يدرس تاريخاً، بل أحس بأن الأنبياء يمشون معهم في الممرات المظلمة، وأن سيفه الذي أقسم به

قد بات مغموساً في طهر "المسحة المقدسة".

بينما كانت جدران الجناح الجنوبي في الأقصى تزداد صلابةً بالصمت، كان العالم الخارجي في القدس يغلي بمرجل الشكوك والريبة. لم يمرَّ انزواء الفرسان التسعة دون أن يُثير عاصفةً من التساؤلات في بلاط الملك "بلدوين الثاني" وأروقة الكنيسة؛ فكيف لجيش نذر نفسه لحماية الحجاج أن يحبس نفسه خلف الأبواب، تاركاً الطرق لقطاع الطرق، ومنشغلاً بنبش التراب وصمت الخلوة؟

كان بلدوين الثاني، المعروف بـ "بلدوين دي بورغ"، رجلاً صلباً قد صهرته المعارك والأسر؛ تربّع على عرش "مملكة بيت المقدس" عام **1118**. و لم يكن مجرد حاكم للمدينة المقدسة، بل كان الحاكم الأعلى لكل الممالك الصليبية في المشرق، وتمتد سيادته لتشمل حماية إمارة أنطاكية، وكونتية الرها، وكونتية طرابلس. كان سياسياً بارعاً ومقاتلاً لا يشقُّ له غبار، وقد عُرف بدعمه المطلق للفرسان منذ أن منحهم جناحاً في المسجد الأقصى الذي كان يتخذة قصرًا له، لكنَّ هذا الدعم بدأ يهتزُّ تحت وطأة ضغوط النبلاء الطامعين الذين رأوا في الفرسان تهديداً لمصالحهم. تزايدت الضغوط حين بدأ كبار القساوسة يتهايمسون عن "بدعة" تُطبخ في الخفاء، ووصل الأمر إلى مُطالبه الملك بتقرير وافٍ عما يجري خلف تلك الجدران الموصدة.

وفي لقاء عاصفٍ في قصر "برج داود"، وقف هوج دي باين أمام الملك بلدوين الذي ضاق ذرعاً بالغموض، وقال الملك بنبرة حادة: "يا هوج، لقد منحتمكم قصري والسيادة، والآن أسمع أنكم وجدتم ذهباً وسحراً تحت الأرض، وأنكم اعتزلتم الحرب للصلاة مع شيخ سامري.. أريد الحقيقة، أو أستردهم مفاتيح الجناح!"

هنا، برزت عبقرية هوج السياسية في المناورة؛ فلم ينف ولم يؤكد،

بل استخدم "لغة الضرورة والقداسة". انحنى هوج بوقارٍ مدروس وقال : "يا جلالة الملك، إننا لا ننبش عن ذهبٍ يفنى، بل ننبش عن "شرعية ملكك" وعن الأمانات التي تركها سليمان لحراس الهيكل. إننا في خلوة لتطهير أرواحنا من دنس الحرب، حتى نكون جداراً روحياً يحمي القدس قبل أن يحميها الفولاذ. إن ما نفعله هو استنزال للبركة التي ستجعل ملكك عصياً على الانكسار."

ولتهديئة ثائرة الكنيسة، استطاع هوج بذكاء الثعلب أن يرسل رسائل مشفرة إلى صديقه القوي "برنارد من كليرفو" في فرنسا، يصف فيها الخلوة بأنها "إعادة إحياء لروح الرهبنة الأولى"، مما جعل الكنيسة تتردد في مهاجمة جماعة يدعمها أقدس رجل في أوروبا. عاد هوج إلى آرنولد ورفاقه وهو يمسح عرق المواجهة، وقال لهم: "لقد اشتريت لكم وقتاً بالكلمات المنمقة، لكن أعينهم لن تنام. الملوك يخشون ما لا يملكون، والكنيسة تخشى ما لا يفهم. صيروا كالأفاعي في الحذر وكالحمام في الطهر، فالحرب في الخارج لا تقل ضراوة عما نحفر لأجله في الداخل."

بفعل هذه المناورات، استطاع هوج أن يُسيج على "السر" بجدارٍ من السياسة والدهاء، مانحاً آرنولد والفرسان الفسحة اللازمة ليكملوا رحلتهم في غياهب الهيكل، بينما ظلت القدس تتحدث عنهم بذهول، لا تدري أنهم قديسون يلامسون السماء، أم عصاة يوقظون شياطين الأرض.

سار آرنولد تحت جناح ليلٍ مقدسي يلفه الغموض، مخترقاً أزقة ضيقة لم تطأها أقدام الفرنجة من قبل، حيث الجدران الكلسية العتيقة تتقارب كأنها تتبادل أسراراً دُفنت منذ آلاف السنين. كانت الطرقات ملتوية كأمعاء ماردي حجري، تفوح من زواياها المظلمة روائح التوابل العتيقة الممزوجة بعبير الياسمين الذي يتسلق الشرفات الخشبية. تعثر

بظلال الأقباس التي تعلو الممرات، حيث يمتزج ضوء القمر الشاحب ببرودة الحجر الصماء، وساد سكون لا يقطعه سوى وقع خُطاه الرزينة على الحصى الملساء. كانت القطط المشردة تراقبه بعيون تلمع كاللواقيت من فجوات الجدران، وكأنها حراس صامتون لمملكة الظلال. عبر قنطرة منسية تفضي إلى "حارة السامريين"، حيث بدت البيوت أكثر انغلاقاً على نفسها، وكأنها تدرأ عن سُكَّانها فضول العالم الخارجي. عند نهاية زقاق مسدود إلا من باب خشبي عتيق مطعم بالنحاس، توقف آرنولد فهذا هو العنوان بحسب إرشاد الشيخ عزرا، شعر بأن الهواء هنا يزداد ثقلاً، معبقاً برائحة كيميائية غريبة لم يعهدها من قبل.

كان الباب موارباً فدفن آرنولد إلى الداخل، ليجد نفسه في عالم يكسر قوانين المادة والمنطق؛ كان مختبر عزرا رَحماً مظلماً تشتعل في زوايا نيران ملونة تنبعث من قوارير زجاجية ملتوية الأعناق. اصطفت على الرفوف الحجرية جِرارٌ من الفخار تحمل ملصقات بلغات بائدة، وبجانبها جماجم حيوانات نادرة وأحجار كريمة لم تُصقل بعد، تلمع ببريق باطني. كانت الموازين الدقيقة تتوسط المكان، وبجانبها أفران صغيرة (بواتق) يغلي فيها رصاص ذائب يميل لونه للزرقة الغامضة. تصاعدت أبخرة بيضاء كثيفة من أحواض خشبية، مخلفة وراءها بلورات ملحية تشبه النجوم الصغيرة العالقة في شباك العنكبوت. كما تدلت من السقف خرائط فلكية مرسومة على جلد الأفاعي، تتقاطع فيها دوائر البروج مع رموز المعادن السبعة القديمة. كان المكان يضج بصوت "قرقرة" السوائل التي تنتقل عبر أنابيب نحاسية دقيقة، وكأن الجدران ذاتها تتنفس علماً لم تعرفه جامعات الغرب بعد.

أطل عزرا من بين سُحب البخار المتصاعد، ووجهه يطفح بسكينة لا يملكها إلا من روض النار، مسح يديه بخرقة مخضبة بمساحيق

ذهبية، وأشار لآرنولد بالجلوس أمام طاولة خشبية ضخمة افترشتها لفائف البردي، ثم خاطبه بصوت يملؤه الترحيب :

"لقد جئت في اللحظة التي يتصالح فيها الكبريت مع الزئبق يا آرنولد. هل تأملك في الهيكل جعلك تبحث عن الأجوبة وسط هذه السموم؟"

التفت آرنولد حوله، وقد غمرته هيبه المكان وأجمت لسانه الدهشة، فرمق الأواني المتفجرة بالضوء وسأل بفضول امتزج بالرهبة :

"سيدي عزرا، لم أكن أعلم أنك تتعامل مع النار والمعدن بهذا الشكل.. هل تحاول حقاً تحويل الرصاص إلى ذهب كما يزعم المشعوذون في بلادي؟"

أرسل عزرا ضحكة خافتة ترددت أصداؤها بين القوارير الزجاجية، ثم حدق في عيني آرنولد ببريق حكيم، وأجابته بكلمات تزن جواهر الحقيقة :

"الذهب يا آرنولد هو 'الصنم' الذي يعبد الجاهل، أما 'الخيميائي' الحقيقي فلا يهتم بملء جيوبه. الخيميائي ليست فن تحويل المعادن، بل هي فن تطهير الروح. نحن نضع الرصاص في النار لنخلصه من شوائبه حتى يصبح ذهباً، تماماً كما تفعل بنا 'خلوة الهيكل'؛ نحن نضع أنفسنا في أتون الصمت والعبادة لنحرق فينا 'الرصاص البشري' - الخوف، الطمع، والجهل - حتى تشرق في صدورنا 'شمس الروح' الذهبية. المعدن الذي تراه يغلي هناك هو مجرد مرآة لما يحدث في أعماقك."

تأمل آرنولد الأبخرة المتراقصة أمامه، وشعر كأن حجاباً من الجهل تنقش عن بصيرته، فتمتم بكلمات خافتة :

"إن هي كيمياء النفوس لا الأحجار؟"

أوما عزرا برأسه وقرب مشعله من لوح نحاسي نُقشت عليه طلاسُم

لا عهد للبشرِ بها، وقال بنبرةٍ يملؤها الجلال :
 "كلاهما واحد، فالكونُ كله نسيجٌ متصل. انظر إلى هذه الرموز
 المكتوبة فوق هذا اللوح النحاسي.."
 مررَ آرنولد أصابعه فوق الأخاديدِ الغائرةِ في النحاس، وأحسَّ ببرودةٍ
 غريبةٍ تخرقُ جسده، فهتفَ بتعجب :
 "هذه ليست لغةً بشريةً.. إنها تشبه الرموزَ التي رأيناها تحت
 الأرض."



تنهد عزرا تنهيدة عميقة ، ثم بدأ يشرح سرَّ الحروفِ التي سبقتِ
 الخليقة، بصوتٍ يحملُ رنينَ الوحي :

"هذه يا بني هي 'لغةُ الملائكة'، أو لغةُ النورِ الأولى. هي لغةٌ لا
 تعتمدُ على الصوتِ بل على 'الرنين'. الأقدمون، ومنهم إديسُ
 (أخنوخ)، عرفوا أنَّ لكلِّ حرفٍ من هذه الأحرفِ تردداً يهزُّ جزيئاتِ
 المادة. إذا نُطقتْ هذه الكلماتُ بيقينٍ تام، فإنها تفتحُ مغاليقَ الحجرِ
 وتخطبُ قوى الطبيعة. نحن لا نتعلمُ لغاتِ البشرِ لنكلمَ الناس، بل
 نتعلمُ لغةَ الملائكةِ لنفهمَ 'الكلمة' التي بدأ بها الخلق."

أطرقَ آرنولد رأسه، وقد أثقلتْ كاهله عظمةُ الأمانة، فسرى في
 صوتهِ همسُ العجزِ المقترنِ بالشوق :

"أشعرُ أنَّ رأسي يضيقُ بكلِّ هذا العلمِ.. هل سأتمكنُ يوماً من نطقِ

هذه الكلمات؟"

وضع عزرا يده الثقيلة فوق كتف آرنولد، كأنه ينقل إليه قبساً من ثباته، وطمأنه بلهجة واثقة كالقدر:

"ستنطقها حين يخرسُ فيك 'آرنولد الحطاب' تماماً، ويولد 'آرنولد

الحارس'. السيف الذي تحمله يا بني هو أداة للقتل، لكن الكلمة التي ستتعلمها هنا هي أداة للخلود. تذكر أن القلاع التي ستبنيها في المستقبل لن تصمد بفضل سماكة الحجر، بل بفضل 'البركة' التي ستودعها فيها عبر هذه الحروف والنسب المقدسة."

ساد صمتٌ طويل، بينما كان آرنولد يحدق في نيران المختبر، مدركاً أن السحر الذي كان يخشاه في صغره ليس إلا 'علماً مقدساً' انتزع من رحم الحقيقة، وأن معركته القادمة لن تطلب منه قوة ذراعه فحسب، بل طهارة لسانه.

ومع انقضاء ساعات الليل الثقيلة، تحولت تلك الجلسة من مجرد درسٍ جاد إلى سهرةٍ روحية بامتياز، غاب فيها الزمكان وتداخلت فيها الأبعاد؛ فاستخرج عزرا من خزانة حجرية قديمة زجاجة من شرابٍ عسليٍّ يفوحُ بعبير الأعشاب الجبلية، وصبَّ لآرنولد كأساً دفعت البرودة عن أوصاله. وبينما كان ضياءً القناديل يرقصُ فوق الجدران، استرسل عزرا في كشف المزيد من "أسرار التحول"، موضحاً لآرنولد بأسلوبٍ شيق أن الروحانيات ليست هروباً من الأرض، بل هي "خيمياء الوجود" ذاتها؛ حيثُ تذوبُ الأنا في حضرة الحقيقة كما يذوبُ الرصاص في البوتقة.

حدّثه عزرا بفيضٍ من الشجن عن "ميزان القلوب"، وكيف أن الصلاة الصحيحة هي ترددٌ يتناغم مع نبض النجوم، وأن العارف يستطيع استنزال القوة من الكلمات المنسية ليداوي بها جراح الجسد والروح. رأت عينا آرنولد في تلك السهرة جانباً آخرًا من معلمه؛ لم يكن الشيخ

الصارم، بل الصديقَ الودود الذي يبتسمُ وهو يشرحُ كيف أنّ
"الإنسان هو الهيكل الحقيقي" وما البناءُ الحجريُّ إلا صدئٌ له. غادر
آرنولد ذلك المختبر عند انبلاج الفجر، وهو يشعرُ بخفةٍ لم يسبق لها
مثيل، وكأنّ كلمات عزرا قد حولت "حطب" قلبه القديم إلى "نور"
سائلٍ يُضيء له ممراتِ الهيكل المظلمة.

من المحراب

إلى الميدان

كان الفرسانُ التسعةُ غارقين في لُجّةِ السكونِ الصوفي، حيثُ تحول جناحُ هيكلِ سليمان الجنوبي إلى محرابٍ كونيّ يضيءُ بشذا المعرفة العتيقةِ الممزوجةِ بنورِ الشموعِ المرتجفةِ. جلسوا كأيقوناتٍ رُخاميةٍ حولَ "عزرا"، ينهلونَ من لغةِ النورِ ومن فيضِ النسبِ المقدسة، وقد تلاشتْ ذواتهم في سديمِ الملكوتِ الغيبيّ حتى نَسوا خشونةَ الفولاذِ وصليلَ النصال. كانت أرواحهم تسبحُ في مداراتِ السبعةِ آلافِ سنة و اليوم الثامن، مُحلّقةً فوقَ جراحِ الممالك، في عزلةٍ طهرتْ أبدانهم من أدرانِ الفناء وجعلتْ من الصمتِ معراجاً وحيداً لمناجاةِ الخالق.

وفجأةً، انشقتْ سكينَةُ المكانِ بدويّ طرقاتٍ عنيفةٍ زلزلتْ الأبوابَ الموصدة، ودلفَ مبعوثُ الملكِ "بلدوين الثاني" يلهثُ والذعرُ يملأُ عينيه، ليقطعَ بصرختهِ حبلَ التجليِ القدسي. وقفَ المبعوثُ وسطَ الفرسانِ الشاحبينِ يصيحُ بلهجةٍ محمومةٍ: "يا سادةَ الهيكل، اتركوا صلواتكم فقد دنا الموت! الزحفُ الفاطميُّ قادمٌ كالإعصارِ من جهةِ عسقلان، والملكُ يأمركم بالخروج فوراً لتقودوا طليعةَ الجيش، فالقدسُ تترنحُ والعدوُّ أقسمَ ألا يتركَ فيها حجراً فوقَ حجر."

تسمرَ الفرسانُ في أماكنهم، بينما كانت كلماتُ المبعوثِ تسقطُ كالمطارقِ على رؤوسهم، تعيدهم قسراً من صفاءِ المسجدِ الأقصى إلى جحيمِ الواقعِ الحربيّ، مطالبةً إياهم بمغادرةِ "صوفيةِ المحراب" والعودةِ إلى حطامِ الميدانِ وضجيجِ الدماء.

كانتِ الأنبياءُ تصفُ زحفاً فاطمياً مرعباً، حيثُ تتقدمُ جحافلُ "الخلافةِ" كبحرٍ أسودٍ لا يرى الناظرُ آخره، ترفرفُ فوقهُ الراياتُ القاتمةُ وتحفُّهُ صيحاتُ الآلافِ من الرماةِ السودانيينِ والخيالةِ العرب. زحفُ جبرِّ خلفه أسلحةُ الحصارِ الضخمةُ ويقوده قادةٌ أقسموا على استردادِ "بيت المقدس" ومسحِ أثرِ الصليب، فاستحالتِ الصحراءُ تحتِ أقدامهم إلى غابةٍ من الرماحِ تثيرُ غباراً يحجبُ ضوءَ الشمسِ ويهددُ بابتلاعِ كلِّ حصونِ الإفرنج.

في تلك اللحظة، استعرَ في صدرِ "آرنولد" صراعٌ مريزٌ لم يعرفه من قبل؛ فقد أحسَّ بأنَّ السيفَ الذي يتدلى بجانبه قد صارَ غريباً عن يده التي اعتادتْ لمسَ كفنِ النورِ ومخطوطاتِ الأنبياء. كان قلبه يرتجفُ بينَ "سكينةِ الرهبنة" التي ذاقَ حلاوتها وبينَ "نداءِ الدم" الذي يدفعه نحو الوغى، متسائلاً بمرارة: **كيفَ لمن أبصرَ أسرارَ القيامةِ والنسبةِ الذهبيةِ أن يعودَ لجزرِ الرؤوسِ وتحطيمِ العظام؟** شعرَ بخوفٍ حقيقيٍّ، ليس من الموت، بل من فقدانِ ذلك الصفاء الذي بناه في شهورِ الخلوة، ومخافةً أن تتلوثَ بصيرتهُ بغبارِ الحقدِ وانتقامِ المعارك. قبضَ على صليبهِ الأحمرِ الجديد، وشعرَ بثقله كأنه ميثاقٌ لا يرحم؛ فالفارسُ فيه كان يطالبُ بالثبات، والراهبُ فيه كان يبكي على سلامٍ ضاعَ منه في لمحِ البصر، ليجدَ نفسه في نهايةِ الأمرِ مضطراً لخوضِ القتالِ كآلةٍ مقدسة، تحمي السرَّ بالدمِ وتشقُّ طريقَ الحقيقةِ في خاصرةِ الأعداء.

كان القبو يغصُّ برائحةِ "البخور الملكي" الذي عبَّاه عزرا السامري في مباخر نحاسية عتيقة، في تلك الساعة التي تسبق الفجر حين تصبح الأرواح أكثر شفافية وأقرب إلى الملكوت. وقف الفرسان التسعة في حلقة دائرية يتوسطهم عزرا، الذي لم يعد في أعينهم مجرد شيخ غريب، بل صار "البوصلة" التي تضبط اتجاه أرواحهم وسط عواصف المشرق.

تقدم آرنولد بصدورٍ شامخة، فقام عزرا بغمس إبهامه في وعاءٍ صغير من العقيق يحتوي على "زيت المسحة المقدسة" المستخلص من المرِّ والقرفة ونبات "الناردين" النادر، ورسم فوق جبين كل واحد منهم رمز "النسبة الذهبية" بخطوطٍ شفافة لا تُرى إلا بضوء البصيرة. همس عزرا وهو يلمس جبهة آرنولد: **"هذه المسحة ليست لحماية جسدك من النصال، بل لحماية عقلك من وحشية القتل.**

أذهب يا بني، واعلم أن السيف الذي تحمله هو 'مشرط' في يد جراح؛ لا تضرب لتنتقم، بل لتطهر الميدان من الفوضى، ولتُبقي الميزان مستقراً."

أخرج عزرا من جعبةٍ جلديةٍ "تمائم" صغيرة من الذهب المصقول، نُقش عليها الرقم (8) متداخلاً مع رموز هندسية معقدة، وأمر كل فارس أن يضعها تحت درعه، فوق قلبه مباشرة. قال والدموع تترقق في عينيه : "هذه الرموز هي 'رنين' الهيكل الذي سيظل يتردد في صدوركم وسط صليل السيوف. إذا أظلمت الدنيا في أعينكم وسط الغبار، فتحسسوا هذه التمام ؛ فهي ستذكركم بأنكم لستم محاربين للأرض، بل أنتم حراس لليوم الثامن."

كان هوج دي باين يراقب هذا الطقس بصمتٍ مهيب، وحين حانت لحظة الوداع، جثا الفرسان التسعة على ركبهم في سجدةٍ أخيرة داخل الهيكل، وأقسموا "ميثاق الدم والسر". لم يتبادلوا كلمات الوداع التقليدية، بل كانت نظراتهم هي العهد؛ فقد أدركوا أنهم يغادرون "الفردوس" الذي بنوه في الخلوة ليدخلوا "جحيم" الرمل، وأن عودتهم قد لا تكون بأجسادهم، بل بأرواحٍ صبغها الغيب بصبغةٍ لا تمحوها الدماء.

التفت آرنولد نحو الباب المؤدي إلى الخارج، وكان يلمس بيده ملمس التميمة الذهبية تحت قميصه الخشن، وشعر بقوةٍ غريبة تسري في مفاصله؛ لم تكن قوة عضلات الحطاب القديم، بل كانت "قوة اليقين" التي تجعل الموت مجرد بوابةٍ أخرى. قال عزرا وهو يفتح لهم الباب الأخير : "أذهبوا يا رهبان الحرب.. صيروا كالبرق الذي يضيء ولا يحرق، وكالرعد الذي يُسمع ولا يُرى، وعودوا إليّ قبل أن تغرب شمس الميثاق، فإنَّ الهيكل لا يزال ينتظر ختام الحكاية."

خرج الفرسان نحو خيولهم المطهمة، والقدسُ تودعهم بصمتٍ

مآذنها وكنائسها، مدركين أنهم يحملون معهم في هذا الوداع أثقل ما يمكن لبشرٍ أن يحمله: "أمانة الزمان" و"نصل الفداء".

انفتحت بوابات الجناح الجنوبي ببطءٍ مهيب، لتلفظ "الأشباح التسعة" نحو ضياء النهار الذي لم تُبصره أعينهم منذُ شهور، فحدث ما يشبه الشلل المفاجئ في قلب المعسكر الصليبي. توقفت قعقة السلاح وخرس صياح القادة، حين أطل هوج ورفاقه يمتطون خيولاً بدت كأنها نُحنت من الصخر والبرق، ملتحفين بعباءاتهم البيضاء الناصعة التي تتوسطها الصلبان القرمزية كجروح غائرة في صدر النور. لم تكن هيئة فرسان عاديين؛ بل كان في مشيتهم وقار الأباطرة ورهبة الرهبان، وجوههم شاحبة كالحجر المقدسي، وعيونهم زائغة ببريق باطني لا يرى الناس بل يرى ما وراءهم، مما بث رعباً خفياً حتى في نفوس رفاق السلاح الذين تراجعوا عن طريقهم بهيبة لم تُعرف لملك من قبل.

كان خروجهم "تعميداً بصرياً" للنظام الجديد؛ إذ تحولوا في لمح البصر من "بشر" مجهولين إلى "رهبان حرب" يفيضون بهالة غامضة تجعل الفولاذ تحت أيديهم يكتسب قداسة لا تُمس. رأى الجنود كيف أن هؤلاء التسعة لا يتبادلون حديثاً ولا يلتفتون، بل يتحركون ككتلة واحدة برأس واحد، فسرى همس في الصفوف: "إنهم ليسوا بشرًا، بل هم حراس الهيكل الذين استيقظوا من سبات الألف عام". الملك بلدوين الثاني نفسه، الواقف فوق شرفة برج داود، شعر ببرودة في عروقه وهو يرقب هذا "المارد الأبيض" الذي صنعهُ بيديه وكاد أن يخرج عن سيطرته، مدركاً أن هؤلاء الرجال قد غادروا حدود الطاعة الملكية ليدخلوا في طاعة سرٍ أعظم، وأن النصر الذي سيحققونه اليوم سيكون مهوراً بقوة تتجاوز حدود الفهم العسكري.

اصطف الجيش الصليبي خلفهم في وادي "تل الجزر"، وكان المدى يشتعل بغبار الزحف الفاطمي، لكن الفرسان التسعة ظلوا صامتين

كالصخور الرابضة قبل العاصفة. لم يهزّهم سهيل الخيل ولا قرع
طبول العدو، بل كانوا يشدون أجم جيادهم بهدوءٍ صوفيٍّ، وكأنّ
المعركة القادمة ليست إلا طقساً آخرّاً من طقوس التطهير. أرنولد،
الذي كان يشعرُ بنبض الأرض تحت حوافر جواده، أدرك في تلك
اللحظة أنّ ثوبه الأبيض لن يعودَ طاهراً، وأنّ السواد القادم من
عسقلان سيُصبغُ قريباً بحمرة دمٍ سيُراقُ دفاعاً عن "ميزان الزمان"،
فقبض على مقبض سيفه بيقينٍ من لا يخشى الردى، مستعداً لشقّ
غبار الوهم بنصل الحقيقة المرّة.

كان المشهدُ لوحةً سرّيةً تجمعُ بين بياض الأكفان وحُمرة الفداء؛
حيثُ وقفَ الفرسانُ التسعةُ أمامَ بحرٍ من السوادِ الفاطمي، يشكلون
"جداراً من اليقين" لم تعهده حروبُ المشرق. وفي تلك الثواني التي
سبقت الانفجار، لم يكن يُسمعُ إلا حفيفُ العباءاتِ في الريح، كأنه
حفيفُ أجنحة الموتِ التي تستعدُّ للإطباقِ على الميدان. كان العالمُ
يرقبُ ولادة "أسطورة فرسان الهيكل" في تلك البقعة من الرمل،
حيثُ ستتحولُ أجسادهم إلى متاريسٍ بشريةٍ تحمي السرّ بالدم، وتُثبتُ
للصديق والعدوّ أنّ الرهبان الذين سكنوا الظلامَ شهوراً، هم أشدُّ
الناسِ بأساً حين تشرقُ شمسُ الوغى.

انطلقت الصرخةُ الأولى، فشقتْ سكون الرمل كصاعقةٍ نزلت من
السماء، واندفع الفرسانُ التسعةُ في تشكيل "الإزميل" الحاد، حوّل
بياض عبااتهم إلى نصلٍ بشريٍّ عملاقٍ يشقُّ قلب الزحف الفاطمي.
لم يكن هجوماً عشوائياً، بل كان هندسةً حربيةً تعتمد على "تكتيك
الصدمة"؛ حيثُ تحركوا بتناغمٍ مذهل، متراصين كتفاً بكتف بحيث
لا يتركُ فرسٌ فرجةً لرمح، فكانوا يتقدمون كجدارٍ من الفولاذ يدهسُ
كل ما يعترض طريقه. انصبَّ الفرسانُ فوق مشاة السودان كموت
لا مفرّ منه، وكان أرنولد في طليعة الهجوم، يلوح بسيفه لا بضربات
الجندي المذعور، بل ببراعة المحارب النخبوي؛ فكان كل نصلٍ
يطلقه يحصدُ الأرواح بدقّة، في حين كانت حوافر خيله تدكُّ الأرض

بإيقاع يزلزلُ اليقين في قلوب العدو.

كانت المعركة فوضى عارمة من صليل الحديد وصهيل الخيل، التقت الجيوشُ في التحامٍ مروع، حيث تحولت الساحة إلى مرجلٍ يغلي من الأجساد والسيوف. طبق الفرسانُ تكتيك "التراجع الوهمي" ثم "الإلتفاف السريع"، مما أربك خيالة العدو وجعلهم يقعون في فخٍ كماشةٍ لم يتوقعوها. اخترق آرنولد الصفوف الأولى كإعصارٍ مهول ، ووجد نفسه وسط بحرٍ من السيوف المقوسة والرايات السوداء، لكنَّ الخبرة التي صقلتها "الخلوة" جعلت العالم يدور حوله ببطء؛ فرأى ثغراتِ الدروع قبل أن تلوح، وردَّ عليها بطعناتٍ حاسمة كانت تطيح بالفرسان عن سهواتهم كأشجارٍ تقتلعها العاصفة. لم تكن المعركة في نظره مجرد قتال، بل ممارسةً قصوى للسيطرة والسيادة على الميدان.

رأى الجيش الصليبي في الخلف هذا المشهد بذهولٍ شلَّ الحواس؛ فقد شاهدوا تسعة رجالٍ فقط يكسرون هيبة جيشٍ يمتدُّ على مدِّ البصر، ويفتحون في قلبه ثغرةً من النور والدم تعجزُ الجيوش الجرارة عن صنعها. صرخ هوج دي باين بصوتٍ جهوريٍّ أعاد تنظيم الصفوف المشتتة، وانقضوا بقوةٍ تضاعفت بفعل الانضباط الحديدي الذي لم يسبق له مثيل في حروب الشرق.

وسط معمعةٍ الوغى هذه ، وفي قلبِ الإعصارِ الذي أحدثته طليعةُ الهيكل، انشقتُ غلالةُ الغبارِ الكثيفةً عن فارسٍ فاطميٍّ لم يكن كغيره من المقاتلين. كان يمتطي جواداً عربياً أصيلاً بلونِ الليل، يرتدي درعاً مزركشاً بنقوشٍ كوفيةٍ مذهبة، ويلتفُّ بعباءةٍ خضراءٍ داكنةٍ ترفرفُ خلفه كأجنحةٍ عقاب. لم يكن يصرخُ أو يندفعُ بهياج، بل كان يتحركُ ببرودٍ أرسنقراطيٍّ مخيف، يشقُّ صفوفَ الفرنجةِ بنصلِ سيفه اليمانيِّ الرقيق كأنه يؤدي طقساً شعائرياً.

تلاقت الأعينُ وسطَ صليلِ الحديد؛ آرنولد بعباءته البيضاء الملطخة،

وهذا الفارسُ الغامضُ بوقاره الشرقيّ. اندفعا نحو بعضهما كشهابين اصطدما في كبد السماء، ودارت بينهما مبارزةٌ لم تكن مجردَ تبادلِ طعنات، بل كانت حواراً بلغه الفولاذ. كان الفارسُ الفاطميُّ، الذي عُرف لاحقاً بلقب "أسد الجمالية"، يراوغ ضرباتِ آرنولد الثقيلة بخفةٍ مذهلة، وكأنه يقرأ مسارَ الريح قبل هبوبها.

في لحظةٍ خاطفة، تلاحمت السيوفُ واقتربت الوجوه حتى كادَ أنفاسُهما أن تختلط؛ لمَحَ آرنولد في عيني خصمه بريقاً مألوفاً، لم يكن بريقَ الكراهية العمياء، بل كان "نورَ العارفين". أحسَّ آرنولد برعشةٍ في وجدانه؛ فهذا الرجلُ الذي يُفترضُ أنه "عدوُّ الرب" في عُرفِ الكنيسة، يمتلكُ في نظراته سكيناً لا يملكها إلا مَنْ ذاقَ من خمرة الغيب التي سقاها له عزرا. تراجعَ الفاطميُّ بفرسه قليلاً، وبدلاً من أن يجهزَ على آرنولد في لحظةٍ تعثر، رفعَ سيفه بوقارٍ وحياءٍ بإيماءةٍ رأسٍ نبيلة، كأنه يعترفُ بوجودِ "نِدِّ" روحيٍّ في معسكرِ الخصم.

همسَ الفارسُ الفاطميُّ بكلماتٍ لاتينية رصينة أدهشت آرنولد : "يا صاحبَ الرداءِ الأبيض، السيفُ يقتلُ الأجساد، لكنَّ السرَّ يجمعُ الأرواح .. سنلتقي عندَ حافةِ الزمان."

انطلقَ الفارسُ مختفياً في زحامِ المعركةِ كما ظهر، تاركاً آرنولد في حالةٍ ذهولٍ زلزلت يقينه؛ فقد أدرك أن "السرَّ" الذي يحرسونه ليس ملكاً لصليبٍ أو هلال، بل هو لغةٌ كونيةٌ يعرفها "النبلاء" في كلِّ ملة. تلك المواجهة لم تترك في جسدِ آرنولد جرحاً، لكنها تركت في روحه سؤالاً أعمقَ من كلِّ ما تعلمه : هل نحنُ حقاً نتقاتلُ على الحقيقة، أم أننا نحرسُ الحقيقةَ ذاتها من جهلِ أتباعنا؟

انفرط عقد الجيشِ الفاطمي تحت وقع زحف فرسان الهيكل و جنودهم، وبدأ التراجعُ الكبير نحو أسوار عسقلان، تاركين وراءهم رمالاً اصطبغت بالأرجوان وشاهداً على ولادة قوةٍ لا تقهر. وقف

آرنولد في نهاية المعركة وسط ركام الدروع والجثث، وعباءته البيضاء قد تحولت إلى لوحةٍ داميةٍ تُوثقُ ملحمة الصمود، فنظر نحو القدس البعيدة وأدرك أن السيف قد أتمَّ مهمته في حراسة الباب في حين كان طيف الفارس الفاطمي يحوم حوله بلا توقف.

عاد السكونُ ليخيم على "تل الجزر"، لكنَّ صدى هذه المعركة كان قد بدأ يطوفُ الممالك، حاملاً معه اسم "فرسان الهيكل" كقدرٍ جديدٍ لا يمكن رده، وقوةٍ خافيةٍ تملكُ مفاتيح الأرض والسيادة.

عادت "الأشباح البيضاء" إلى القدس تحت جناح الغسق، تجرُّ خلفها خيولاً أرهاقها القتال، بعباءاتٍ لم يعد بياضُها الناصع سوى ذكرى، بعد أن صبغتها دماء "تل الجزر" بلونٍ قرمزيٍّ داكن. شقَّ الفرسانُ التسعة طريقيهم عبر شوارع المدينة الصامتة، حيثُ كانت نظراتُ الحجاج والجنود تلاحقهم بهيبةٍ تقتربُ من التقديس، لكنَّ هوج ورفاقه لم يلتفتوا لأحد؛ فقد كانت أرواحهم لا تزالُ عالقةً بين صليل السيوف وبين السكنينة التي غادروها قسراً. وبمجرد دخولهم إلى أروقة "المسجد الأقصى"، انغلق البابُ العظيمُ خلفهم، ليعودوا إلى حضن الصمتِ الذي ألفوه.

في زاويةِ السردابِ المظلم، كان عزرا السامري ينتظرهم كعادته، قنديله يرسلُ ضوءاً ضئيلاً يكشفُ عن وجهه الذي ازداد قلقاً. لم يبارك لهم النصر، ولم يسأل عن عدد القتلى، بل تقدم من آرنولد ومسح بيده المرتجفة بقعة دمٍ جافةٍ عن كتفه، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ يملؤه التوجس:

"لقد أديتم رقصة الموت في الخارج ببراعة، يا أبنائي.. لكن احذروا، فهذا النصر الذي يهللُ له العالم ليس سوى 'ستارٍ من الدخان'. وبينما كنتم تشقون صدور الأعداء في الميدان، كانت هناك خناجرٌ من نوعٍ آخر تُشددُ هنا، في قلب القدس، لتُغرسَ في ظهوركم."

توقف آر نولد عن نزع درعه، وتلاقت نظرات الفرسان بوجل، بينما تابع عزرا : "الخطر الحقيقي لا يرتدي عمامة فاطمية، بل يرتدي تيجاناً وصلباناً ذهبية. لقد علم الملك والبطيرك أن قوتكم في الميدان لم تأت من فراغ، وهم الآن يتهامون عن "السر" الذي تملكونه. المعركة التي خضتموها كانت فخاً لإظهار بأسكم، والآن، بعد أن كشفتم عن أنيابكم، لن يهدأ لبلدوين ولا لرجال الكنيسة بال حتى يقتحموا هذه الخنادق ليستولوا على ما نبش من باطن الأرض."

استل هوج دي باين سيفه الذي لم تجف دماؤه بعد، وقال بحزم : "لقد أقسمنا على حماية الهيكل بأرواحنا، فليأتوا إن شاؤوا، فلن نجدوا هنا سوى الموت."

هزَّ عزرا رأسه بمرارة وأردف : "الموت ليس حلاً عندما تكون الخيانة من الداخل. لقد بدأت خيوط المؤامرة تُنسج لاثامكم بالهرطقة والسحر، ليتخذوا من ذلك ذريعة لمصادرة كل شيء. الأيام القادمة يا هوج ستكون أقسى من وقع الرماح؛ فأنتم الآن لستم حراساً للطريق فحسب، بل أنتم طرائد لملوككم. استعدوا.. فقد اقتربت لحظة "الفداء الأخير"، حيث سيختلط الدم بتراب هذا المكان ليُغلق الباب إلى الأبد."

بهذه الكلمات، دخل الفرسان التسعة في حالة استنفارٍ قصوى، مدركين أن حربهم الحقيقية لم تبدأ بعد، وأن العدو الذي يقاسمهم الصلاة هو ذاته الذي يطمع في أسرارهم.

دم الفداء

في قلب قاعة العرش الموحشة بقلعة "برج داود"، حيث نيران المشاعل تترنح فوق الجدران كأنها تخشى استراق السمع، اجتمع الملك بلدوين الثاني بلفيف من النبلاء الذين غشي الطمع بصائرهم، ورهبان استوطن الحسد الأسود مآقيهم. لم تكن تلك الحضرة معقودة لرفع آيات الشكر للفرسان الذين رَووا بدمائهم ثرى "تل الجزر"، بل كانت محاكمة غيابة لقوة صامتة باتت تطاول هيبة العروش وتورق ملوك الأرض.

انتصب البطريرك بجبته المرصعة التي تعكس ضياء زائفاً، وأشار بإصبع ترتجف نقمة نحو ظلال المسجد الأقصى الذي يلوح في الأفق كجبل من الأسرار، وصاح بمرارة: "يا جلالة الملك، إن صمت هؤلاء التسعة خلف الأبواب الموصدة ليس صلاة، بل هو بدعة تُسج في الظلام. لقد رأينا بأسهم في الميدان؛ لم يكن ذلك صمود مؤمنين، بل كان سحراً أسوداً استجلبوه من نبش قبور الأنبياء مع ذلك الشيخ السامري المنبوذ. فبأي حق يستأثر هؤلاء 'الأوباش' بكنوز سليمان وعلومه دون كنيسة المسيح؟ لقد منحتم قصر كفاستحال حصناً لغيرك. إن من يملك القوة لهزيمة جيش مهول كالفاطميين بتكتيكات لا نفهمها، يملك القوة لانتزاع تاجك في غفلة من الزمان. نحن لا نريد ذهبهم فحسب، بل نريد تلك 'الفائف' التي يقدسونها؛ فهي مفاتيح السيادة على هذا المشرق، ولا يجوز أن تبقى في يد بشر عاديين صاروا فجأة رهباناً."

أطبق الملك قبضته القوية على مسند عرشه الخشبي حتى صر كأنما يستغيث، وقد استحال رماد شكوكه القديمة إلى يقين مريير يحرق صدره ..

هنا، انسل من بين الصفوف أحد النبلاء الذين أنقلت كواهلهم ديون الفرسان وضائق صدورهم بترفهم، فتقدم يهمس بمخطط الغدر كأفعى تنفت سماً: "الهرطقة هي نصلنا يا جلالة الملك. سنتهمهم بإنكار العقيدة وممارسة السحر، سنهجم على جناحهم في الهزيع

الأخير من الليل. لن ننتظر استئذاناً، بل سنقتحم خنادقهم ونضع
أيدينا على "السر" قبل أن يخفوه أو يهرّبوه. فليكن دمهم هو القربان
لتأمين مُلكك من غواية الرهينة المارقة."

وفي لحظة مشؤومة، كُتِبَ ميثاقُ الغدرِ بأحرفٍ من غِلِّ تحت ظلالِ
الصلبانِ الذهبيةِ الصامتة، حيثُ تقررَ أن تقتلعَ سيوفُ الإخوةِ براءةَ
العهدِ وتنتهكُ حرمةَ الهيكلِ.

في تلك الأثناء، كان آرنولد في غيابةِ صومعتهِ يتحسسُ تميّمتهُ فوق
قلبه بوجل، فشعر ببرودةٍ غريبةٍ تسرقُ الدفءَ من الهواء، كأنَّ
حجارةَ الهيكلِ ذاتها بدأت تننُّ بأهاتٍ مكتومة، محذرةٌ حراسها من
نصلِ الخيانةِ الذي كاد يلامسُ الظهرِ.

انقشع سكونُ ليلِ القدسِ عن خيانةٍ كانت تتلاعب بهواجسُ هوج منذ
حذرهم عزرا، إذ انشقَّ جدارُ الصمتِ فجأةً تحت وطأةِ ضرباتِ
الفؤوسِ التي انهالت كالصواعقِ على أبوابِ الجناحِ الجنوبيِّ في
المسجدِ الأقصى. لم تكن تلكَ الجلبةُ استئذاناً من مبعوثٍ أو صرخةُ
استغاثةٍ من مستجير، بل كانت نعيقَ غدرِ دوى في الأروقةِ التي لم
تألفْ سوى تبثُلِ التراتيلِ وحَفَقِ القلوبِ الواجلةِ. اقتحمَ حراسُ الملكِ
المدججونَ بالحدقِ قبلَ السلاحِ الممراتِ الضيقة، يتقدمهم قادةُ كسا
اللثامِ وجوههم طمساً لملامحِ الخزي، وهم يرفعون مشاعلاً تنفثُ
شررَ الحريق، وتلهجُ ألسنتهم بكلماتٍ مسمومةٍ تدّعي "تطهيرَ الهيكلِ
من المهرطقين والسحرة".

هبَّ آرنولد من رَجِمِ خلوتهِ على قعقةِ الفولاذِ التي انتهكتُ قداسةَ
المكان، فاستلَّ نصلهُ في لمحِ البصر، وفي الرواقِ الرئيسي، تلاحمتُ
أجسادُ الرفاقِ التسعة، حيثُ انتصب قائدهم هوج كطودٍ راسخ، تلمعُ
عباءتُه البيضاءُ في العتمةِ ككفنٍ شهيد، وزأرَ بصوتٍ زلزلَ القلوب:

"لقد كان عزرا على حق ، هذا ما حذرنا منه . ثبتوا أقدامكم يا حراسَ السرا! اليومَ لا نقاتلُ عدواً غريباً، بل نصطدمُ بغدرِ الإخوة. فلا مفرّاً لنا الآنَ إلا الصمودَ أو الموتَ بكرامة!"

اندلعَ الالتحامُ دامياً في المضائقِ الحجرية، حيثُ استحالَ المدى لضيقه إلى زنزانية موتٍ لا تتسعُ لمناورةِ الخيل. وجدَ آرنولد نفسهُ وجهاً لوجهٍ أمامَ رجالٍ كانَ يُقاسمُهُم الأَمَسَ مِلحَ الميدان، لكنه رأى في عيونهم جشعاً يُغشي الأبصار، لا نُورَ العقيدةِ الذي يدعون. صبَّ بأسهُ كله في نصله ، محولاً جدرانَ المسجدِ إلى حليفٍ يصدُّ عاديةً المقتحمين، فاصطبغتِ الأرضيةُ الرخاميةُ بالأرجوان، واختلطَ صريرُ الدروعِ المتهشمةِ بتمتماتِ صلواتِ الفرسانِ التسعةِ الذين تلاحموا كتفاً بكتف، مشكلين سداً بشرياً منيعاً أمامَ سيلِ الخيانة.

بيدَ أنّ طوفانَ الكثرةِ جرفَ شواطئَ الشجاعة؛ إذ تدفقتُ جحافلُ الجنودِ من كلِّ حدب، وأطبَقوا على الفرسانِ كفكّي كَمَاشَةٍ تحتَ نصالِ السهامِ المصوّبةِ نحو الصدور. ارتفعَ نباحُ الأوامرِ من شفّتي قائدهم : "لا تقتلوهم ، الملكُ يبتغيهم أحياءً لنصبِ موازينِ الحساب!" وجدَ الفرسانُ أنفسهمَ مخنوقينَ في زاويةٍ ضيقة، حيثُ شلّت حركاتهم تحتَ ضغطِ الرماحِ المشرعةِ والسيوفِ المصلّاةِ فوق الأعناق. وفي لحظةٍ من الانكسارِ المرير، جردَ هوج ورفاقه من فخرِ سلاحهم، وألقى بهم مكبلينَ بالأصفاد، بينما انقضَّ الحراسُ ينبشون ثيابهم وزوايا المكانِ كذئابٍ تنهشُ أطلالاً بحثاً عن "الكنز" الموعود.

توقفَ النبضُ في عروقِ آرنولد واستحالَ هواءُ رئتيه رماداً، حينَ امتدتْ يدٌ غليظةٌ لتعيثَ في أسراره وتنتزعَ من غيابةِ درعه "مخطوطةَ القسطنطينية" العتيقة. رفعَ القائدُ الغادرُ اللفافةَ عالياً بابتسامةٍ شامتهٍ تقطرُ زهواً، مُعلنًا في وجهِ الليلِ والسماءِ سقوطَ السرِّ الأكبرِ في قبضةِ الغدر.

لكن بينما كان ذاك القائد يرفع المخطوطة كأنها رأس مقطوعة، والفرسان يرسفون في أصفادهم تحت نظراتٍ تشفيّ باردة، انشقَّ جدارُ الصمتِ في الرواق عن حضورٍ لم يكن للحرسِ به علم. برز عزرا السامريُّ من بين الظلال الخلفية للمحراب. لم يكن يحمل سيفاً، بل كان يحملُ في يده قارورةً زجاجيةً غامضةً يتصاعدُ منها ضياءٌ أخضر باهت، وبجانبه رجالٌ من حراسِ الظلِّ يتشحون بالسوادِ التام. قبل أن ينبسَ أحدٌ بكلمة، ألقى عزرا بالقارورةِ فوق البلاطِ الرخاميِّ، فانفجرت بدويّ مكتوم، مطلقَةً سحابةً من أبخرةٍ كثيفةٍ ذات رائحةٍ نفاذة تشبهُ مزيجَ "المُرِّ والكبريت". في ثوانٍ معدودة، بدأت جفونُ الحراسِ تثقلُ، وتهاوت أسلحتهم من أيديهم كأنها أوراقُ خريف، وغابوا في نومٍ عميقٍ ومفاجئٍ قبل أن يدركوا ما أصابهم. ولم ينبجُ الفرسانُ التسعةُ أنفسهم من هذا الغثيانِ الساحر؛ إذ شعر آرنولد بأنَّ الأرضَ تميدُ به، وبأنَّ وجهَ عزرا يبتعدُ ويغيبُ في ضبابٍ كثيف، ليرتخي جسده ويسقطُ في هوةٍ من الظلامِ المطلق.

استفاق آرنولد على رذاذِ ماءٍ باردٍ يداعبُ سحنتهُ المتعبة، كأنه قطراتُ ندىٍ ضلّت طريقها إلى جوفِ الأرض. فَتَحَ جفنيه بجهدٍ جهيد، ليجدَ رُؤيتهُ تسبحُ في فضاءٍ غريبٍ لم يعهدهُ من قبل؛ كان قابعاً في قبوِ حجريِّ فسيح، جدرانهُ من الصخرِ الخام، وتفوحُ منه رائحةُ الطينِ العتيقِ والزمنِ المعتصر. كانت المشاعلُ المثبتةُ في أركانِ القاعةِ تشتعلُ بوقارٍ خافت، ترسمُ ظلالاً راقصةً على السقفِ المقبَّب، بينما كان رفاقهُ التسعةُ يستعيدونَ وعيهم من حوله،

يرمقونَ معاصمهم بذهولٍ بعدما تحلّلت عنها الأصفادُ كأنها لم تكن.

وسطَ هذا الصمتِ المهيب، انتصبَ عزرا أمامهم كطيفٍ من نورٍ ووجع؛ كانت ملامحُه قد غامت بسحبِ الحزنِ والجديّة، وبدت تقاسيمُ وجهه غائرةً وكأنَّ سحابةَ التخديرِ الكيميائيةة قد استنزفت آخرَ ما تبقى

في رُوحِهِ من رمق. تقدّم خطوةً، وانبعثَ صوتُهُ حاملاً ثقلَ الوداع
ومرارةَ الفراق :

"انهضوا يا أبنائي، فقد استبيحَ دمكم في القدس. الملكُ لن يكتفي
بانتزاع المخطوطة، بل سيقتلُ قلوبكم من بين ضلوعكم ليعرفَ ما
فيها. لقد انتهت مهمتكم في عيون الملك، ولم يعد لكم مقامٌ فوق
هذا الثرى الصاحب الذي تملكتهُ شياطينُ الطمع. عليكم العودةُ إلى
أوروبا تحت جناحِ هذا الليل، فالسرُّ الآن صارَ مطارداً، والرحيلُ هو
درعكم الوحيد وصمّتكم هو حصنكم الحصين."

اعتصرتِ المرارةُ قلبَ هوج ، فنهضَ والشررُ يتطايرُ من عينيه
المغسولتين بالخبيبة، وهتفَ بصوتٍ جريح :

"كيف نتركُ الهيكلَ والقدسَ في قبضةِ هؤلاء الخونة؟ كيف نُسلمُ
مهدَ الأنبياءِ لمن باعوا ذمّهم بذهبٍ فان؟"

عندها، حدّقَ عزرا في أعماقِ أرواحهم بيقينٍ زلزلَ القلوبَ الوجلة،
وأجابَ بنبرةٍ تخطّتْ حدودَ الخوفِ والبقاء :

"نحنُ حراسُ الظلِّ سنتابعُ المهمةَ.. سنحمي ما تحت الرخامِ نيابةً
عنكم كما فعلنا لآلاف السنين قبل أن تطأَ أقدامكم هذه الأرض. أنتم
الآن 'سفراءُ الحقيقة' في الغرب، فازرعوا بذورنا هناك، في تلك
الأرضِ الباردة، بعيداً عن أعينِ بلدوين ونصالِ غدره. اذهبوا
بسلام، فقد جهزتُ لكم خيولاً تسبقُ الريح، وسفينةً في يافا تشرعُ
أشرعتها بانتظارِ هربكم الكبير."

على رصيفِ ميناء "يافا" العتيق، حيثُ يصطدمُ موجُ المتوسطِ
بصخورِ التاريخ كأنه يحاولُ غسلَ خطايا الأخوة الغادرين، وقفَ
عزرا السامري كمنارٍ من الوقارِ والحزن، يرقبُ السفينةَ التي تستعدُّ
لابتلاعِ آخرِ خيوطِ المشرق. كانتِ السماءُ تتشخُّ بألوانِ الغسقِ

القرمزي، وكأن الأفق ينزف دماً وداعاً لأولئك الذين استوطنوا قلب الأرض وخرجوا منها بجراح الغيب.

ارتقى الفرسان التسعة سطح السفينة بخطى ثقيلة ناءت بحمل الأسرار لا الدروع. وقف آرنولد عند مؤخرة المركب، يلمس الخشب المالح بيديه الخشنتين، ويُشِخُ بوجهه نحو تلال القدس البعيدة التي بدأت تغيب في ضباب الذكرى. شعر بأن قلبه مرساةً فُقدت في قاع "الهيكل"، وأن جسده مجرد قشرة فارغة تمخر عباب الماء. كانت رائحة البحر الحريفة تمتزج في أنفاسه برائحة البخور الملكي الذي تعلّق بأسماله، فاستحال المكان برزخاً مالحاً بين يقين المشرق وغموض الغرب.

لوح عزرا بيده الراعشة من بعيد، فبدت قامته الضئيلة على الشاطئ كشمعة وحيدة ترفض الانطفاء. لم يصرخ بكلمات وداع، بل كانت نظراته تخرق الموج لتستقر في حدقات هوج، هامسة بالعهد الأخير: "ذهبوا.. صيروا أنتم الهيكل الجوال، واحرسوا النبض" حتى نلتقي في اليوم الثامن.

ومع ارتفاع الأشرعة البيضاء التي انتفخت بريح الشمال كأجنحة لملائكة مطرودة، بدأت اليبسة تتراجع، وانكشئت صورة عزرا حتى صار نقطة من نور وسط سواد الصخور. أحس آرنولد بغصة تخنق حنجرته؛ فالقدس التي فتحها بالسيف يوماً، يغادرها اليوم بدموع الرهبان، حاملاً في صدره سراً يزن الجبال، ومخطوطة صارت بوصلةً لتيه جديد.

بدأت السفينة تمخر العباب، مبتعدةً عن مهد الأنبياء نحو قارات لا تعرف عن "السبعة آلاف سنة" شيئاً، و آرنولد يرقب زبد البحر وهو يمحو أثر السفينة، مدركاً أن رحلة الشتات العظيمة قد بدأت، وأن بذور الهيكل التي زُرعت في دمائهم ستنبث قلاعاً من حجر وفكر

في أصقاع أوروبا الباردة، ليبقى ذكرُ عزرا والقدس ناقوساً يدقُّ في ضمائرهم كلما لاحَ خطرٌ جديد.

أما هناك في القدس ، فلم يكد غبارُ سنايكِ الفرسانِ يهدأُ على طريقِ يافا حتى انقضتْ كواسرُ الملكِ "بلدوين" على ما تبقى من أثرهم، فاقتحموا مخدعَ عزرا السامري بوهجٍ مشاعلٍ تقطرُ غلاً. لم يكن الشيخُ مستتراً بظلامٍ أو هارباً في نفق، بل كان جالساً في سكونِ جليديٍّ وسطَ مختبره الذي عاثتْ فيه أيدي الجنودِ فساداً، يرقبُ تحطمَ قواريره الزجاجية بعينين تفيضُ بصمتِ الأنبياء. سحبوه من لحيته البيضاء فوق بلاطِ القدس الخشن، وجروه مقيداً بالأصفادِ الثقيلة التي كانت تصدرُ رنيناً جنائزياً في أزقة المدينة الضيقة، بينما كان الشيخُ يطأطئُ رأسه ليس ذلاً، بل كأنه يودعُ ذراتِ الترابِ التي حرسَ سرّها لقرون. ألقى به في زنزانية تحت "برج داود"، حيث الرطوبةُ تأكلُ الجدرانَ والظلامُ يبتلعُ الأنفاسَ، لتبدأً فصولُ مأساةٍ لم تشهدها مدافنُ المشرقِ من قبل.

داخلِ غرفِ التعذيبِ القابعة في أحشاءِ القلعة، حيثُ يختلطُ أنينُ المعذبينَ بصريرِ سلاسلِ الحديد، وقفَ الملكُ "بلدوين" والبطيريكُ فوق جسدِ عزرا المنحلِّ، يطالبونه بمفاتيح الغيبِ ومكانِ البوابة التي ابتلعتْ أطماعهم. استُخدمتْ ضدهُ معصارُ الأصابعِ وسياطُ الجلدِ المغموسة بالخل، كما نُزعتْ أظافره وسطَ لهيبِ النيرانِ التي كانت تقترُبُ من جسده النحيل، لكنَّ الشيخَ لم يمنحهم سوى صمتٍ مطبقٍ تكسره ابتسامَةٌ غامضةٌ كانت تُثيرُ جنونَ جلاديه. كلما زادوا في تنكيلهم، كان يهمسُ بكلماتٍ غيرِ مفهومةٍ تجعلُ الجدرانَ تهتزُّ برنينٍ خفيٍّ، كأنما كان يستمدُّ بأسه من صخورِ الهيكلِ ذاتها. فشلَ الحديدُ والنارُ في انتزاعِ حرفٍ واحدٍ عن "ميزانِ الزمان"، وأدركَ الملكُ أنَّ هذا الشيخَ لا ينتمي لعالمهم، وأنَّ عذابه ليس إلا وقوداً ليقينٍ لا يُهزم، فصدرَ القرارُ بنصبِ العمودِ في الميدانِ العام لتكونَ النهايةُ مشهداً للعبرة والنكال.

وفي ضحى يومٍ مشهود، سيقَ عزرا نحو ميدانِ القدسِ الفسيح، يحيطُ به صمْتُ العامةِ الوجليْنِ وضجيجُ الجنودِ المدججين. نُصِبَ العمودُ الخشبيُّ وسطَ أكوامِ الحطب، ورُبطَ الشيخُ بالسلاسلِ وهو ينظرُ نحو السماءِ بنظرةٍ خرقَتْ حُجبَ الوجود. ومع اشتعالِ أولى شراراتِ النارِ وتصاعدِ ألسنةِ اللهبِ التي بدأت تلتهمُ عباءةَ الرثة، لم يصدرُ عنه صراخُ ألم، بل انطلقَ صوتهُ هادراً بلحنٍ قدسيٍّ وبـ "لغةِ الملائكة" السرية، صوتاً زلزلَ القلوبَ وأخرسَ الجموع. التفتَ نحو شرفةِ الملكِ وعيناهُ تشعانِ بنورٍ لا ينطفئ، وصرخَ بكلماتِهِ الأخيرةِ التي حُفرتْ في ذاكرةِ الزمان : "نحنُ سنذهبُ إلى الخلودِ في اليومِ الثامن، حيثُ تتحدُّ الأرواحُ بخالقِها، أما أنتم يا عبيدِ الطين، فمصيْرُكم السجنُ في الأيامِ السبعة، تدورونَ في دوائرٍ من الشقاءِ لا تنتهي، وتلهثونَ خلفَ مكانٍ لن تبلغوهُ أبداً!"

ومع انغلاقِ جفنيه وسطَ الرمادِ المتطاير، شعرَ الجميعُ بهزةٍ خفيفةٍ تحتَ أقدامِهِم، كأنَّ الأرضَ كانت تؤمنُ على قوله، ليرحلَ عزرا تاركاً القدسَ غارقةً في زنبِها وحراسِ الظلِ المجهولينِ قائمينِ على سرِ الهيكل، وهوج و فرسانه حاملينِ لوصيتهُ في شتاتِ الغرب.

حظین

في ليلة غاب قمرها عام **1144**، اهتزت عروش أوروبا لصرخةٍ مدوية جاءت من الشرق؛ لقد سقطت "الرها"، أولى القلاع الحصينة التي شيدها الغرب في بلاد الشام، تحت وطأة سيوف "عماد الدين زنكي". لم تكن تلك مجرد خسارة لمدينة، بل كانت زلزالاً هز كيان الكنيسة، فتعالت الأصوات في روما، وخرج البابا "إيجين الثالث" عام **1145** يقرع طبول حربٍ مقدسة جديدة، داعياً الملوك والفرسان لاستعادة المجد المسلوب عبر الحملة الصليبية الثانية.

ومع حلول عام **1147**، بدأت الأرض تميد تحت أقدام جحافل ملوكية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً من قبل. انطلق "لويس السابع" ملك فرنسا بفرسانه النبلاء، و"كونراد الثالث" إمبراطور ألمانيا بجيشه الجرار، يقطعون الفيافي والقفار والبحار، وتحذوهم الأمانى باستعادة "الرها". لكن القدر كان يخبئ لهم في دروب الأناضول أشواكاً وجبالاً، حيث تشتتت تلك الجيوش واصطدمت ببراعة السلاح.

وبعد رحلةٍ شاقة، وصلت بقايا تلك الأحلام إلى أبواب دمشق في يوليو **1148**. وقف الصليبيون أمام أسوار "الفيحاء" العريقة، وظنوا أنهم قاب قوسين من نصرٍ مؤزر، فضربوا عليها حصاراً أطبق على الأنفاس. لكن دمشق، بصمود أهلها واستبسال حاميتها "نور الدين زنكي"، أصبحت مقبرةً لطموحاتهم؛ ففي غضون أيام قليلة، انقلب الحصار وبالأغلب، وانهارت العزائم أمام أسوارها المنيعه.

تراجع الغزاة يجرون أذيال الخيبة، وفي عام **1149**، غادر الملوك المشرق بقلوبٍ منكسرة، تاركين خلفهم دماءً ضاعت سدى. عادت الجيوش إلى ديارها خالية الوفاض، لتسدل الستار على واحدة من أكثر الحملات إثارةً للجدل، تاركةً "الرها" في أحضان الشرق، ومعلنةً بداية عهد جديد من اليقظة الإسلامية التي مهدت الطريق لاحقاً لاستعادة القدس.

و مع اقتراب القرن الثاني عشر من خريفه، كانت رمال المشرق تمورُ بتحوّلاتٍ كبرى، كأنما الأرضُ تعيدُ صياغة قدرها من جديد. في الجانب المسلم، بدأت شطايا الشام ومصر تلتئم تحت عباءة واحدة، حيث انصهرت الأقاليم في جسدٍ سياسيٍ صلبٍ يقوده القائد العسكري الجديد صلاح الدين الأيوبي؛ جسدٌ كرديّ تضحّ في عروقه رغبةٌ عارمة في استرداد الجغرافيا وفرض الهوية، فباتت القوة الناشئة كالسيل الذي يجمع أطرافه قبل الانقراض الكبير.

وعلى الضفة المقابلة، كانت الممالك اللاتينية تعيشُ ليلها الطويل؛ حيث دبّ الوهنُ في مفاصلها، وانقسمت تيجانها على نفسها في صراعاتٍ مريرة حول شرعية العرش وأحقية القيادة، فباتت القلاعُ الشامخة تخفي خلف أسوارها تصدعاً في الرؤية وتشتتاً في الكلمة. وبينما كانت السياسةُ تحاولُ لجمَ الاندفاع، جاءت نزواتُ بعض القادة وطيشهم لتمزقَ ستائر الهدنة الرقيقة، وتدفعَ بالطرفين نحو هاويةٍ لا رجعة عنها.

وفي قلب هذا المشهد العاصف، انتصبت "القدس" كدرةٍ في تاج المستحيل؛ لم تكن مجرد مدينةٍ من حجر، بل كانت رمزاً سماوياً وقومياً تسكنُ في حدقات العيون والقلوب من كلا الجانبين. أمام هذا الإرث المثلث بالقداسة، والواقع المشحون بالعداء، لم يعد للسلم موطئ قدم، فبات الصدامُ العسكري حتميةً قدرية، وقصةً تنتظرُ فقط إشارة البدء لترسم بالحديد والنار ملامحَ خارطةٍ جديدة لوجه التاريخ.

وفي الرابع من يوليو، وتحت سماءٍ صبت جام غضبها لهيباً، استيقظت تلال "حطين" على فصلٍ هو الأكثر قسوة في رواية الصراع الصليبي الإسلامي، حيث وجد الجيش الصليبي نفسه حبيس فخٍّ من التضاريس القاحلة و مناخٍ لا يرحم، يرسفُ في دروعه الثقيلة التي تحولت إلى أفرانٍ من معدن، بينما استبقهم الجيش المسلم بالسيطرة على مصادر المياه وتطويقهم بتشكيلٍ دائريٍّ محكم. ومع بزوغ الفجر، أضرم المسلمون النيران في الأعشاب الجافة، ليرتفع

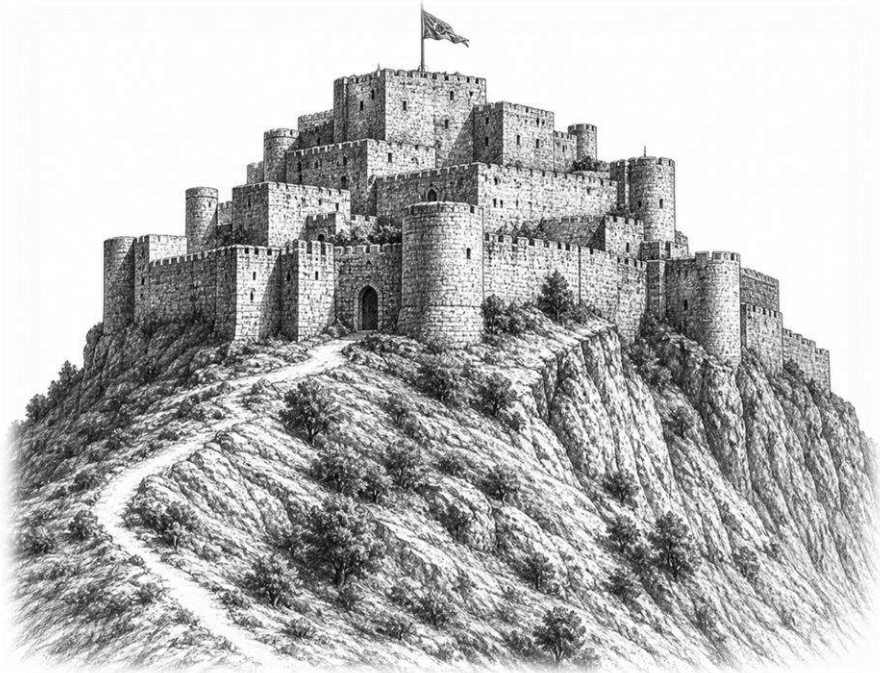
دخانٌ أسود حجب الأفق واحتبس الأنفاس، ممتزجاً بسموم الحر ليزرع في حلوق الفرسان عطشاً لا يرويه غير نصرٍ بعيد أو موتٍ قريب. كانت الساحةُ حينها مسرحاً لسفونيةٍ صاخبة من صليل النصال وصيحاتٍ تشقُّ كبد السماء، فمن جهة، استمات خيالةُ الفرنجة في محاولاتٍ انتحارية لشق طوق الحصار، ومن جهة أخرى، كان رماةُ السهام المسلمون يحيكون من نبالهم نسيجاً قاتلاً لا يترك في الصفوف ثغرة، ومع سقوط "الخيمة الملكية" ووقوع القادة في الأسر، انهارت الروح المعنوية وتوقفت المقاومة المنظمة.

أحدثت حطين زلزلاً عسكرياً غير وجه الشرق الأدنى؛ فبين عشية وضحاها، فقدت مملكة بيت المقدس قوتها الضاربة، مما ترك القلاع والمدن بلا حماية كافية، وكان هذا الانكسار مفتاحاً لعودة القدس ومعظم المدن الداخلية للسيادة المسلمة، مُنهياً بذلك مرحلة السيادة الصليبية الشاملة التي استمرت قرابة القرن. وعلى الصعيد الأوروبي، نزلت الهزيمة كالصاعقة، فكانت الدافع المباشر لتجهيز الحملة الصليبية الثالثة في محاولةٍ لاستعادة ما فُقد، بينما رسخت المعركة اسم صلاح الدين كقائد عسكري فذ استطاع توظيف الجغرافيا واللوجستيات لحسم الصراع. لقد كانت حطين نقطة تحول جذري، انحسرت بعدها الممالك الصليبية إلى شريطٍ ساحلي باهت، وبقيت في ذاكرة الزمان أيقونةً كبرى تشهد على أن وحدة الصف وتدبير القادة هما الفيصل في تغيير مسار الأمم.

بعد أن وضعت الحملة الصليبية الثالثة أوزارها في عام **1191**، نجحت القوات المتحالفة بقيادة ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد وملك فرنسا فيليب أغسطس في انتزاع مدينة عكا من حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد حصارٍ مرير. ومع بقاء القدس تحت السيادة المسلمة، بات على تنظيم "فرسان الهيكل" أن يبحث عن مركزٍ جديد

لثقله، فكان القرارُ التاريخي بنقل مقرهم الرئيسي (المركز العام) من "قبرص" التي لجأوا إليها مؤقتاً إلى قلب عكا النابض، لتصبح المدينةُ الساحلية "القدس البديلة" وعاصمةً عسكرية ودبلوماسية للوجود الصليبي في المشرق.

وفي عكا، شيد الفرسانُ تحت إشراف "الأستاذ الأعظم" آنذاك، روبرت دي سايل، قلعةً مهيبة عُرفت بـ "حصن الهيكل" (*Templar Castle*) عند الحافة الشمالية الغربية للمدينة، حيث كانت أسوارها تضرب في عمق البحر لتؤمن لهم طريقاً لا ينقطع من الإمدادات الأوروبية. لم تكن هذه القلعة مجرد حصن عسكري، بل أصبحت الخزانة المركزية لثروات التنظيم، ومقرّاً لإدارة شبكتهم المصرفية العالمية التي ربطت بين ملوك أوروبا وتجار الشرق. وطوال مئة عام تقريباً (من 1191 وحتى 1291)، كانت عكا هي القلب المحرك لكل تحركاتهم، والمنطلق الذي خرجت منه مواكبهم للمشاركة في مفاوضات الهدنة أو خوض معارك الكر والفر ضد المماليك والأيوبيين.



لكن هذا الاستقرار لم يكن إلا هدوءاً يسبق العاصفة، ففي عام 1291،

حاصر السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون عكا بجيش جرار، لتبدأ الفصول الأخيرة في حكاية الفرسان على أرض المشرق. استبسل الأستاذ الأعظم الأخير ، جيوم دي بوجو، في الدفاع عن الأسوار حتى سقط قتيلاً، ومع انهيار "برج الملعون" واختراق الممالك للمدينة، تراجع من تبقى من الفرسان إلى حصنهم البحري الأخير، ليخوضوا فيه معركة انتحارية استماتوا فيها بالقتال انتهت بتدمير الحصن ، مسدلين بذلك الستار على قرن كامل من العظمة في عكا، ومغادرين شواطئ المشرق نحو الغرب بذاكرةٍ مثقلة بالدماء و الذكريات الغزيرة و العواطف الجياشة ، فتطوى بذلك صفحة الوجود الصليبي في بلاد الشام للأبد و التي استمرت قرابة قرنين من الزمن.

النهاية

مع مطلع القرن الرابع عشر، كان الملك الفرنسي فيليب الرابع، الملقب بـ "الملك الحديدي"، يرى في تنظيم فرسان الهيكل - الذي انسحب من بيت المقدس و عاد إلى أوروبا - دولةً داخل دولته، وقوةً ماليةً هائلةً تفوق قدرة تاجه المثقل بالديون. لم تكن دوافع الملك مجرد رغبة في تطهير المملكة كما زعم، بل كانت مزيجاً معقداً من الجشع المالي والضرورة السياسية؛ فقد كان غارقاً في ديونٍ ضخمة للتنظيم عقب حروبه مع إنجلترا، ورأى في القضاء عليهم وسيلةً مزدوجة للتخلص من ديونه والاستيلاء على ثرواتهم وممتلكاتهم الواسعة في فرنسا. وبذكاءٍ يسكنه الحذر، حاك فيليب خطته في الخفاء، مستغلاً شائعاتٍ غامضة حول طقوس التنظيم السرية ليصنع تحركه بصبغةٍ دينية مقدسة تحميه من غضب الكنيسة.

وفي فجر يوم الجمعة، **13** أكتوبر **1307** م، استيقظت فرنسا على مشهدٍ لم يألّفه الزمان؛ ففي لحظةٍ واحدة ومنسقة بدقة مذهلة، فُتحت الأوامر الملكية المختومة التي وُزعت على حكام الأقاليم قبل أسابيع، لتشن السلطات حملة اعتقالات شاملة طالت آلاف الفرسان في وقتٍ واحد وهم في أسرتهن. كان المشهدُ مزيجاً من الذهول والرعب؛ فرسانٌ قضاوا حياتهم في ساحات القتال بالأراضي المقدسة، يُساقون الآن في أغلالهم عبر شوارع باريس كخارجين عن القانون. لم يكن لدى الفرسان وقتٌ للمقاومة أو حتى لفهم ما يحدث، فقد كان عنصر المفاجأة هو السلاح الأقوى الذي استخدمه فيليب لتحطيم هيبة التنظيم في ليلةٍ وضحاها.

لقد كانت تلك الجمعة هي الحجر الأول في انهيار هذا الصرح العظيم، ومن رحم صرخات المعتقلين في زنازين "برج المعبد" بباريس، ولدت أسطورة "الجمعة الـ **13**" المشؤومة التي لا تزال أصداءها تتردد في الذاكرة الشعبية حتى يومنا هذا. لم يكتفِ فيليب بالاعتقال، بل أطلق آلة دعائية ضخمة واتهاماتٍ بالهرطقة والفساد الأخلاقي لضمان تجريد الفرسان من تعاطف الشعب والبابوية،

ممهداً الطريق لعملية محاكمةٍ طويلة ومؤلّمة غيرت وجه القوى في أوروبا للأبد.

بعد خمس سنوات من المماثلة والتحقيقات المريرة التي جرت تحت سياط التعذيب، وصل المشهد إلى فصله القانوني الأخير في مدينة "فيين" الفرنسية عام **1312**. كان البابا كليمنت الخامس في موقفٍ لا يحسد عليه؛ فقد كان رجلاً ضعيف الشخصية، يرضح تحت ضغوط الملك "فيليب الرابع" الذي لم يكتفِ بنقل مقر البابوية إلى "أفينيون" الفرنسية ليكون البابا تحت ناظريه، بل هدده علانية بشق عصا الطاعة عن الكنيسة إذا لم يُصدر حكماً ينهي وجود فرسان الهيكل للأبد. كان البابا يعلم في قرارة نفسه أن التهم الموجهة للتنظيم تفتقر إلى الأدلة القاطعة، لكن موازين القوى كانت تميل بوضوح نحو "الملك الحديدي" الذي حاصر مقر المجمع الكنسي بجيشه لضمان صدور القرار المرجو.

وفي جلسةٍ سادها الصمت الثقيل والوجوم، أصدر البابا مرسوماً عُرف باسم "صوت في العلاء" (*Vox in excelso*)، أعلن فيه حلَّ تنظيم فرسان الهيكل رسمياً وبشكلٍ نهائي. لم يأتِ القرارُ كحكمٍ قضائي يثبت التهم، بل جاء كإجراءٍ إداري وضرورةٍ كنسية لحفظ السلام بين الكنيسة والدولة؛ فبجرة قلمٍ واحدة، أُلغيت امتيازاتُ التنظيم التي دامت قرنين، وصودرت ممتلكاتهم التي وُزعت ظاهرياً على "فرسان الاستبارية"، بينما التهم الجانب الأكبر منها خزينة الملك فيليب. كان هذا القرار بمثابة "الإعدام المعنوي" للتنظيم، حيث جُرد أعضاؤه من حمايتهم الدينية والقانونية، وتُركوا لمواجهة مصيرهم المجهول أمام المحاكم الملكية.

لقد كان مجمع فيين اللحظة التي أدرك فيها العالم أن زمن القوى الدينية العابرة للحدود قد انحسر أمام صعود الدولة المركزية القوية. وبحل التنظيم رسمياً، لم يعد أمام الفرسان إلا الاختفاء في ظلال التاريخ أو مواجهة المصير المحتوم فوق أعواد الحطب. ومع سقوط

الستار الكنسي عنهم، بقيت حلقةً واحدة أخيرة في هذه المأساة، وهي تصفية الرؤوس الكبيرة للتنظيم، وعلى رأسهم "الأستاذ الأعظم" الذي كان يرقب النهاية من خلف قضبان سجنه بانتظار اللحظة التي ستشتعل فيها النيران.

في ربيع عام **1314**، وتحديدًا على جزيرة صغيرة في نهر "السين" بباريس، نُصبت المنصة الأخيرة لمأساة فرسان الهيكل. هناك، وقف **جاك دي مولاي**، الأستاذ الأعظم للتنظيم رفقة المؤسس هوج، شيخاً طاعناً في السن أنهكه السجن والتعذيب لسبع سنوات، لكنه في تلك اللحظة استردَّ كبريائه المفقود. فبعد سنوات من الاعترافات القسرية تحت وطأة الألم، صدح "دي مولاي" أمام الملأ ببراءة تنظيمه من تهم الهرطقة، معلناً أن خطيئته الكبرى الوحيدة كانت الخضوع لتهديدات الملك والبابا والاعتراف بأباطيل لم ترتكبها يداه، ضارباً بعرض الحائط كل الوعود بالنجاة مقابل الصمت.

أثار هذا التراجع المفاجئ حنق الملك فيليب الرابع، فأمر بإعدامه حرقاً في مساء ذلك اليوم بتهمة العودة للهرطقة. ومع اندلاع السنة اللهب حول جسد الشيخ العجوز - و على غرار الشيخ عزرا في القدس - لم ينطق "دي مولاي" بصرخات الاستغاثة، بل أطلق، بحسب الروايات التاريخية، "لعنة" هزت قلوب الحاضرين؛ حيث استدعى الملك فيليب والبابا كليمنت الخامس للمثول أمام المحكمة الإلهية في غضون عام واحد. كان مشهد احتراقه وسط صمت الجماهير المذهولة يمثل الغروب النهائي لقرنين من المجد العسكري والديني، حيث اختلط رمادُ آخر أساتذة الهيكل بهواء باريس، معلناً نهاية الوجود الرسمي للتنظيم الذي ملأ الدنيا يوماً وشغل الناس.

ولم تنتهِ القصة عند انطفاء الجمر؛ فقد تحققت "لعنة الأستاذ الأعظم" بشكلٍ أثار رعب المعاصرين، حيث توفي البابا كليمنت الخامس بعد شهر واحد فقط من الإعدام، وتبعه الملك فيليب الرابع قبل نهاية العام ذاته في حادث صيدٍ غامض. وبموت هؤلاء الخصوم الثلاثة في عام

واحد، أسدل التاريخُ ستاره على واحدة من أكثر الروايات إثارةً للجدل والغموض، وتحول فرسان الهيكل من قوةٍ ملموسة على الأرض إلى أسطورةٍ تسكن كتب التاريخ ودروب الخيال، تاركين خلفهم تساؤلاتٍ لم تجد إجابةً حتى يومنا هذا.



بعد أن انطفأت نيران باريس، لم تنتهِ حكاية "فرسان الهيكل" بل تحولت إلى تيارٍ خفيٍّ تسلل عبر دروب أوروبا ومسالك البحار؛ فبينما كانت المشانق تُنصب في فرنسا، كان الناجون يحملون أرواحهم وما تبقى من أسرار تنظيمهم نحو آفاقٍ بعيدة، فرّوا

كالأشباح في ليلٍ طويلٍ، حاملين معهم ليس فقط كنوزهم المادية، بل عقيدتهم العسكرية ونظامهم الصارم الذي لا يذوب بقرارٍ ورقِيٍّ، و الأهم أسرار هيكل سليمان الخطيرة و الغامضة.

في البرتغال، وجد الناجون ملاذاً آمناً تحت حماية الملك "دينيس الأول" الذي رفض ملاحقتهم، فقام بذلكٍ سياسي بتغيير اسم التنظيم إلى "نظام المسيح" في عام **1379**؛ هناك استمر الفرسان تحت ثوبٍ جديد، محتفظين بقلاعهم ورموزهم، بل وكان لهم الفضل الأكبر لاحقاً في تمويل ودعم رحلات الاستكشاف البرتغالية الكبرى، حيث كانت سفن "فاسكو دي غاما" تبحرُ وعلى أشرعتها ذاتُ "الصلبان الحمراء" التي ميزت فرسان الهيكل يوماً ما. أما في إسكتلندا، التي كانت تعيشُ صراعاً من أجل الاستقلال وواقعةً تحت طائلة الحرمان الكنسي، فقد رحب الملك "روبرت بروس" بالهاربين؛ وتقول الأساطير إن هؤلاء الفرسان المهرة كانوا القوة الخفية التي رجحت كفة الملك في معركة "باتوكبورن" التاريخية، حيث ذابوا في المجتمع الإسكتلندي وانصهرت أسرارهم في تلافيف العائلات النبيلة.

لم يكن مصيرُ الناجين مجرد ذوبانٍ في المجتمعات، بل حملوا معهم "السرّ" المتمثل في تنظيمهم الهرمي، وخبراتهم في العمارة المقدسة، وتقنياتهم المصرفية السرية، و الأهم "مخطوطة القسطنطينية" و "أسرار هيكل سليمان" التي أورها أنولد و رفاقه أمانة للجيل الذي تلاه من الفرسان. وفي إسبانيا، انضم فرسان كثيرون منهم إلى "نظام مونثيسا" لمواصلة حروب الاسترداد، بينما اختفى آخرون في ثنايا الجمعيات السرية كحال "البنائين الأحرار" (الماسونية)، حيث استبدلوا السيفَ بالفرجار، وميدانَ الحرب بمحافل الرموز. وهكذا، تحول مستقبلُ الناجين من صراعٍ معنٍ على السلطة إلى تأثيرٍ مستترٍ في صياغة وجه أوروبا الجديد؛ فبقي "الهيكلُ" قائماً ليس كبناءٍ من حجر، بل كفكرةٍ تسلت إلى أنظمة الملاحة، والمال، والجمعيات السرية، ليظل لغزُ اختفائهم والوجهة النهائية لـ "أسطولهم المفقود"

الذي غادر ميناء "لاروشيل" ليلة الاعتقال، واحداً من أعظم أسرار
التاريخ التي لم تُكشف خباياها بعد.

غريباء في الوطن..

محتوى الكتاب :

الجزء الأول : أندلسيات
الجزء الثاني : فرسان الهيكل

